عبدالمجيد عبدالملك

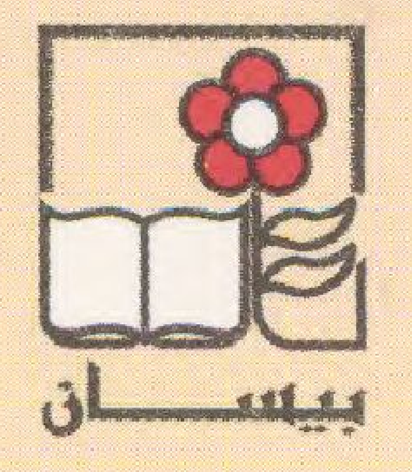
ساحل بلاد الشام والصراعات الدولية

٢٥٠٠ ق.م. - ٢٠٠١م



دراسة جيوبوليتيكية وجيوستراتيجية

٢٥٠٠ ق.م. - ١٣٠٧ م



ساحل بلاد الشام

والصراعات الدولية

عبد المجيد عبد الملك

ساحل بلاد الشام

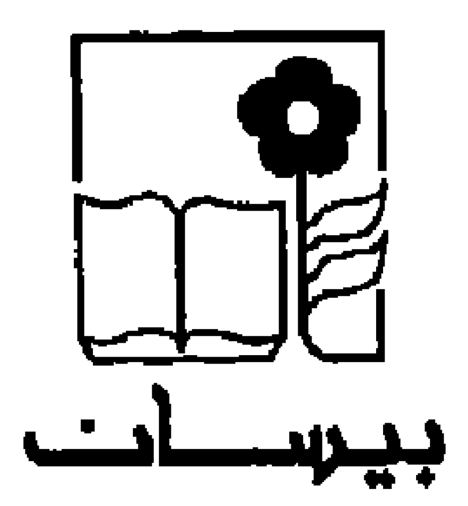
والصراعات الدولية

٢٥٠٠ ق.م. - ٢٠٠١م

دراسة في الجغرافية السياسية والجغرافية العسكرية - الأمنية

الكتاب الأول

٢٥٠٠ ق.م. - ١٣٠٧ م



بيسان

• اسم الكتاب: ساحل بلد الشام والصراعات الدولية.
• المؤلف: عبد المجيد عبد الملك
• الطبعة الثانية: كانون الثاني (يناير) 2002م.

• الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والإعلام
• ص. ب: 5261 ـ 13 بيروت ـ لبنان
• هاتف: 351291 ـ فاكس: 747089 ـ 1 ـ 961
• بريد الكتروني: bisanbok@lynx.net.lb

عنون ابن خلدون كتابه في التاريخ

"كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر"

مقدمة

للمعارف الانسانية أبوان: الفلسفة والتاريخ، أولهما يبحث عن الجوهر والمكنونات، وثانيهما يراكم الخبرات، فمن الأولى انبعثت كل العلوم العقلية والطبيعية والمادية، والثاني راكم الخبرات ونشأت منه كل العلوم الانسانية، وكلاهما حاصل جدلية المادة والوعي اللذين تحركهما الضرورة، والضرورة فيما يتعدى إشباع الغرائز الطبيعية، أي في عملية صنع الإنسان لحضارته، هي حافزٌ يدفعُ الإنسان للفعل في المجتمع والطبيعة، ولمراكمة إبداعاته وخبراته المكتسبة، لاستعمالهما في محاولته للسيطرة على الطبيعة ولتسخيرها لأغراضه، بحكم وعيه الذي ينعكس منجزاً مادياً وإنجازاً حضارياً واجتماعياً يصبَّان في الوعي ليحفزاه مجدداً الى وعي جديد ينبني على الوعي الأول، لينتج وضعاً انسانياً جديداً ومنجزات مادية جديدة، فينتج عنهما وعيٌ جديدٌ ومنجزٌ ماديٌ جديد.... وهكذا دواليك، وهذا مرتكز كتابي «الانسان والحضارة جدلية المادة والوعي» وهو الرافد الأول لهذا الكتاب، إذ يحمل نظرية جديدة في نشوء الحضارة وقصدها[1].

أما التاريخ (مخزون الذاكرة، والآثار، والمدوّنات) فكان الحافظ الأول لجميع العلوم، وما زال يختزن الكثير منها، فهو بالإضافة لكونه سجلاً للفعل الانساني، ما زال يخفي في منعطفاته وثناياه كثيراً من الأبعاد التي يمكن للإنسان كشف أغوارها، ولكن قراءة وقائعه وكشف مكنوناته لم ولن تنجيه من أن يكون أسيراً للفلسفة، فوراء المرويّات خلفيات، ووراء قراءتها أبعادٌ تكمن في فلسفة أو تصور أو غاية، تحدد مدى إدراك حقيقة ومغزى ما كان منه، وكيفية قراءته وتشير

(١) حول هذا المبحث أنظر كتابنا «الانسان والحضارة ـ جدلية المادة والوعي» ـ مقال في الثورة.

الى بدايته ومدى وعيها ونهاياته وكيفية تصوّرها، فضلاً عن مدى تأثيرها في الحاضر وبناء المستقبل. فكتابته على ذلك تخضع، بين ما تخضع له، للفلسفة وغالباً للايديولوجية السائدة، إضافة الى الخلفية الواعية أو اللاواعية التي توجه تدوينه وقراءته ومن ثم تفسيره وتحليله.

فالبحث عن الحقيقة التاريخية، يختلف عن البحث عن حقائق العلوم الأخرى كافّة، فإذا كانت المعرفة الرياضية تثبت صحتها بمعزل عن ظروف الزمان والمكان، وتثبت صحتها في كل آن، ولا تحتمل وجهين، وبالتدرج في المعرفة، فإن العلوم الطبيعية، لا تؤكدُ صحتها مجرد عقلانيتها، لأنها تخضع لقوانين المادة والطبيعة وان تكن الفلسفة تحدد توجهاتها، بالإضافة لكونها الموحي الأول لها، ويمكن إعادة إنتاج نتاجها بتوفير ظروفها أو تكرار فعل الصدفة الموصلة اليها.

أما المعرفة في العلوم الإنسانية، والتاريخ في أساسها، فليس من السهل تقريرها، لأن مكونات هذه العلوم تخضع لمجموعة من المتغيرات، فإرادة الإنسان الصانعة للتاريخ (دون إغفال عامل الصدفة أو ما يدعى القدر) تنبع من متغيرات خمسة، هي ظروف الزمان والمكان وقوانين الطبيعة والمادة والوعي، فالتاريخ على ذلك و إن ضبطت وقائعه، فإن الحقائق التي يختزنها تتعدد أوجهها، وتفسيره وتحليله يتنوعان بتنوع خلفية الدارس له، فكتابته انعكاس لإيديولوجية (أي مجمل مكونات النظرة العامة للحياة) الكاتب والبيئة الاجتماعية المحيطة به، فللحدث الواحد روايات متعددة، وتكمن وراءها أسباب متنوعة، وتنتج عنها آثار يصعب حصرها.

وقد نشأت عن دراسة التاريخ علوم اجتماعية وإنسانية متعددة، تتخذ لها موضوعاً دراسة الوقائع التاريخية أو المعاصرة، ولكن هذه العلوم على درجة التطور التي بلغتها، لا تعتمد على ثوابت، لذا تبقى حقائقها ظرفية لأنها تدرس متغيرات هي أحوال الإنسان، وتنطلق من متغيرّ هو وعيه.

وعلى رغم ذلك كله، فقد بدأت دراسة التاريخ بعد ابن خلدون، ومع بداية ظهور العلوم الإنسانية الحديثة في النهضة الأوروبية، تتحول من مرآة عاكسة لنظرة غيبية ما ورائية، الى منهجية تستعين بهذه العلوم الحديثة تقود البحث التاريخي لأن يصبح علماً. ومن ألصق العلوم الى دراسة التاريخ، علم الجغرافية بالإضافة للعلوم الإنسانية الأخرى على تنوّعها.

ومع ذلك كله، فإذا ما خلت كتابة التاريخ من كل الشوائب والعيوب، فلن

تفلت قط من علّة ستلازمها، وهي علة الانتقائية، التي ستبقيه، مهما اقترب من أن يكون علماً، أسيراً للفلسفة.

فلم ولن يستطيع مؤرخ أن يُلمّ بكل الأحداث، فضلاً عن عجزه عن تدوينها، فإذا أردت أن تؤرخ للحظة الراهنة، فلن تكفيك مجلدات، وكل حدث تسجله ولو بحضوره أو بنقللك له عن أداة نقل بصرية مباشرة، يصبح قبل أن تسجله تاريخاً، وبمجرد حدوثه، بسبب حركة الزمان.

وفي خضم ذلك كله، فالفلسفة والعلم يساعدان المؤرخ في بحثه عن الحقيقة، فالفلسفة هي خلفية فكره ودليل توجهه الى الغاية من كتابته، وأمّا العلم فلتحليل الأحداث التاريخية وتعليلها. إذاً، الكتابة العلمية للتاريخ هي في نهاية المطاف كتابة (فلسعلمية) إذا جاز التعبير، أي هي كتابة فلسفية - علمية.

أمّا المؤرخون العرب، فما زال معظمهم (بفعل الايديولوجية العربية السائدة) أسيراً لقواعد علوم الدين، أي ان منهجيتهم نقلية، أو عقلية مؤدلجة.

وفي محاولة للخروج من هذا الطوق، كان كتابي «تاريخ الاقطاع في لبنان ٧٥٨-١٨٦٤» الذي اتخذت فيه «إقطاعة الجرد» موضوعاً لدراسة نموذجية علمية، ومن هذا الكتاب تبينت لي الأهمية الاستراتيجية لساحل بلاد الشام، ومن الكوة التي فتحها كتابي ذاك، وقع نظري على موضوع هذا الكتاب، وهو الرافد الثاني له.

وممّا عانيته من معاينة الحروب الأهلية المتتالية في لبنان ودراستها، ومن عيش معاناة لازمت حياتي كلها نتجت عن تداعيات قيام المشروع الصهيوني في فلسطين ونكبة ١٩٤٨، ونكسة ١٩٦٧، ومن تشابك المواقف الدولية وتعقيدها من هذه المسألة (والحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥ - ١٩٩١) هي إحدى تمظهرات هذا الصراع، وممّا ما زلنا نعانيه حالياً وستبقى أجيالنا تعانيه طالما ان هذا الكيان الغاصب ظلّ باقياً، ومن نضالي السياسي القومي - العربي وثقافتي غير المستغربة، والباحثة من دون كلل عن أسباب كل هذه التمظهرات، كان الرافد الثالث لهذا الكتاب.

حين بدأت نضالي القومي العربي وكنت في مطلع الخمسينات ما زلت يافعاً، كان كل إرثي العائلي والبيتي، ومن ثم ثقافتي ومعاينتي للواقع تخلق لدي قناعة راسخة بوحدة التاريخ العربي، ووحدة المعاناة العربية ووحدة المصير العربي، ولكن الثقافة الكيانية المستغربة، والخلفية الايديولوجية الطائفية - الغيبية، والاحباط العربي، كان يوجه لنا تهمة اعتناقنا لفكر مثالي، وتعلقنا

بيوتوبيا لا تمت بصلة للواقع، ولعل ذلك كله دفعني الى الإعراض عن دراسة الرياضيات التي كنت مبدعاً فيها، والاتجاه الى دراسة التاريخ، بحثاً عن الحقيقة، وتقصياً للجذور واستشرافاً للتوجهات، وساعدتني طبيعة عملي معظم حياتي في مجال الثقافة على سعة الاطلاع، وفكري الرياضي على التعمق في التحليل والتعليل، وحصيلة هذين الاتجاهين العمل على فلسفة التاريخ، وعلى البحث عن مفهوم علمي للقومية العربية، تجاوزاً لفكر غيبي عربي راهن محنّط وبحثاً عن مستقبل للأجيال العربية يجنّبها ما عانيناه، ولن يكون ذلك إلا بتجاوز الايديولوجية الغيبية الراهنة، والتخلص من الكيانية التي مهد لها استعمار بتغريبنا ثقافياً، وتسويق تقسيمنا الاجتماعي، بمناطقية وطائفية ومذهبية وعشائرية موروثة، لتسويغ انقسام اجتماعي لا يجرُّ إلا انقساماً سياسياً يبقينا لقمة سائغة لمطامعه.

لقد صدّرت كتابي هذا بعنوان كتاب «ابو علم التاريخ» ابن خلدون «كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر» لعل ثقافتنا العربية، سيما في لبنان وهو الأرض التي أحببتها حتى الوله، تستفيد من العبر، وتتعمق في دراسة كل مبتدأ وما أنتجه من خبر، فتقضي على أسباب الفرقة في مجتمعنا اللبناني، بالتخلي عن كل ما فسد من موروثنا الثقافي، وما جرّته علينا ثقافتنا المستغربة، لتزيل كل تناقض يفرّق بيننا في داخل مجتمعنا، وبيننا وبين محيطنا العربي، ما يجنّب أجيالنا القادمة سوء المصير الناتج عن سوء التقدير.

وأملي أن أكون قد وفقت الى إظهار الأمر بأكبر قدر ممكن من الوضوح، بما استقيتُ من روافد هذا الكتاب الثلاثة، وان يثمر جهدي هذا في المساهمة ببناء مستقبل واعد، وإلّا يبقى مجرد صيحة في واد.

الشويفات

٢٠٠١/٣/٢٤

الفصل الأول

نشوء المجتمعات السياسية والشرق الأدنى القديم

٣٠٠٠ ق.م. - ٣٣٠ ق.م.

مدخل

نشوء الحضارة

من بداية الانتاج الحضاري الى عصر العبودية[1]

عاش عصر الجمع والالتقاط آماداً طويلة لم يحقق الإنسان فيه إلا منجزاً حضارياً ضئيلاً هو العصر الحجري بمراحله المختلفة، الذي لم يحتج الإنسان فيه إلا لتشذيب الحجر لحماية نفسه من المخاطر الحيوانية أو للصيد لجمع الغذاء الحيواني وصنع بعض الأدوات البدائية للإنتاج، وتطلّب هذا المنجز البدائي تبادلاً محدوداً لم يحتّم قيام الاستقرار والمجتمعات السياسية.

واستوجبت بداية التصحّر الثورة الانتاجية الأولى أي الثورة الزراعية، من عملية جمع الحيوان واستئناسه ورعايته، ما أدّى الى حياة الاستقرار وبداية قيام المجتمع السياسي، كما كان اكتشاف النار قد أدى إلى ثورة انتاج الفخار.

دورة الثورة الزراعية وإنتاج الفخار الأولى، التي دشنت عصر الاستقرار البشري بعد حياة الجمع والالتقاط السابقة لها، والتي كان الرزق فيها مشاعاً، لا تعتبر دورة انتاج حضاري، إلاّ في بعض الوسائل والأدوات الحجرية والعظمية والخشبية البدائية، فإن عصر الجفاف والتغير المناخي وتحدياته في الشرق الأدنى القديم التي دفعت الإنسان الى حياة الاستقرار في المكان، والرعي بعد تجميع الماشية واستئناسها، تعتبر المرحلة الأولى في صنع الإنسان لحضارته، وحيث أن الانتاج الزراعي يتطلّب عملاً انسانياً لإنتاجه ويفرض ارتباطاً بالمكان، بدأ عصر حيازة الأرض والتجمعات البشرية حول مصادر المياه، بعد عصر الشيوع ليحفظ لكل فرد أو جماعة ناتج عملها، وحيث ان موارد المياه في بيئة متصحرة محدودة في المكان (ضفاف الأنهر والبحيرات والينابيع، فقد تطور نظام الحيازة الى نظام الملكية الخاصة، وقيام السلطة المنظّمة للري. وحماية الملكية الخاصة للإنتاج

(١) أنظر كتابنا «الانسان والحضارة ـ جدلية المادة والوعي» ـ مخطوطة ـ ١٩٩٥.

الذي تطورت وسائله لتلبي حاجة الزراعة التي تتسع لتكفي الحاجة الغذائية الأسرية والاجتماعية، وتنوُع المُنجز المادي للحضارة اللازم لإنشاء المنازل والفخاريات والملابس وأدوات الانتاج وخبراته، أوجد التخصص في العمل وقيام حركة التبادل السلعي، في ظل سلطة مُنَظِّمَة لمنع التعدي وتنظيم الحقوق. ولكن هذه السلطة بأجهزتها تحتاج الى مدخول، وعلى المجتمع أن يوفر مدخول السلطة، فعبدَ الانسان رأس هذه السلطة، باعتباره أحد الآلهة المنظمة والضرورية لاستمرار الحياة والأمن الفردي والاجتماعي، كما عبد قبلها مظاهر الطبيعة والقوى الخفية أو المُفْتَرضَة المنظمة لها في عملية تعميم فكرية، ربطت السلطة بالطبيعة في نظام فكري موَّحَّد، وأمل بالعدالةِ والانتظامِ المشابه للنظام الطبيعي. ولكن ذلك لم يحدث، فقد استأثرت السلطة بفعل الجشعِ البشري، بكاملِ فائضِ الانتاجْ بذريعةِ اتمام واجبِها وحقِّها بالامتياز، فبدأ بذلك نظامُ الرقِّ أو العبودية، والقاضي باستيلاء السلطة الحاكمة على كامل فائض الانتاج مع المنَّة بكفاف العيش للرقيق مع حق التحكمّ بحياته وموتِه بصفتها الالهيةِ. وقد رسَّخَتْ ثوراتُ اكتشاف المعادن وتصنيعها وبدائية وسائل الانتاج هذا النظام. إذاً، وباختصار، فإن هذه المرحلة الأولى استوجبت قيام المجتمع السلطوي (السياسي)، وكذلك عملية التبادل السلعي الذي بدأ نطاقه يتسع مع تطور كمية الانتاج ووسائله. إذاً، فإن تخصّص العمل. حَتَّمَ تطور الإنتاج، أي المنجز المادي للحضارة، النظام السياسي ونظام العبودية والتبادل التجاري. هكذا أدّى تنظيم السلطة للمجتمع الى قيام دولة المدينة وامتلاك السلطة للثروة والسعي الى توسيعها وإلى زيادة الانتاج مما أدّى بدوره الى قيام (دولة الاقليم) من خلال النزاع على الثروة بين دول المدن، ومن ثم الى قيام الامبراطوريات أي الدولة الكبيرة الحاكمة لعدة شعوب وممالك، وتطوَّر الصراع الى صراع بين الامبراطوريات.

ويمكن تقسيم الفترة المذكورة آنفاً حسب مكتشفات العلوم الأثرية والتاريخية الى مراحل: أولها العالمي (العصور الحجرية). ثانيها في الشرق الأدنى القديم (دول المدن حتى الامبراطوريات) وثالثها العالم القديم المعروف ونظام العبودية.

أولها : من ٥٠,٠٠٠ افتراضاً قبل الميلاد الى ١٠,٠٠٠ قبل الميلاد (مرحلة العصور الحجرية).

ثانيها: ثورات (الزراعة، وإنتاج الفخاريات، وإنشاء المساكن والمدن).

من ١٠.٠٠٠ ق.م. (حيث حفظت ذاكرة الإنسان حادثة الطوفان وإنشاء نوح لمرحلة

الاستقرار) حتى ما قبل ٣,٠٠٠ ق.م.. (نشوء دول المدن في مصر، وبلاد ما بين النهرين) حتى ٢,٧٠٠ ق.م.

ثالثها: حوالى ٢,٧٠٠ ق.م. نشوء الدول الكبيرة في مصر وبلاد ما بين النهرين، والتوسع التدريجي للنطاق الجغرافي لدول المدن لتشمل (أطراف بلاد الشام الخصبة) وغرب الهضبة الايرانية، وهضبة الاناضول، امتداداً الى هلاّس (اليونان)، ونشرت هاتان الدولتان الكبيرتان القديمتان (مصر وامبراطوريات ما بين النهرين) نفوذهما على دول المدن ومن ثم كانت بدايات احتكاك هذا النفوذ في بدايات الالف الثاني ق.م.

١٤٨٠ ق.م. . معركة مجدّو (جنوب فلسطين) أول صدام عسكري بين الامبراطوريات.

ويتوالى نشوء الامبراطوريات والصراع فيما بينها (وساحل بلاد الشام قلب هذا النزاع) حتى يومنا الحالي. ولكن مرحلة العبودية (النظام العبودي) يسود حتى بداية القرن السابع الميلادي، أي حتى ظهور الإسلام، على الرغم من محاولات التمرد المتوالية عليه، (ويمكن اعتبار هذه المرحلة من حيث تطور الوعي هي مرحلة «الانبياء» و«الرسالات» التي أعلن النبي محمد أنه خاتمها. وكذلك ظهور الفلسفة بوجهيها الديني والعقلاني.

طبعاً، كلّ ذلك ترافق مع تطور متوالٍ في المنجز المادي للحضارة، الذي أعجز بتطوره، وبالاختلال الذي أوجده، بين هذا المنجز المادي والوضع الانساني عصر العبودية عن الاستمرار، فكانت الرسالات والفلسفة لإصلاح هذا الخلل، ويمكن اعتبار الوعي قد تطور ضمن مراحل رئيسية خمس:

أولاً: مرحلة تعدّد الآلهة حتى ظهور (الرسالات السماوية).

ثانياً: المرحلة التوحيدية (الابراهيمية) إرهاصات التوحيد.

ثالثاً: المرحلة التوحيدية (الموسوية) حتى ظهور السيد المسيح (وتتضمن نشوء المنهج العقلاني والإيماني).

رابعاً: المرحلة المسيحية (التي قوّضت الأسس الأخلاقية للمجتمع العبودي) ومهدت للمرحلة الخامسة.

خامساً: ظهور الاسلام، تقويض نظام الإنتاج العبودي، وقيام نظام الحرفة الحرة.

المنجز المادي والعلاقات البشرية

بدأ تاريخ البشرية المدوّن، أي العصر المؤرخ وانبثقت الحضارة[1] في منطقة دعيت منطقة «الشرق الأدنى القديم» أو «جنوب غرب آسيا وشمال افريقيا»، وتمتد هذه المنطقة من شرق البحر المتوسط حتى غرب الهضبة الايرانية شرقاً ومركزها حضارة ما بين نهري دجلة والفرات، شرقاً وحتى مصر الفرعونية حول حوض نهر النيل جنوباً وغرباً، فانقسم بذلك العالم القديم الى ثلاثة أحواض بشرية يصل بينها البحر المتوسط ومنطقة الشرق الأدنى القديم؛ وهذه الأحواض هي الحوض الأوروبي غرباً وحوض الشرق الأدنى القديم وسطاً، وحوض شرقي آسيا شرقاً، ويفصل ما بين الحوضين الأوّلين البحر المتوسط، ومنطقة البلقان شرقي أوروبا، وبين الحوضين الثاني والثالث وسط أسيا الشاسع.

وعلى الرغم من أن العصور الحجرية بكل مراحلها، تُبيِّن الحفريات الأثرية شمولها لكل العالم بصورة شبه متزامنة، ما يدل على ان الاتصال بين الأحواض البشرية الثلاث كان موجوداً حتى في ذلك العالم القديم، ومنذ العصر الحجري الأسفل، من خلال الحوض الوسطي. حيث أن وعي الإنسان لهذا العالم كان محدوداً من جهة الغرب بمحيطات مجهولة بما تحويه، ومن جهة الشرق بوسط آسيا الشاسع ومن جهة الجنوب بأعالي نهر النيل وشواطىء افريقية الشرقية والغربية، فإن انبثاق الحضارة فيما أطلق عليه الشرق الأدنى القديم أول مُنتجٍ ومصدرٍ للمنجز المادي للحضارة بالإضافة لكونه باب التجارة باتجاه الحوضين الآخرين، جعله صلةَ وصلٍ لإيصال نتاج الشرق الى الغرب وكذلك بالاتجاه المعاكس، واتخذت هذه التجارة مذ ذاك طرقاً تمر جميعها من خلال منطقة الشرق الأدنى القديم[2]، وحيث ان الطرق المائية أسهل من الطرق البرية وأقصر، وحيث ان هذه الملاحة كانت تسير بمحاذاة الشواطىء، أو بالتوغل بالملاحة النهرية أو بمحاذاة الأنهر براً، لعب نهرا دجلة والفرات بالنسبة للطريق البرية بين الأناضول والمحيط الهندي دوراً أساسياً، ليس للملاحة النهرية فيهما وحسب، انما لكونهما يخترقان أراضي شبه صحراوية، فكان السلوك قرب ضفافهما يوفّر شروط الحياة بالنسبة لتلك الرحلات الطويلة، كما لعب نهر النيل الدور نفسه: كطريق اتصال الى عمق حوض النيل وبين البحر المتوسط والبحر الأحمر، سيما بعد أن شقّ الفراعنة ترعة تصل النيل بالبحر

---

(١) حول انبثاق الحضارة في منطقة الشرق الادنى القديم وغايتها أنظر كتابي «الانسان والحضارة، جدلية المادة والوعي» مرجع مذكور آنفاً.

(٢) أنظر مقالنا «جبال لبنان وفلسطين وساحلهما» ـ دراسة جيوبوليتيكية» مجلة المنابر العدد/٢٠٠١.

الأحمر: فقامت على مسرى الأنهر دول المدن الأولى التي تلتقي عندها التجارات، وتتشكّل فيها الثروات. وستحكم الممرات المائية في بلاد شبه صحراوية حركة الجيوش ومواقع المعارك والانتشار العسكري(١).

ولكنّ ثمة طريقاً ثالثاً كان الأقصر والأهم، ويربط الأحواض الثلاثة وكذلك القارات الثلاث وهو الأشد أماناً: هو الطريق الذي يمر من أوروبا الى الساحل الشرقي للمتوسط بحراً وبراً، أي الشريط الساحلي الذي يمتد من خليج الاسكندرونة جنوب غرب الأناضول شمالاً الى جنوبي فلسطين ليتفرع من هناك الى البحر الاحمر أو شواطىء الخليج العربي وعليه تقع موانىء المتوسط التي يمكن الاستعاضة بوجودها عن بعض الطرق البرية ومشاقّها ومخاطرها.

على هذه الطرق نشأت دول المدن، مدن غرب الهضبة الايرانية وما بين النهرين ومصر العليا والسفلى والمدن الكنعانية (الفينيقية) امتداداً الى قرطاجة في تونس. كما نشأت في شرقي أوروبا دول المدن اليونانية وفي وقت لاحق دولة روما.

وإذا كانت طبيعة بلاد ما بين النهرين السهلية والخصبة أو دلتا نهر النيل ومسراه، قد تمتعا بالخصب والامتداد السهلي، ما أتاح قيام تجمعات بشرية متعددة، آدّى اتحادها بعد فترة من صراع النفوذ فيما بينها الى قيام دول كبيرة، فإن الساحل الضيق الممتد على الطريق الثالث، أي (ساحل بلاد الشام) لم يؤدٍّ وجود دول المدن عليه الى قيام نزاعات عنيفة في ما بينها، لكونها اعتمدت على الملاحة البحرية، في تجارتها، والبحر في ذاك الزمان أرحب من أن يؤدي الى نزاعات، ما أعطى لها نوعاً من الحكم الذاتي المديني والاستقرار، فإن استقلالها التام لم يتحقق في يوم من الأيام، فأبقاها ذلك الزمن دولاً مستقرة وغنية إنما تابعة(٢)، وبالتالي فإن ضيق الشريط الساحلي، وضيق مجاله الحيوي البري، لم يحتِّما صراعات نفوذ الامر الذي لم يشكل الشرط اللازم لقيام دولة قوية عليه. فلذا سيكون عيشه سيداً لنفسه مستحيلاً وإلى الأبد.

---

(١) حتى أيام هيرودوت ـ لم يكن أحد يعرف مصدر مياه النيل، وذهبوا في تفسير ذلك مذاهب غريبة آنظر: هيرودوت يتحدث عن مصر ـ دار القلم ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٩٥ و٩٨. ترجمة د. محمد صقر خفاجة وشرح د. أحمد بدوي.

(٢) أنظر رسائل حكام المدن الكنعانية الى الفراعنة، فقد كان «ملوكها» ينعتون أنفسهم بأنهم عبيد للفراعنة، فلا يجب ان نفهم لقب ملك بإسقاط المفهوم الحديث على ذلك الزمن، فكلمة ملك لغوياً تشتق من فعل ملك، (والكنعانية هي العربية القديمة) وملك لا تعني بالضرورة الابتقلال، سيما وان الامبراطورية تعني الدولة التي تضم عدة ممالك، فالمدلول اللغوي لهذه الكلمة لا يعني بالضرورة قديماً أكثر من حكم مدينة.

قلب واحد لجسد واحد

الدولتان الكبيرتان اللتان نشأتا عن توحيد بلاد ما بين نهري دجلة والفرات شرقي بلاد الشام أو مسرى النيل جنوبها (بالوحدة بين مصر العليا والسفلى) حوالى ٣٠٠٠ ق.م. أنشأتا قوتين عسكريتين كبيرتين، فاتجهت أنظارهما الى الطريق الثالث لغناه وضعفه، فهو الطريق الأكثر غنى والأكثر أماناً، (بالنسبة لتضاريسه كذلك كما سيلي) وتالياً العاجز عن حماية نفسه، ومنذ بداية الحضارة ومند بدء التاريخ المدون، كان هذا الساحل واقعاً تحت الوصاية، سيما وأنه يملك فوق أهميته التجارية موادّ أولية لازمة للثورات الصناعية المبكرة، كالخشب والارجوان والزيت والمنتجات الزراعية الخ...

وقد شكلت مواقعُهُ الاستراتيجية وتكوينه التضاريسي خصوصياته، سيما مفازة نهر الكلب وسهول بيسان في فلسطين التي شهدت أوّلَ الصراعات الدولية. وإذا كانت مفازة نهر الكلب قد شكلت أهمية عسكرية محضة، فإن أرض فلسطين ومعبر سهل بيسان كانا الأشد أهمية لوقوع أهم المفاصل التجارية عليها وستجري عليها كل المعارك العسكرية الحاسمة.

استحالة قيام دولة قوية على هذا الطريق الثالث (ساحل بلاد الشام) لكونه الأشد منفعة والأكثر هشاشة جعلته إذاً مصدراً للنزاعات الدولية وموئلاً لها؛ وارتباط الاقتصاد بالسياسة، وكون الحروب حاصل هذين العاملين معاً، جعل هذا الساحل ساحة دائمة لصراع النفوذ الذي يتحول حينما يحتدم الى حروب، وهذا ما سيحكم تاريخه حتى يومنا هذا (وسيفصل هذا الكتاب هذا الأمر). ولهشاشة أمنه فإن الاحتفاظ بالسيطرة عليه يتطلب السيطرة على عمقه البري لحماية أمنه ودوام بسط النفوذ عليه، ما جعل أمن عمقه البري أي داخل بلاد الشام، متعلّقًا مصيرها بمصير هذا الساحل، ولكن بلاد الشام بأسرها هشة أمنياً، لأن بادية الشام تجعل من الاستقرار البشري خلف سلسلتي الجبال (جبال لبنان حالياً) يقوم كذلك على شريط خصب ضيق، يمتد من حلب وحمص شمالاً حتى الضفة الغربية جنوباً بعمق ضئيل.

وإذا كانت أرض ما بين النهرين (العراق حالياً) في الشرق وأرض (مصر) حوض النيل في الغرب، قد أتاحتا الشروط اللازمة لقيام دول قوية، (وبسبب تكوين تضاريسي سنتطرق اليه لاحقا) فستكون حركة الحياة وبالتالي السياسة في هذه المنطقة أشبه بكفتي ميزان (مصر والعراق) ترتكزان على ساعد الميزان (بلاد

الشام)، وتحفظان توازن الأجنحة، ولا تستقر سيطرة عليه الا بالسيطرة عليهما معًا. ولكون هذه المناطق الثلاث هي المناطق الخصبة المحيطة بشبه الجزيرة العربية، وهي منطقة طرد بشري، فستكون الهجرات البشرية منها ومن امتدادها (بادية الشام) دائمة نحو هذه الأراضي الخصبة، كلما عانت شبه الجزيرة من اكتظاظ بشري، وكون شرقي مصر صحراء (ليبيا) سيربط أمن المنطقتين دوماً، ولكن أمن ليبيا وحياتها متعلقان بالمغرب، سيما وأن الصحراء الكبرى تفصل بين هذه البلدان وعمق القارة، (ومصر «هبة النيل» بحسب تعبير أبو التاريخ هيرودوت، فحياة مصر وثرواتها المعدنية اللازمة لثوراتها الصناعية والزراعية الأولى مرتبطة بالسودان. أما شبه الجزيرة العربية فهي شبه قارة صحراوية ما لا يتيح مجالاً لقيام دولة قوية، لذا سيبقى آمنها مرتبطاً بأمن من خرجوا منها[١].

هذه السمة العامّة للمنطقة الموصوفة أعلاه بكونها بمعظمها صحارى تعيش على الأنهار، ومجالها الحيوي أشرطة خصبة ضيقة، سيجعل منها ومنذ مطلع التاريخ، الحاضنة لتحركات شعوب مناطقها والمجال الحيوي المترابط لها، ما سيكوّن نواة لتشكيل ثقافة موحدة وأمن مترابط ومجال حيوي واحد، وهي خصائص قيام الأمة المرتبطة بوحدة التاريخ (على تنوعه) أي بوحدة المسار والمصير.

---

(١) في وصف هيرودوت لحدود مصر يقول «تضيق مصر من مدينة هليوبوليس (جبل المقطم) جنوباً، فعلى أحد جانبيها تقوم سلسلة الجبال العربية من الشمال الى الجنوب الغربي» هيرودوت يتحدث عن مصر - مرجع مذكور آنفاً ص ٧٧ - ٧٨ و٩١، وكذلك فإن الاسكندر الأكبر حين فتحه للشرق يقول انه وجد حكام جبال لبنان عرباً، أنظر: «العرب في سوريا قبل الاسلام» رينه ديسّو - ترجمة عبد الحميد الدواخلي ود. محمد مصطفى زيادة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٩ - ص ١٤، وأنظر كذلك الصفحات: ٢، ١٠، ١١ و١٤.

من الصراعات الاقليمية الى الصراعات الدولية (القارية)

«أمن الأمة العربية يوازن العالم وتحرر الأمة العربية يحرر العالم».

المؤلف

وما لبثت دول المدن اليونانية بعد تنازع طويل فيما بينها أن توحدت في القرن الرابع ق.م. وقامت دولة كبرى مركزها مقدونيا. وللأسباب المذكورة آنفاً، وجهت هذه الامبراطورية اهتمامها شطر الشرق، وبذلك بدأ الصراع الاقليمي في قلب الحوض البشري الواحد (الأوسط) يتحول الى صراع مع القوة الناشئة في الحوض الغربي، وسيأخذ هذا الصراع بعداً متزايد العمق نحو الشرق والغرب للسيطرة على الطرق البرية والبحرية كافة الموصلة بين الشرق والغرب، فينشب الصراع بين الامبراطورية اليونانية في الغرب والفارسية في الشرق؛ ومع انحلال الامبراطورية اليونانية، وبتزامن معه، تبدأ امبراطورية رومانية في الظهور، وتكون الحرب بين روما وقرطاجة (الجناح الغربي للبحر المتوسط) خاتمة حروب دول المدن؛ ومنذ ذلك التاريخ غدت كل الصراعات بين امبراطوريات وموضوع هذه الصراعات شرق المتوسط وكذلك جنوبه، وما زال الأمر كذلك حتى يومنا الحالي مع اختلاف الأشكال والنظم، وتبدل الأسماء والأدوار بما يتناسب مع تطور الحضارة وانتشارها وتطور وسائل نزاعاتها المرتبط بتطور المنجز المادي والمعرفي للحضارة بتفاعل مع الوضع الإنساني السائد، والزيادة المستمرة لحجم الطلب على السلع مع زيادة تنوعها، وازدياد أعداد المستهلكين، وستكون نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وحتى نهاية القرن الثامن عشر مرحلة يتحول فيها الصراع موقتاً الى جنوب الجزيرة العربية بسبب تبدل في الوعي الجغرافي بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح. وكذلك سيكون لشق قناة السويس فيما بعد أثره على الاستراتيجيات التجارية والعسكرية.

وكل هذه التطورات التاريخية عبر القرون والدهور، وتطور وسائل النقل

والتجارة، تبقى بدرجات متفاوتة، مرتبطة بالثابت الجغرافي، وهو توسط هذه المنطقة (منطقة الشرق الأدنى) العالم القديم، وقد ازدادت أهميتها لمواردها الطبيعية، وغناها بالمواد الأولية، إضافة الى احتلالها مكانة القلب من العالم.

وصف تضاريس ساحل بلاد الشام(١)

خصائصه

سبق وقلنا ان الشريط الساحلي لشرق المتوسط هو أقرب الطرق وأيسرها وآسهلها وأكثرها أماناً، وذلك لكون الطرق البرية عليه أقصر الطرق لاستقامته النسبية ولكونه شبه سهلي، ولأن الطرق البحرية بين أوروبا وغرب أسيا، بالأساليب والوسائل البحرية القديمة يسيرة، لوفرة الموانىء الطبيعية عليه، ولأن هدوء المتوسط يجعل الإبحار بمحاذاة الشواطىء ممكناً ولا يحمل مخاطر، وكذلك فإن تعدد جزره والحمولة البحرية هي الأقل كلفة، وكذلك الأسرع، وهما عاملان هامّان في العمل التجاري، لأن السفن بإمكانها ان تحمل كميات كبيرة من البضائع قياساً مع وسائل النقل الحيوانية، والوسائل الأخرى، وهي الأقل مشقة كذلك، والارتباط البري بين القارات الثلاث، وقبل اختراع البوصلة، كان دليلاً ومرشداً، ووفرة المرافىء جعل الإبحار سهلاً وممكناً. كل هذه الظروف وفّرت نقلاً زهيد التكلفة وقليل المخاطر، ما جعل التجارة البحرية والموانىء البحرية وعلى مدى التاريخ هي الأكثر ازدهاراً، وكذلك فإن ضيق السهول الساحلية، ووعورة تضاريس الجبال المحاذية لها، وجهت أنظار قاطني الساحل الى اليم كمجال حيوي لها، وجعلت من أهله ذوي مهارة في صناعة السفن والتجارة البحرية، سيما وان ظهيرها الجبلي تتوفر فيه الأخشاب لصناعة السفن، ما وفر للمدن القائمة عليه ازدهاراً وغنى. هذا بالنسبة للطرق البحرية.

---

(١) «أما الشام، فإن غربها بحر الروم وشرقيها البادية من ايلة (على خليج العقبة) في أقصى شمال الحجاز الى الفرات، ثم من الفرات الى حد الروم وشماليها، بلاد الروم أيضاً وجنوبها حد مصر وتيه بني اسرائيل (سيناء) وآخر حدودها، مما يلي رفح» سامي الكيالي ـ سيف الدولة وعصر الحمدانيين ـ دار المعارف بمصر ـ بدون تاريخ ـ ص ١٩٧.

وتتكوّن بلاد الشام من بادية الشام، (والتي تسميها كل الاطالس القديمة (Arabia) أي أرض العرب، كامتداد طبيعي لشبه الجزيرة العربية، أما الهلال الخصيب حولها والذي يتكون من دجلة والفرات شرقاً والتفافاً حتى حلب وأنطاكية شمالاً ونزولاً الى شريط حلب حمص دمشق غور الاردن وساحلهما غرباً، فقد كان المجال الحيوي هو ومصر، لاستقرار النازحين من شبه الجزيرة العربية (وهي منطقة طرد بشري)، وغالباً ما حمل سكان هذا الهلال تسمية عرب أو تسمية الهجرة التي أتت بهم، انظر رنيه ديسو ـ مرجع مذكور آنفاً، والذي يؤيد رأيه بقول عدد كبير من المستشرقين العلماء والثُقات.

أما كطريق للتجارة البرية، فخصب هذا الساحل ووفرة مياهه، والحماية الطبيعيّة التي يوفرها ظهيره الجبلي، أعطته ميزات النقل البري الأكثر سهولة كذلك. ولكن هذه الشروط الممتازة للعمل التجاري، لم تكن كذلك بالنسبة لقيام القوة السياسية والعسكرية عليه، لأنها تحول دون وجود كثافة سكانية عالية وعمق أرضي استراتيجي يوفّر الكثافة والعمق وقيام دول قوية، خلافاً لما هو حال مجاري الأنهار في مصر، وما بين نهري دجلة والفرات.

إذًا، فإن الطبيعة التضاريسية لساحل بلاد الشام، أعطته الثروات من دون ان تعطيه القوة اللازمة لحمايتها، ما وفر له ازدهاراً غير اعتيادي، وأمناً مستقراً في زمن دول المدن، وإن يكن سياسياً خاضعاً لحماية فراعنة مصر ونفوذهم، قبل صراع الامبراطوريات؛ فثابته الجغرافي أعطاه ثروات كبيرة وهشاشة أمنية تُسيلُ لُعابَ الامبراطوريات الطامعة في مزاياه المختلفة.

التكوين التضاريسي لساحل بلاد الشام والاستراتيجيات الاقتصادية والعسكرية

ساحل سورية أو ساحل بلاد الشام (وهذه أسماؤه التاريخية) يبتدىء من شماله بلسان جبليّ يتصل من ناحية الشمال بجبال طوروس ليلتف حول الشواطىء الشرقية والجنوبية لخليج الاسكندرونة، ويعرف هذا اللسان بجبال الأمانوس والجبل الأحمر وجبل موسى الذي ينحدر نحو مصب نهر العاصي، تاركاً في التفافه سهلاً ضيّقاً لينفتح عند انحداره على سهل يربط بين الساحل وهضبة أعالي بلاد الشام وصولاً الى أعالي بلاد ما بين النهرين. وتقوم في المضيق السهلي بين اللسان الجبلي وجبال النصيرية مدينة انطاكية الستراتيجية[1]، التي أقيمت أصلاً كما يبدو، كمركز تجاري بين الداخل والساحل ونقطة استراتيجية لحماية الداخل والساحل معاً من الأخطار التي يمكن أن تأتي من الاتجاهين، لذا سيلعب هذا السهل وهذه المدينة دوراً بالغ الأهمية في الحياة التجارية، كما في الاستراتيجيات العسكرية. ومن مصب العاصي هذا وباتجاه الجنوب، تبدأ هضبة بالارتفاع لتبدأ جبال النصيرية (اللكام سابقاً) لتترك ساحلاً سهلياً ضيقاً ينحدر الى جنوب فلسطين (كما سنرى) وتتخلله ممرات سهلية أو جبلية وقليلة الارتفاع والوعورة على مصاب الأنهر، تكتسب كلها أهمية متفاوتة، حسب تكوينها الطبوغرافي من الناحية العسكرية وسهولة معابرها، وفي النهاية الجنوبية لجبال النصيرية أو العلويين عبر النهر الكبير الجنوبي ليشكل محيط واديه ممراً من الساحل الى حمص عن طريق

(١) كونها ممرا للطرق التجارية والعسكرية نحو الساحل والداخل معاً.

تل كلخ، وتبدأ بعد ذلك جبال عكار لتتصل بسلسلة جبال لبنان الغربية حيث تبلغ التضاريس أعلى ارتفاعاتها وتشتد وعورتها بحيث تشكل حاجزاً طبيعياً يصعب اختراقه، ويتخلله ممران بين الساحل وسهل البقاع، ارتفاع أولهما ظهور الشوير ـ ترشيش ـ زحلة حوالى ١٥٠٠ متر عن سطح البحر، بينما يرتفع الذي يليه المديرج ـ ظهر البيدر ـ شتورة ما يقرب من ١٢٠٠ متر، وممر ضهر البيدر، أقرب طريق بين دمشق والساحل، ولن يكتسب هذان الممران أهمية تجارية وستراتيجية إلاّ بعد عام ٧٥٨م[١] كما سنرى في العرض التاريخي، ويقوم تحتهما في أدنى جبال لبنان وقبل اتصالهما بالجليل ممر قريب من مجرى الليطاني يبدأ من مرجعيون وحاصبيا الى البقاع الغربي، ليتصل بعد ذلك بجبال الجليل (شمال فلسطين) الذي تقوم خلفه مرتفعات الجولان.

ثم ينحدر الجليل باتجاه طبريا وعكا وحيفا، حيث يقوم سهل بيسان (مفتاح بلاد الشام من الجنوب) وشبه الجزيرة، وحيث ستقع معظم المعارك الحاسمة في النزاعات الدولية؛ ومن سهل بيسان يرتفع الشريط الجبلي مجدداً نحو جبال نابلس والقدس والخليل، وتقع على سواحلها عسقلان وغزة ودير البلح ورفح وخان يونس والرملة ويمتد حتى عريش مصر، وهناك ترتبط آسيا بإفريقيا، وأمن بلاد الشام بأمن مصر، وأمن العراق بأمن شبه الجزيرة من ناحية الغرب.

أمّا الأهمية الفائقة لسهل بيسان ففي كونه ينفتح على قلب بلاد الشام شمالاً، وعلى ساحل بلاد الشام شمالاً وجنوباً (وهو الخط الأمامي للدفاع عن مصر) وكذلك على الطرق التجارية نحو العقبة وشبه الجزيرة العربية (فهو نقطة القلب)؛ لذا سنجد الصراع سوف يتركز تاريخياً على أنطاكية وحمص وحلب وعكا وحيفا (سهل بيسان) ورفح، وبعد ٧٥٨م على بيروت.

أمّا على امتداد هذا الساحل، فيتصل الجبل بالبحر عند عدة نقاط، تشكل نوعاً من النقاط الستراتيجية، أمّا أهم هذه النقاط، فهي نقطة مصب نهر الكلب (١٢ كلم شمالي بيروت) حيث يفصل جبل شاهق ومستقيم شماله عن جنوبه، وكان

---

(١) وقد عزز أهمية هذا المعبر، معبر يقابله في سلسلة جبال لبنان الشرقية هو معبر عنجر ـ وادي القرن ـ جديدة يابوس، للتوسع بأهمية هذا المعبر راجع كتابي «تاريخ الاقطاع في لبنان ٧٥٨ ـ ١٨٦٤ ـ اقطاعة الجرد دراسة نموذجية» المركز العربي للدراسات والتوثيق ـ بيروت عام ٢٠٠٠، ووادي البقاع مفتوح من شماله على شمال سورية وشمال بلاد ما بين النهرين، بينما تلتقي في جنوبه السلسلتان الشرقية والغربية لتصل الى مرتفعات الجولان، ويقع في أسفل السلسلة الشرقية معبر وادي الليطاني كما سيلي، والذي يرجح من كتابي هذا نه لم يستعمل الا من قبل الاسكندر المقدوني وكذلك من قوات الحلفاء ضد جيش فيشي في الحرب العالمية الثانية، ومن الجيش الاسرائيلي.

الانتقال بين النقطتين يتمّ من خلال نفق ضيّق (فتح على الارجح في زمن قديم) ما يجعل هذه النقطة، من الأهمية الاستراتيجية بحيث سجل الغزاة والفاتحون عليها انتصاراتهم، من الامبراطوريات القديمة حتى اليوم، حتى غدا متحفاً تسجل عليه المعارك التي تقرر مصير المنطقة وإن حصلت بعيداً عنه. وكذلك الأمر عند رأس الشقعة شمالي جبيل ما أعطى لهذه المدينة القديمة وضعاً استراتيجياً مميزاً.

وقد أدرك كبار القادة العسكريون منذ التاريخ القديم، أهمية هذه المواقع، فكانت الحصون والقوى الدفاعية توضع على هذه النقاط الاستراتيجية، ويتوقف حجم هذه القوات والحصون بما يتناسب مع أهمية كل موقع، وكذلك تعمّر الحصون حسب الخبرة من تجارب الحروب، أو حصون دعم لهذه المواقع، أو لتعزيز دفاع الممرات الطبيعية الوعرة، وستكون المدن القريبة من هذه المعابر محط أنظار الاستراتيجيات الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

ساحل بلاد الشام
ثابت الجغرافية وتحولات التاريخ

بلاد الشام والعراق ومصر وجنوبي هضبة الأناضول، مهد الحضارة وفجر التاريخ الانساني المدوّن، والسواحل الشرقية للمتوسط المركز التجاري للاتصال بين هذه المراكز من ناحية، وبينها وبين التجمعين البشريين الكبريين في العالم القديم (شرق اسيا) وغربه (أوروبا) وشواطىء شمال وغرب افريقيا. في هذه المناطق ستقوم أولى أشكال التنظيمات السياسية والدول (دول المدن)، وستعرف ازدهاراً اقتصادياً كبيراً وما يستتبعه من ازدهار فكري ومعرفي كنقاط التقاء ثقافي. ولكن وبالإضافة الى خاصة الثروة التجارية، ستدخل عوامل أخرى تطور دول المدن في مصر الفرعونية وبلاد ما بين النهرين، وبعد ذلك غرب الهضبة الايرانية الى امبراطوريات، وتزيد من حجم التبادل التجاري العالمي وتفتح أسواقاً جديدة، هذه العوامل نتجت عن تطور المنجز المادي للحضارة باكتشاف المعادن وتصنيعها.

الثورات الانتاجية الاولى في التاريخ

أدى تطور وعي الإنسان للطبيعة المحيطة به، واستيعابه للخبرات والصدف وقدرته على إعادة انتاجها، واستعماله منتجها لتطوير حياته، وابتكار وسائل لتطوير هذا الانتاج، الى ثورات صناعية متوالية سجلها واستفاد منها انسان الشرق الأدنى القديم، وانعكست هذه بالتالي على وعيه لبعض ظواهر هذا الكون وعلى المعارف والعلوم الطبيعية، وأطلقت عنان فكره في مجاهل ما خلفَ مكتشفاته المادية، فكانت جولاته في تفسير ظواهر الكون المادية، وأسست في انطلاقٍ من المادي الى الماورائي والغائي، فكانت الفلسفات والعقائد في نشوئها وتطورها[1].

---

(١) أنظر كتابنا «الانسان والحضارة ـ جدلية المادة والوعي».

ثورة الانتاج الزراعي، وثورة الفخار، وثورة الذهب والفضة، وثورة النحاس ثم الحديد. ثم البرونز، هذه الثورات جميعها تنبعث من الوعي لتعيد ناتجها المادي اليه، وكذلك ثورة الملاحة البحرية، وثورة استعمال الحصان، ثم الدولاب والعربة، بعد ثورة ايقاد النار القديمة، كلها ثورات تغير في طبيعة الحياة، من التزيين الى المنتجات العملية النافعة، وتتطلب السيطرة على مصادر الثروات، وتزيد في مجال التجارة وزيادة التبادل، وتنعكس كذلك على قوة المجتمعات وقدراتها العسكرية، للاستيلاء على مصادر الثروة ومنابعها، وكذلك تزيد من الوظائف الاجتماعية وتؤدي الى زيادة حجم التجمعات البشرية وعددها، والحاجة الى التنظيم الاجتماعي الخ... وكذلك تزيد الثروة والقدرة على السيطرة والرغبة فيها، وكل ذلك تتولد عنه منافع مشتركة لكل مجموعة بشرية، وتوجد تبايناً وتصارعاً بين الايديولوجيات والمعتقدات التي تجمعها فيتعدى الصراع طبيعته الانسانية النفعية البحتة الى نزعات (الاهية) معتقدية تجد جذورها الأولى في مقتضيات الضرورة.

هذه العوامل مجتمعة جعلت ثوب دول المدن عاجزاً عن استيعاب هذا الجسد الجديد الذي لا يتوقف عن التنامي، ويجعل استقلالها في جميع تمظهراته الى قصبة في مهب عواصف لا تقوى على مقاومتها. فيؤدي الصراع بين دول المدن المتواجدة في مجال حيوي واسع يزودها بأسباب القوة، الى الزوال التدريجي لدول المدن، والانتقال المتوالي لمراكز القوة فيها (كما حصل في دول مدن ما بين النهرين وأطرافه الشمالية والشرقية في الأناضول والهضبة الايرانية) الى قيام الدول الكبيرة والموحدة لهذه المدن تحت سيطرة أقواها، ثم الى امبراطوريات (دول تضم شعوباً مختلفة) في الشرق. وتؤدي كذلك الى دولة موحدة في طبيعة كطبيعة وادي النيل، حيث يمتد العمران على شريط زراعي ضيق محاط بصحارٍ من جميع جوانبه، فلا يتهدد هذا المجتمع إلاّ الغزاة من الخارج والامبراطوريات الأخرى.

في جدلية المادة والوعي

أما دول المدن التجارية الواقعة على ساحل شرقي المتوسط، والتي لم تتوافر لها الشروط التي توفّرت لظهيريها الشرقي والجنوبي، فستزداد غنى بحكم هذا التطور الحضاري الانتاجي والتبادل السلعي، فستغدو لذلك قصبات متناثرة ضعيفة تهبّ عليها رياح شرقية عاصفة حيناً، وجنوبية أو شمالية عاصفة حيناً آخر. وستجد نفسها بحاجة تدريجية الى تحالفات على حساب استقلالها، ما سيجعل استقلالها النسبي القديم نوستالجيا (حنين) قديمة تستثير يوثوبيا (رؤى) مستقبلية،

كسراب لا يكسب الراكض وراءه إلا مزيداً من المتاعب، وسعياً عبثياً لمستحيل لا يورثُ طالبه الا مزيداً من المتاعب والمآسي. فقد ذهب استقلالها مرة واحدة بهذه الظروف الاقليمية والدولية المستجدة، **وإلى الأبد**، ولن تجد استقرارها الا تحت ظل، وبحماية إحدى الامبراطوريات الكبرى، ولن تعرف الاستقرار ألاّ في المراحل التي يتحقق فيها استقرار اقليمي ودولي وفي ظل كيان واسع، وسوف تضعف ويصيب زلزالُ الأرضَ التي تقفُ عليها كلما ضعف مُحيطها، وستغدو بحاجة لانتماء فكري جديد ولأيدويولوجية جديدة تربطها بمحيطها بعد ان غدت نعجات صغيرة بين قطعان ذئاب[1]. **فخيارها الآبدي يكمن بين التماهي مع محيطها لتأمين مصالحهما المشتركة او الخضوع لسلطة اجنبية مذلة.**

المجتمع التجاري الذي لا تتوافر له أسباب القوة البشرية والمادية لحماية نفسه، يحتاج الى السلام والعدل، حلم المظلوم العاجز (بوجه الأطماع، الغريزية البشرية) وافتقارها الى سلطة قوية تحفظ أمن الأفراد والمجتمعات، هذا الحلم والتوق الى العدالة والمحبة والتسامح الذي يحمي الضعيف من جور الاقوياء والعقائد والتقاليد والقوانين العنيفة، كل ذلك جعل من هذه الأرض أرض الأنبياء. وجعل من أُناسها ومجتمعها قبلة للأنبياء من خارجها، وجعل منها كذلك منطقة اتصال وتفاعل حضاري يغني ثقافتها ويؤصّل شخصيتها الحضارية. فالأقوياء يسنّون القوانين التي تناسبهم والعدالة مطلب المقهورين، والعدالة حسب العصور تتمثل بالتسوية بين الوضع الإنساني والمنجز المادي للحضارة.

وبالإضافة لأهميتها كمسلك تجاري تتمثل الأهمية الاقتصادية لهذه المنطقة بكونها مصدّرة للفخاريات والزجاج والبخور والأصباغ والأبقار والخمور والتين والأقمشة والحبوب (سهل البقاع كان يدعى اهراءات روما) وكذلك كان البترول في الامبراطورية الرومانية يؤخذ من شمال سورية (البترول السطحي، الذي كان يستعمل للإنارة والحرب وكان مادة صنع ما سُمي بالنار اليونانية).

بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث

هذه الأهمية الاستراتيجية والجيوبوليتيكية التي أبقاها الثابت الجغرافي، كما تبينت من تاريخ الشرق الأدنى القديم والتي ما زالت قائمة حتى يومنا هذا،

---

(١) رمّز الفكر الديني القديم ارتباط الأمن المصري والمصالح التجارية المصرية بساحل بلاد الشام بأسطورة أوزيريس وهو «ذو أولوية خاصة في حكم العالم» بمدينة جبيل نظراً لأهميتها حينذاك، بالإضافة لكونها العمق الأمني لحماية منازة نهر الكلب (حول الاسطورة انظر: د. رشيد الناضوري ـ جنوب غرب آسيا وشمال افريقيا ـ التطور التاريخي للفكر الديني ـ مكتبة الجامعة العربية ـ بيروت ـ من دون تاريخ ص ٧٥).

بالإضافة لأهميّة البترول كسلعة استراتيجية، هي الدوافع الكامنة وراء الخطة الاستعمارية في أيامنا الراهنة، ووراء «مؤامرة الغرب على العرب»[1].

١ ـ ونظرة على العلم الاسرائيلي وشعار الدولة الاسرائيلية «من الفرات الى النيل حدودك يا إسرائيل» والمعبر عنها بخطين أزرقين يشيران الى نهري الفرات والنيل تتوسطهما النجمة الاسرائيلية للسيطرة بينهما بالنفوذ ان لم يكن بالاحتلال، تؤكد استهداف هذا المشروع للأمن العربي كله، وإسقاط الدولة العبرية للأمن العربي.

٢ ـ اتفاقية سايكس ـ بيكو المرتبطة مباشرة بهذا الموضوع، والتي ضمنت قيام اسرائيل واستمرار العجز في ظل هذه الاتفاقية عن إسقاطها، تشير الى الحقيقة التي يثبتها هذا البحث، فقد حددت هذه الاتفاقية تقاسم النفوذ بين فرنسا وبريطانيا على الإمساك بمفاصل هذه المنطقة لإسقاط أمنها، وتفتيتها الى دويلات لإبقائها عاجزة عن فك هذا القيد، وإدخال تركيا في الحلف الأطلسي بالإضافة الى الحصار على العراق، ومناطق الحظر في شماله وجنوبه، وكذلك إخراج مصر من الصراع باتفاقية كمب ديفيد، هي البديل الستراتيجي الاميركي عن السيطرة المباشرة البريطانية والفرنسية. (أنظر خريطة سايكس بيكو) ونصوص الاتفاقية في آخر هذا الكتاب.

ولتثبيت هذا الواقع كانت المؤامرة الثقافية الغربية على العرب، والتي تهدف الى ترسيخ إيديولوجية، تسقط هذا الأمن العربي، وكانت إثارة المسألتين اللبنانية والمسألة اليهودية كعاملين إيديولوجيين من أجل ترسيخ حماية ثقافية للمؤامرة الغربية.

---

(١) أنظر «د. ياسين سويد «مؤامرة الغرب على العرب» ـ المركز العربي للأبحاث والتوثيق ـ بيروت ـ لبنان ١٩٩٢.

ـ ولعل هذه الحقيقة هي وراء تقرير كامبل بانرمان.

ساحل بلاد الشام والصراعات الدولية
القسم التاريخي (*)

موقع المنطقة وقدرها

تكلمنا في الصفحات السابقة على أهمية خط الساحل الشامي من انطاكية الى جنوب فلسطين كخط تجاري، وكيف ان موقع المنطقة وطبيعة تضاريسها جعلا منها واسعة الثراء، شديدة الهشاشة الأمنية، وأن هذا الوضع أثار لعاب الامبراطوريات على مر التاريخ، فحوّل المنطقة الى منطقة تجاذبات وصراعات دولية، وتمر دوماً بمراحل تحوّلية مع تغير موازين القوى الدولية، ما جعلها عرضة لنزاعات واجتياحات دولية، كثيراً ما تنعكس ليس على أمنها الخارجي وحسب، إنما على أمنها الداخلي كذلك.

ولا بد أن نشير قبل العرض التاريخي للأحداث المفصلية في تاريخ المنطقة (وأحياناً وغالباً تاريخ العالم) الى ملاحظة بأن كل المعارك المفصلية في تاريخ المنطقة حسمت على هذا الخط الساحلي. وقبل الاستعراض التاريخي الموجز لهذه الصراعات نشير الى كون أبرز المعارك الفاصلة والحاسمة التي وقعت على هذا الخط، كان لها الأثر الحاسم، ليس بالنسبة لتاريخ المنطقة وحسب، إنما لتاريخ العالم برمّته.

ولا بد من الاشارة هنا الى ان استقلال المدن الكنعانية (الفينيقية) القديمة لا يعدو كونه وهماً، أطلق لخلق يوتوبيا كيانية، ومدرسة تاريخية لاتخدم الحقيقة

(*) جميع الامبراطوريات المذكورة في هذا الكتاب لها خرائط توضيحية، يرجى مراجعتها في ملحق الخرائط آخر الكتاب. استكمالاً للفائدة. وكذلك مراجعة الجداول التاريخية من عام ٦٣٤ ميلادية الى العام ٢٠٠١م.

التاريخية وبالتالي تتجاهل الحقائق الجيوبوليتيكية والجيوستراتيجية التي تفرضها طبيعة الموقع والتي تجلّت على مدى التاريخ، كما سنوضح فيما يلي، بغية تجزيء آمن هذه المنطقة وسياستها واقتصادها، وصولاً الى السيطرة عليها خدمة لمصالح استعمارية، ما يدخل المنطقة في نزاعات أهلية داخلية لا تخدم إلا المصالح الاستعمارية وتحمّل شعوب هذه المنطقة مآسي لا تطاق، قبل ان تعود للانصياع لما يفرضه وضعها الجيوبوليتيكي.

فمراجعة للرسائل التي كان يوجهها (ملوك) الكنعانيين الى فرعون مصر، تظهر التبعية السياسية الكاملة لهذه البلدان، وإعلان عبوديتها لفراعنة مصر.

ونورد فيما يلي جدولاً بأبرز المعارك التي حسمت النزاع بين الامبراطوريات القديمة للسيطرة على هذه المنطقة والعالم. وما يلفت النظر أنّ معظم هذه المعارك وقعت في فلسطين، ففلسطين على ذلك هي في موقع القلب من أمن الأمة العربية والعالم، ولذا كانت مستهدفة تاريخياً، كما ان الاسكندرونة في شمال بلاد الشام تحتلّ أهمية كبيرة بالنسبة لأمن هذه البلاد، ما يفسر قضية (لواء الاسكندرونة)، كما لعبت بيروت سيما في الألف الثاني بعد الميلاد، دوراً مهماً في هذا الأمن، حيث اختلطت فيها النزاعات الاقليمية والدولية بالنزاعات الداخلية، في مراحل الانحطاط الحضاري.

جدول بأهمّ المعارك الحاسمة
التي شهدها ساحل بلاد الشام في الدول القديمة
١٤٨٠ ق.م - ٥١٨ م

عاش ساحل بلاد الشام مع مقدمات مراحل التاريخ الانساني المدوّن، وفي مراحل استقرار التجمعات البشرية، نتيجة التحول المناخي الذي أدى الى الثورة الانتاجية الأولى (ثورة الانتاج الزراعي) التي شهدت بداية نشوء المجتمعات السياسية والوحدات الاقتصادية وثورة انتاج الفخاريات، عاش الساحلُ هذا حياة استقرار واستقلال نسبي، ثم ما لبث تسارع الثورات المعرفية والمعدنية ان أدى الى تنامي الحاجة الى التبادل التجاري، فازدهر بحكم موقعه المتوسط بين القارات الثلاث المعروفة، وتنامى دوره التجاري. ولكن هذا التطور أدى في آن الى نشوء تجمعات اقتصادية سياسية أكبر، وبالتالي الى نشوء مجتمعات قوية، وبدأ الصراع للسيطرة على مناجم المعادن ومرابح التجارة، بين الدول التي تمتلك مقوّمات هذه القوة، بعد ان توحدت تجمعاتها الاقتصادية - السياسية في دول.

وبحكم مجاورته لإحدى أقدم هذه الدول (مصر) غدا يعيش في ظل هيمنتها ونفوذها. وقد استغرقت هذه المرحلة ما يقارب الألف وثلاثماية عام، بالنظر لبطء الدورات الحضارية في مراحل النشوء الأولى للحضارة الانسانية[1]. ولكن قوة أخرى قامت في مشرقه أي في بلاد ما بين النهرين، وبدأ التوسع الجغرافي الذي اقتضاه تطور المنجز المادي للحضارة وتطور الوعي، يتجه من بلاد ما بين النهرين، باتجاه الغرب، ما أدى الى تماس ثم تداخل في مناطق النفوذ، فدخلت بلاد الشام سيما ساحلها منذ بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، في اتون هذه النزاعات، التي سترتبط كما سنرى. بالنزاعات الإيديولوجية في دفع متوالٍ ومستمر بينهما

(١) أنظر نظريتنا في كتابنا «الانسان والحضارة - جدلية المادة والوعي».

(جدلي)، لتصبح هذه المنطقة منطقة انبثاق التسويات ما بين المادي والمعرفي، وانعكاسهما على الوضع الانساني[١]. فغدت «أرض الرسالات».

معارك الامبراطوريات القديمة الحاسمة[٢]

١٤٨٠ ق.م. معركة مجدّو **(جنوب فلسطين)** بطلها تحوتمس الثالث.

١٢٩٩ ق.م. معركة قادش (لعلها قرب حمص، وأدت للسيطرة على الساحل) وتمّت عن طريق التفاف للفراعنة من القدس الى دمشق فحمص.

١٢٧٥ ق.م. معاهدة صداقة بين رعمسيس الثاني والحثيين، وتقاسم النفوذ على الساحل عند نهر الكلب، **وجعلت من القدس منقطة حرة محايدة مقدسة بقسم بالآلهة**[٣].

١٢٢٠ ق.م. هجوم شعوب البحر والفلسطينيين وتدمير (أوغاريت) راس شمرا، ومنفتاح يشنّ حرباً على الغزاة، **وباعتقادي ان لقموع الهرمل علاقة بهذه المعركة**، أو بالهدنة السابقة عليها في فلسطين.

١١٩٠ ق.م. رعمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١١٦ ق.م.) يصدُّ زحف شعوب البحر نحو مصر.

٩٢٠ ق.م. حملة شيشونغ chéchong نحو فلسطين **ونهب أورشليم**.

٨٨٣ ـ ٨٥٩ ق.م. آشور نازربال الثاني يجتاح الساحل وبلاد الشام ويخلّد نصره بلوحة على نهر الكلب[٤].

٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م. شلمنصر الثالث يوطّد السيطرة على الساحل ويتحكّم بطرق التجارة من الساحل الى ما بين النهرين. أي على كل طرق التجارة الدولية في عصره. ويخلّد نصره بلوحة على نهر الكلب.

٧٤٧ ـ ٧٢٧ ق.م. تغلافالاسر اجتاح شمال بلاد الشام وغزه ووصل الى مصر.

٧٢٧ ـ ٧٠٥ ق.م. سرجون الثاني، انتصر على المصريين في رفح.

٧٠١ ق.م. حاول قزحيا **(فلسطين)** الانفصال عن آشور بمساندة المصريين، فحارب سنحريب المصريين وهدَّد **أورشليم**.

---

(١) أُنظر نظريتنا في كتابنا «الانسان والحضارة ـ جدلية المادة والوعي».
(٢) أُنظر في متن الكتاب الخرائط التاريخية الدالة على هذه المواقع.
(٣) ما كان بداية لتدسية هذه المدينة.
(٤) وكان اسمه نهر «الذئب» ودعاه العرب فيما بعد «نهر الكلب» انظر: آن ماري عفيش، مجلة «الجيش» اللبناني عدد ٨٧. ـ كانون الثاني ٢٠٠١ ـ مقال «كتاب التاريخ المفتوح».

٦٧١ ق.م. اسرحدون يصل ال طيبا (عاصمة الفراعنة) ويحسم الصراع لمصلحته على ساحل الشام.

٦٦٣ ق.م. آشور بانيبال يغزو مصر فتصبح ولاية آشورية، لاستكمال السيطرة على الطرق التجارية كافّة.

٦٥٥ ق.م. بسامتيك الأول يطرد الاشوريين من مصر.

٦٠٥ ق.م. انتصر نبوخذ نصر على المصريين في قرقميش وسيطر على ساحل بلاد الشام وخلّد نصره بلوحة على نهر الكلب (تحمل رقم I في لائحة المتحف اللبناني الأثرية) **ودمر أورشليم** (السبي الأول) لتوقيعها معاهدة صداقة مع مصر.

٥٩٨ ق.م. على أثر معاهدة صداقة عقدتها مملكة يهودا مع مصر، قام الاشوريون باحتلال أورشليم بعد حصار سنة ونصف (ودمّر المعبد؟)[١] واصطحب معه أهلها الى بابل (السبي البابلي).

٥٨٧ ق.م. تدمير أورشليم على يد نبوخذ نصر الثاني واستمر الأسر (٥٦٨ ـ ٥٣٨).

٥٢٥ ق.م. اجتاح قمبيز الثاني (الفارسي) مصر، ووصل الى النوبة وليبيا، ولكن بسامتيك الثالث عاد وهزمه في معركة فاصلة بينهما في عريش مصر.

٥١٨ ق.م. جرد داريوس الأول (الفارسي) (٥٢١ ـ ٤٨٦) حملة على مصر، وامتدت بذلك الامبراطورية الفارسية من الهند، وشملت بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام ومصر ومدّت نفوذها نحو النوبة جنوب مصر وليبيا في غربها؛ أمّا في الشمال الغربي فاستولت على آسيا الصغرى ومدّت نفوذها نحو البلقان، فغدت على احتكاك مباشر مع المدن اليونانية، بعد ان سيطرت على بعضها (في آسيا الصغرى) ما أوجد تحدّياً للحضارة اليونانية من ناحية، سيحفزها لمرحلة جديدة في تطورها الحضاري، وتمتعت هذه الامبراطورية بقوة كبيرة لسيطرتها على كل طرق تجارة الشرق والقضاء على منافسيها على هذه التجارة، فأنهت النزاع الاقليمي بين الامبراطوريات في الشرق. وأنهت كذلك مرحلة

---

(٢) لم يعثر المنقبون الاسرائيليون على أي بقايا اثرية تدل على وجود المعبد، كما لم يجدوا ما يثبت صحة أي من مقولات «التوراة» التاريخية (حسب التقارير التي نشرها هؤلاء المنقبون) في نهاية القرن العشرين.

الامبراطوريات القديمة، بمرحلة استقرار استمرت من عام (٥١٨ حتى عام ٣٢٣ ق.م.) ليبدأ صراع بين الشرق والغرب بقيام الامبراطورية المقدونية على يد الاسكندر المقدوني، وقد انضاف بهذه الفترة تطور في المنجز المادي والمعرفي، وهو التطور في الملاحة البحرية وصناعة السفن والأسلحة، ما سيدخل تعقيدات إضافية على أشكال الصراعات، ولكن هذا التحول لن يؤثر على ثابت الجغرافية.

الدولة الفرعونية في القرنين ١٨ و١٧ ق.م.

ما بين عامي ١٧٧٨ وحوالى ١٦١٠ ق.م. حكمت الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة في مصر، ولكن اضطرابات داخلية حدثت فيها نتيجة عجز ايديولوجية الدولة الوسطى في مصر عن اللحاق بالتطور وحلّ تناقضاته، وسقوط هذه الايديولوجية في الايمان الشعبي أدّى الى ثورات واضطرابات مهدت لـ:

حوالى ١٦٥٠ ق.م. غزو الهكسوس، وتنحدر هذه الشعوب من قبائل حورية وسامية، دعاها المصريون هيكارخيسوت أي (قادة الأجانب) وهذا الوصف ينطبق على قادة الغزاة وليس على جموعهم، غزت مصر، وهذا الاجتياح كان نتيجة للهجرات الكنعانية التي اصطدمت بشعوب هندو - آوروبية آتية من الشمال، فارتدّت جنوباً الى مصر، مستغلة ضعف الدولة، والفراغ الأمني الذي خلّفته مرحلة (الثورة الأولى في التاريخ) في مصر، وحكمَ الغزاةُ هؤلاء من تأنيس (افاريس) شمال شرق الدلتا، بفضل تقنياتهم العسكرية المكونة من الخيالة[1] وعربات القتال، وحيث لم يكن للغزاة تراث حضاري، فقد احتفظوا بالحضارة المصرية المتفوّقة، ويبدو ان نفوذ هؤلاء الغزاة لم يتعدَّ خط ممفيس ودهشور جنوباً (جنوب القاهرة حالياً).

وقد استمر حكم الهكسوس لمصر حتى طرَدَهُمْ منها أحموس الأول وأقام الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠ ـ ٧١٥ ق.م.) ولحق بهم حتى فلسطين.

وفي عهد الذين خلفوه على الحكم امينوفيس Amenophis I وتحوتمس الأول

(١) ما يدل على أصولهم الصحراوية (من شبه الجزيرة العربية)، ففيها تم لأول مرة في التاريخ استئناس الحصان، واستعماله.

بسطت مصر سلطتها بحملات نحو الشمال وصلت الى الفرات وشمال الأناضول وجنوبي اليونان. بالإضافة لبلاد الشام، وجنوباً اجتاح تحوتمس النوبة ووصل الى الشلال الثالث.

دول المدن قبل نزاع الامبراطوريات

يوتوبيات تثيرها مكبوتات

ذكرنا فيما سبق أنه مع قيام امبراطوريات الشرق الأدنى القديم، فقدت دول المدن استقلالها النسبي وإلى الأبد، وسنعرض فيما يلي الأحداث المفصلية في تاريخ هذه المنطقة، وكيف أنها لا تعرف الاستقرار إلا في ظل دولة كبرى قوية، وأن الصراع يعود اليها كلما تزعزعت أركان تلك الدولة أو (الامبراطورية) لأن ثمة عرى لا تنفصم بين آمن هذه المنطقة واقتصادها، وبين أمن محيطها واقتصاده (وإلى حد ما بالأمن والاقتصاد العالمي)؛ وهذا ما يجعل من يوتوبيا المدرسة التاريخية الكيانية (بالاستقلال التام والناجز) أمراً خارجاً عن الواقع، ولا يجر على أصحابه ومن يشاركهم الوطن إلا الكوارث والويلات. وهذه المدرسة الكيانية، أصلاً، ليست وليدة حقيقة تاريخية تمثلت في أي زمن تاريخي مضى، وليست إلا من نسج غايات وإيحاءات في دراسة التاريخ سوّقتها مصالح غربية وزورت وقائعها لتخدم أهدافاً استعمارية في آكثر من مرحلة تاريخية، مستغلة عورات وخللاً في التركيب الايديولوجي (وبعض العقد النفسية) لبعض سكان هذه المنطقة، ومستغلة انحرافات في مسرى تاريخها: بغية تفتيت مجتمعاتها وإبقائها بحاجة لوصاية وأم حنون من ناحية تحقيقاً للأهداف الاستعمارية بإبقاء هشاشة المنطقة أمنياً وسياسياً، وللحؤول دون النظر بعين موضوعية وعلمية لإبراء هذه المجتمعات من مكبوتات نفسية خلّفتها عورات وثغرات المراحل التاريخية السابقة، والحؤول دون العمل على حلّها بإقامة دول عصرية تساوي بين كل مواطنيها وتعدل بينهم.

واليوتوبيا التي تثيرها المدرسة الكيانية بمحاولة استحضار ماضٍ سحيق مزعوم، لا تنطبق مقولاتها على الحقائق التاريخية، فهي تروّج لبديهيات مغلوطة للحؤول دون الحلول السليمة. وبذلك تتماثل الكيانيات والصهيونية بالمنحى اليوتوبي التجزيئي من حيث غايتها لا من حيث طبيعتها.

صحيح أن أول معركة حسمت مصير المنطقة بضمّها وإخضاعها كلياً، حصلت في مجدو عام ١٤٨٠ ق.م. ولكن دول المدن قبل ذلك التاريخ، لم تكن تتمتع باستقلال تام وناجز، كما يحلو للبعض تصويره؛ فمعركة مجدّو هي حصيلة

للاحتكاك المباشر بين الامبراطوريات الشرقية، ولقيام نزاعات اقليمية، ولكن السيطرة والنفوذ على بلاد الشام الشمالية والجنوبية كانت موجودة قبل هذا الاحتكاك بزمن طويل، فسرجون الأول (الاكدي) ٢٣٥٠ ـ ٢٣٠٠ ق.م. سيد «جهات العالم الاربع» وصاحب التمثال ذي الاربعة وجوه، اجتاح دول ما بين النهرين واحتل قسماً من آسيا الصغرى وشمال سوريا فسيطر بذلك على مداخل الطرق البرية الشمالية، مستعملاً ومدشّناً استعمال مبتكر حربي (القوس والنشاب)، وأصبح الملك ـ الإله، وبعده قام حفيده نارام سن (٢٢٧٠ ـ ٢٢٣٠ ق.م.) بترميم أحوال الامبراطورية وشن حملات باتجاه الجزيرة العربية وجبال زاغروس.

وبين عامي(٢٠٥٠ ـ ١٩٥٠ ق.م.) وفي أيام أسرة اور الثانية شنَّ شوسن ثالث حكّامها حملة على ساميي الغرب أي شمال غرب الجزيرة العربية دون ان يدوم احتلاله. ومنذ الألف الثاني ق.م، بدأت هجرات سامية كبيرة (كنعانية) نحو بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام وباديتها، وما يدل على سبق عروبة هذه البلدان، من ان كل الغزوات التي مرت عليها، لم يبق من آثارها إلاّ رسومٌ دارسة ونقوشٌ وكتابات، وبقيت لغتها هي طابعها الثقافي الذي استعصى على الأحتواء أو التبدد والضياع.

أما المدن الكنعانية[1]، والتي دعاها اليونانيون فيما بعد فينيقية، والتي تمتد على ساحل بلاد الشام من اوغاريت حتى صور، فكانت رغم استقلالها الظاهر تخضع لنفوذ الفراعنة، حيث لم يكن هنالك ثمة تهديد لهذه التبعية، والرسائل الموجهة من (ملوك) هذه المدن تشهد على اعترافهم بعبوديتهم للفرعون ـ الإله واعتبارهم أنفسهم من عبيده؛ وإنما يبدو ان دول المدن هذه، وفي منتصف الألف الثاني ق.م. ربما مستفيدة من تحالف معين مع القوى الكبيرة التي نشأت في الشمال والشرق، ومن قدوم الفلسطينيين أو شعوب البحر استطاعت أن تظهر تمرداً على سلطة الفراعنة، فقام تحوتمس الثالث باجتياح المنطقة.

معركة مجدو[2]

١٤٨٠ ق.م. وقعت معركة فيها بين تحالف السوريين والفلسطينيين وتحوتمس الثالث فرعون مصر، وانتصر فيها تحوتمس فانفتحت أمامه الطرق فاجتاح المدن الكنعانية وفلسطين بجيوش من المتطوعين والعربات المجرورة

---

(١) وإذا صح ادعاء البعض بعكس ذلك، فيجب ان تكون لنا قوميات صيدونية وصورية وبيروتية، وجبيلية وأوغاريتيية (ومنطق تجزئة الكل يجيز منطق تجزيء الجزء، وهو ما أدخلنا في الحرب اللبنانية (بحرب الأحياء والزواريب).

(٢) مجدّو: مدينة فلسطينية تقع في سهل بني عامر قرب معبر سهول بيسان.

ووصل الى الفرات مهد الاشوريين، وأصبحت بذلك حدوده على تماس مع دولة الميتانيين، وتابع خلفاؤه من بعده بنجاح سياسته الخارجية.

وفي عهده (١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق.م) وبعد ١٧ حملة عسكرية امتدت الامبراطورية الفرعونية من الفرات الى المنحدر الرابع على النيل.

١٣٦٠ ق.م. كان نفوذ الحثيين قد امتد حتى شمل معظم هضبة الأناضول الشرقية والجنوبية، شن الحثيون هجوماً على الدولة الميتانية فغدوا على احتكاك مباشر مع الامبراطورية الفرعونية. ثم هاجموا أوغاريت وحلب وقرقميش.

١٢٩٩ ق.م. معركة قادش: اندفع الحثيون جنوباً للسيطرة على ساحل بلاد الشام، وحارب مواتلي الحثي (١٣١٥ ـ ١٢٩٠ ق.م) المصريين عند قادش شمالي منابع العاصي. بعد ان كان امنحوتب الرابع (اخناتون) (١٣٧٩ ـ ١٣٦٢ ق.م) قد أهمل السياسة الخارجية فتقلص نفوذ مصر عن آسيا[1]، ولكن قائد جيشه حورمحوتب الذي تولى السلطة بعد توت غنخ امون حارب الحثيين وانتصر عليهم، ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، ولم يحسم فيما يتعلق بالنفوذ على المدن الكنعانية بين الدولتين.

وفيما تولّى رعمسيس الثاني (١٣٠٤ ـ ١٢٣٨ ق.م.) الحكم. أراد استعادة نفوذ مصر على الساحل الشرقي للمتوسط فجهز حملة ودحر الحثيين حتى جرت المعركة الفاصلة بينهما عند مفازة نهر الكلب Oronte، فهزمهم هناك وسجل انتصاره على لوحة حجرية ما زالت تخلّد هذا الانتصار والعبور، وامتد خط الهدنة ليشمل مناطق غربي بلاد الشام الخصبة ماراً بجنوب نبع العاصي، ولعل «قموع الهرمل» شيّد لتحديد خط الهدنة المذكور.

---

(١) هذا ما دفع موسى لاستغلال هذا الفراغ الأمني حين موت اخناتون، وكان هو أحد قادته، فوجه العبرانيين للاستيلاء على فلسطين وأقامت دولة هناك (أرض الميعاد)، انظر «المسألة اليهودية» في الكتاب الثاني من هذا المؤلف. وقد وجه العبرانيين نحو فلسطين، لمعرفته بأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية ولإعادتهم لإرثهم التجاري الابراهيمي القديم، بعد ان كانت طريق البادية قد فقدت أهميتها لفترة زمنية معينة، ما دفعهم للنزوح من مجتمع الحرية (البادية) الى مجتمع العبودية في مصر الفرعونية، سيما وان موسى كان قائد قطاع سيناء العسكري أيام امنحوتب الرابع (اخناتون) وهو لذلك خبير بالاستراتيجية العسكرية والاقتصادية للدولة الفرعونية، وكان أحد أتباع نظرية التوحيد الاخناتونية (الإله الشمس) أما توحيده التجريدي، فأخذه عن العبرانيين من ارثهم العقيدي الابراهيمي.

وفي عام ١٢٧٥ ق.م. عقدت معاهدة صداقة بين رعمسيس الثاني وحتُّوسيل الثالث الحثي، فعاد التوازن الى المنطقة واعتبر حاجز نهر الكلب Oronte حدَّ السلام بين الدولتين (وسميت القدس) «مدينة السلام» كمنطقة تجارية حرة لموقعها الحصين (قرب مفترق بيسان)، وكانت محرمة بعهد آلهة الدولتين ليكسب حيادها قدسية، ويحترم، حفظاً للسلام بين الدولتين ولتأمين مصلحتهما المشتركة. ومنذ ذلك التاريخ غدت القدس مدينة مقدسة نظراً لموقعها الستراتيجي اقتصادياً وعسكرياً.

وما لبث ان عاد الخطر ليتهدد مصر من ناحية فلسطين والقوى الصاعدة على حدودها الشمالية.

١٢٢٠ ق.م. قام منفتاح Meneptah بحملة على فلسطين وحارب شعوب البحر (مع آخرين من اليونانيين والفلسطينيين) الذين تحالفوا مع الليبيين ضد مصر، (وهنا ترد الاشارة الأولى لاسم اسرائيل).

١١٩٧ ـ ١١٦٥ ق.م. جـرَّدَ رعمسيس الثالث حملات جديدة (على شعوب البحر) والليبيين في شمال مصر وشرقها وطردها الى الخلف، وجلب الأسرى معه الى الدلتا، وفي عهود خلفائه تركزت الثروات الكبيرة في المعابد الكبرى.

وبعد معارك مع كهنة آمون وطيبا، وضد قادة مرتزقة ليبيين، قام Chéchong I شيشونغ الأول وهو قائد ليبي مرتزق ٩٢٠ ق.م. وبعد معارك مع كهنة آمون وطيبا ضد القادة المرتزقة الليبيين الآخرين استولى فيها على خيرات المعابد، وجرّد حملة على فلسطين ونهب اورشليم (للثروات المتجمعة فيها). وفي عهد شلمنصر الثالث الآشوري (٨٥٨ ـ ٨٢٤) توطدت الهيمنة الآشورية على سورية وفلسطين واستولى على الطرق التجارية من نهر Tigre دجلة الى البحر المتوسط، وهاجم دمشق فلم يفلح في الاستيلاء عليها، وكانت حينذاك عاصمة الآراميين، ونرى في هذه الفترة أول ظهور الميدنيين والفرس (عام ٨٣٥ ق.م.).

وتولّى حكم الدولة الآشورية تغلاسفلاسار الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م.)، ويعتبر مؤسس الامبراطورية الآشورية الكبرى، الذي استطاع وضع حدٍ لضعف الدولة بعد تغلّبه على هيمنة الحكام المحليين، واجتاح شمال بلاد الشام ودمشق وغزة وغدا ملكاً على بابل.

٧٢١ ـ ٧٠٥ ق.م. تولّى سرجون الثاني الحكم (وعرف باسم شاروكين أي الحاكم

العادل) وهو الذي أعاد الامتيازات للملاّك الزراعيين والارستقراطية وأخضع آخر الدول الحثية وسيطر نهائياً على عاصمتها اورارتو (الأناضول)، وحارب الميديين وفرض سيطرته على بابل، واحتل ساحل الشام، وحارب المصريين في رفح (رافيا) ودمَّر السامرية بعد ثلاث سنوات من الحصار، وهجَّر عدداً كبيراً من اليهود نحو ميديا وما بين النهرين، وأصبحت فلسطين ولاية آشورية، بعد ان قضى على المملكتين اليهوديتين (ولا بد من الاشارة الى أن هاتين المملكتين لم تعمّرا الا ٧٠ سنة (بفعل الهدنة المذكورة آنفاً) .

ويستمر حكم الامبراطورية الآشورية حتى قيام الامبراطورية البابلية الجديدة (٦٢٥ ـ ٥٣٤ ق.م.) وفي غضون هذه المدة يقوم سنحريب (٧٠٤ ـ ٦٨١ ق.م.) بضرب المصريين وإخضاع يهودا عام ٧٠١ ق.م. لأن قزحيا Exechias حاول الانفصال عن آشور بدعم من المصريين، وهدّد كذلك اورشليم. ودمَّر بابل.

٦٨٠ ـ ٦٢٦ ق.م. ثم يليه أسرحدون الذي يجتاح مصر حتى يصل الى النوبة (جنوب مصر وشمال السودان).

وفي ظل الامبراطورية البابلية الجديدة (٦٢٥ ـ ٥٣٩ ق.م.) عمل الكلدانيون على الاستيلاء على بابل واستطاعوا تحقيق ذلك بعد موت أسرحدون، وأصبح أول ملوك الكلدانيين نبوبولسر (٦٢٥ ـ ٦٠٥ ق.م.) ملكاً على عيلام والقسم الغربي لما بين النهرين (ميزوبوتاميا) وعلى سورية وفلسطين.

واستمرّت الامبراطورية البابلية الجديدة بحدودها التي ذكرناها آنفاً والتي تشمل غرب بلاد ما بين النهرين حتى البحر المتوسط، شاملة بلاد الشام أي حتى حدود غزة جنوباً.

٥٩٨ ق . م ـ قام نبوخذ نصر الثاني (٦٠٤ ـ ٥٦٢ ق.م) باحتلال اورشليم، بعد ان أبرمت (يهودا) معاهدة صداقة مع مصر (الشتات الأول).

٥٨٧ ق.م ـ دمّر نبوخذ نصر (الثاني) اورشليم.

٥٣٩ ق.م ـ احتل سيروس الثاني (الفارسي) بابل، وغدت بلاد ما بين النهرين ولاية فارسية، وقد بقيت بابل تحت سلطة الفرس حتى احتلها الاسكندر الأكبر المقدوني عام ٣٣١ ق.م. بعد اغتيال داريوس الثالث، آخر امبراطور في الامبراطورية الفارسية القديمة، إثر هزيمته وهروبه عام ٣٣١ ق.م.

أمّا القدس وفلسطين فأصبحت جزءاً من الامبراطورية الفارسية تُحكَمُ بحكمٍ فارسي مباشر.

٥٢٥ ق.م.. اجتاح قمبيز الثاني (الفارسي) (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م.) ساحل الشام وهزم بساماتيك الثالث (آخر الفراعنة). في معركة Peluseالفالوجة شرقي دلتا النيل (قرب الساحل، واجتاح مصر الفرعونية حتى بلغ النوبة، ثم تراجع الى عريش مصر. (وباستيلائه على العراق ومصر استتب أمن المنطقة قرنين).

٥١٨ ق.م.. احتلّ داريوس الأول مصر، وبقيت مصر بعد ذلك تحت الحكم الفارسي حتى غزاها الاسكندر الكبير عام ٣٣٠ ق.م.

المؤامرة الثقافية الغربية
أو اثارة مكبوتات ويوتوبيات العصور التاريخية القديمة

بالعودة الى الموضوع الذي أشرنا اليه في مطلع هذا الفصل، ثم استعرضنا في متن الفصل الأحداث التاريخية التي تثبت ان هذه المنطقة (سواحل بلاد الشام) لم تكن يوماً مستقلة استقلالاً ناجزاً، وانها كانت دوماً تحت وصاية الدول الكبرى وهيمنتها منذ نشوء الكيانات السياسية، وإنما ربما كانت كذلك الى حد ما قبل عصر الثورات الصناعية الأولى، أي في عصر الاستقرار الزراعي وصناعة الفخاريات، فإن العودة الى مثل هذه الفترة لتبرير المدارس الكيانية لا تتيح لنا فرصة موضوعية للتحدث عن لبنان ولا عن فلسطين، ولا حتى عن أي كيان سياسي في المنطقة. فلم يكن هناك سورية ولا أيّ دولة في العالم، إنما كانت هنالك دول مدن في كل انحاء العالم القديم المعروف، وان كان حكامها يسمّون ملوكاً، ولا يصح علمياً ان نسقط تاريخياً كلمة «ملك» في ذلك الزمان على مدلولها في العصور الحديثة، وحتى ان فعلنا ذلك، فلن يكون هناك ثمّة تسمية علميّة لـ «لبنان» أو «فلسطين». فهذه الكيانية بهذا المقياس، يجب ان تكون كيانية «جبيلية» و«صورية» و«صيداوية» و«ممفيسية» (نسبة الى ممفيس) أو «بابلية». او «اريحية» (نسبة الى جريكو (اريحا) الخ...). فالتاريخ إذ ذاك هو تاريخ شعوب ذات أصول تاريخية معينة، ويروي بدء قيام المجتمع السياسي، ما لا يصلح إسقاطه على الحاضر. (سيما ان معطيات قيامها انقضت مع انقضائها).

وتأسيساً على هذه الحقيقة، فلا يمكن الحديث عن شعب فينيقي، أولاً: لأن هذه التسمية أطلقها اليونانيون على قسم من الكنعانيين الذين كانوا يتعاملون معهم ويقطنون على الساحل، وهذه تسمية تعود لما امتازت به صناعات هذه المنطقة (اللون الارجواني) وليس للدلالة على أصول عرقية أو ثقافية، والتسمية الصحيحة

هي «الكنعانيون». وحينا نعيد هذه التسمية الى أصلها أي كنعانيون أو القبائل الكنعانية المستقرة، فإننا نجد هذه التسمية تشمل سكان شمال ساحل بلاد الشام (اوغاريت) وتشمل الجليل (فلسطين) كما تشمل الكثير من مدن الشام الداخلية القديمة، واللهجة الآرامية التي كان هؤلاء يتكلمونها (في العصور المؤرخة) فلأنها تشبه لهجتهم الأصلية، ولم تكن «لغة» ثانية، وذلك يعني أن المدلول الجغرافي، للجغرافية البشرية والطبيعية يمتد أوسع من ذلك بكثير. وإذا ما أخذنا بالاعتبار، بأن العالم القديم هذا (كما تشير كل الاطالس التاريخية عن انتشار الامبراطوريات القديمة)، فإن بادية الشام وشبه الجزيرة العربية، كانت الشعوب القديمة تطلق عليها اسم Arabia أي أرض العرب، وبلاد ما بين النهرين وكذلك ما يحيط بسلسلتي جبال (لبنان الحالي) والتي استقرّ فيها بعض من قبائل Arabia، لم يكن يفرقهم عن سكان البادية، إلا كون الأوائل استقروا في أراضٍ زراعية (فأصبحوا أهل حضر) وسكان البادية بقوا (أهل مَضَر) أي يعيشون على الرعي وعلى التنقل ويسكنون الخيام، وكلهم من جذور واحدة (هجرات خرجت من البادية لضيق مجالات العيش فيها، واستقرت لتنشىء حضارة زراعية) ولم تكن الأمم بعد قد تشكلت، فلا يصح إسقاط واقع تاريخي على ما قبله.

فما أسماه علماء الغرب لغات سامية، ليس إلا لهجات قبلية لشعب من جذور واحدة، من أمة آخذة في التشكل، ولا يمكن الاعتداد باللغة السريانية أو العبرية أو الآرامية الخ... للتفريق بين هذه الشعوب، فهذه اللهجات لم تدوّن وتبقى إلا في النصوص الدينية وبعض النقوش الأثرية، فهي (أمم) بالمعنى الديني لا القومي للكلمة، ولم تبلغ هذه اللغات اكتمال نضجها لتشكّل أساساً لقيام أمة إلا في (لهجة قريش) أي (لغة القرآن الكريم) لتشمل وتوحد بمدلولاتها اللفظية والثقافية كل تلك القبائل القديمة ما عدا (العبرية) ولتنشىء أمّة على أساس لغوي ثقافي لا ديني (فقد شملت كل العقائد وليس المسلمين وحدهم) على الامتداد الجغرافي لهذه الأمة في امتدادها الجغرافي الراهن، واصلاً، وحين الفتح (العربي - الاسلامي)، كان الغساسنة والمناذرة وكثير من مدن الشام وسكان الجزيرة يتكلمون هذه العربية، والمناذرة والغساسنة مسيحيون، وذلك يعني أن المسيحية سبقت الاسلام في المجتمع العربي؛ وبتعبير آخر وأدقّ ان العروبة سبقت الاسلام والمسيحية معاً، والعقيدتان انبثقتا في قلب العروبة لتعبرا عن خصائصها الحضارية وتجلت ثقافتها بهما قبل غيرهما ليكونا دينيين قوميين قبل ان يصبحا انسانيين طبقاً لتعاليمهما، وأقوال السيد المسيح وكلامه كانا بالآرامية لا بالعبرية.

آما الأفكار المؤسسة للمدارس الكيانية، وادّعاء أصولها في كيان سياسي معيّن (فقد دحضناه فيما سبق) أو من حضارة معينة (فلم تقتصر الصفات المدعاة على حدود هذه الكيانات). وأما اللغة (فقد اندثرت جميع تلك اللهجات ولم يبق لها وجود إلا في نصوص طقسية ـ دينية) وليست لغة التخاطب اليومي والنتاج الثقافي الذي يوحّد المجتمعات، وإذا ما ادعينا ان (النصوص الطقسية ـ الدينية) يمكن ان تشكل خصائص لأمة، فيتوجب علينا الاستنتاج بأن الأتراك والايرانيين والافغان الخ... عرب، (لأن نصوصهم الطقسية ـ الدينية هي اللغة العربية (القرآن الكريم) وهذا منافٍ للحقيقة تماماً، ونفي هذا الاستنتاج الاخير يحتم نفي الاستنتاجات الأولى.

وليس ما سقناه، استطراداً يشكل خروجاً على موضوعنا، إنما هو من صلب هذا الموضوع، ويرتبط بهذا التاريخ القديم و(اليوتوبيات الناشئة عنه)، فتأسيساً على هذا التاريخ نشأت مسألتان إيديولوجيتان ويوتوبياتان تلعبان دوراً في هذه المنطقة، وسنفرد لكل منهما باباً خاصاً هما: «المسألة اليهودية» و«المسألة اللبنانية»، وهاتان المسألتان، وإن اختلفتا في جذورهما، فهما، تثارا في صيغتهما الحديثة من قبل مصدر واحد، الثقافة الغربية الاستعمارية، وتصبّان بمعرفة من معتنقيهما أو بجهل منهم في هدف واحد: ونتيجة واحدة، وهي دق إسفين في وحدة هذه المنطقة التي أثبت التاريخ القديم، كما سيثبت التاريخ الحديث فيما سيلي، أن هشاشة أمن هذا الساحل تجعله محطاً للصراعات الدولية الدائمة من ناحية، ولأن آمنه واستقراره هما قلب الأمن العربي كله ولا يمكن فصل تاريخه عن تاريخ محيطه ولا أمنه عن أمن محيطه ولا اقتصاده عن اقتصاد محيطه، وان الاستيلاء عليه يفترض فصله عن محيطه وهو ما يجرّ المآسي المتكررة للقاطنين عليه، وهو عامل افقار وتفتيت لمحيطه بأسره. (وما يثيره الغرب حالياً من تمسك بخطوط سايكس بيكو والخط الازرق الخ... يستمد ادعاءاته من هذا الدجل الثقافي ويرتكز على الايديولوجيات الناتجة عنه، ولا يختلف حال أيٍّ تفكير كياني عربي عن حال هاتين المسألتين، فكل الافكار الكيانية في المجتمع العربي هي وليدة مؤامرة ثقافية غربية ترمي الى إبقاء الأمة مستضعفة، ما يمكن من تكريس السيطرة عليها لاستغلالها.

الفصل الثاني

في مراحل تكوّن الأمة

العلاقات بين الشرق والغرب
من ٣٣٠ ق.م الى ٦٣٣ م

«ان غزو اللغة العربية لسوريا يتفق مع حادث تاريخي هام، أعني بذلك وصول عدد كبير من أمراء العرب في نفس الوقت الى البلاد السورية، أي في المدة التي بدأ فيها سلطان الرومان في الاستقرار».

رينان. (المجلة الآسيوية رقم ١ ص ١٩)

مدخل

كنا قد أشرنا في الفصل الأول الى أن التصحّر ونشوء الثورة الزراعية كانا قد أدّيا الى قيام التجمعات البشرية قرب الأنهار والواحات ومصادر المياه، وأن تنوع الانتاج الزراعي وتخصصه بالإضافة الى ثورة انتاج الفخار قد أدّيا الى قيام تبادل تجاري أوسع، وإلى اضمحلال دول المدن حول الأنهار الكبرى في منطقة الشرق الأدنى القديم أي على حوض النيل الأعلى وفيما بين النهرين في العراق. ومع بدايات الألف الثالث قبل الميلاد انضافت سلع جديدة من حجارة كريمة ونحاس وخشب الخ... مما زاد من متطلبات الانتاج وتنوع المنتجات (أي مجمل المنجز المادي للحضارة الانسانية) كما نشأت إرهاصات الفلسفة (العقائد الدينية القديمة) بالترافق مع تطور المنجز المادي وبتفاعل معه، وتطورت كذلك المعارف، وان مجمل هذه التطورات أدت الى التمدد التدريجي للدول الكبيرة الناشئة بحثاً عن المواد الأولية أو بغاية توسيع التبادل السلعي، والسيطرة على طرق التجارة. كل ذلك أدى الى الزوال التدريجي لدول المدن من حيث تبعيتها ثم خضوعها الى ذوبانها في الدول الكبيرة التي بدأت بالتحول الى امبراطوريات وان توسع الامبراطوريتين (الفرعونية في مصر، والامبراطوريات المتعاقبة في العراق والأناضول والأناضول أدت الى التداخل في النفوذ ثم الى الحروب بينها. وتعتبر معركة مجدّو ١٤٨٠ ق.م. ايذاناً بنهاية عصر التجاذبات السياسية بين الامبراطوريتين وبداية الصراع الاقليمي المسلح بين الامبراطوريات ونهاية عصر دول المدينة من العراق وغرب الهضبة الايرانية شرقاً، الى جنوب هضبة الأناضول شمالاً ونزولاً حتى مصر جنوباً بما يشمل بلاد الشام وسواحلها، ولم يبق خارج هذه السيطرة المباشرة في قلب هذه المنطقة إلا شبه الجزيرة العربية وبادية الشام اللتان كانتا تعرفان باسم Arabia أي الأرض العربية.

ومع المنتصف الثاني للقرن الرابع قبل الميلاد، كانت الامبراطورية الفارسية قد وحدت كل هذه المنطقة تحت سلطانها واحتلت الأناضول بأسره، فقضت على دول المدينة الايونية (اليونانية) على الشواطىء الغربية والجنوبية لهذه الهضبة، وبدأت تمد نفوذها نحو البلقان، ما جعلها على تماس مباشر مع دول المدن (الهلينيية) اليونانية. وهذه التطورات المتلاحقة، كانت قد دفعت المدن الهلينية القديمة للحروب المتداخلة فيما بينها، في محاولة كل من هذه المدن لإنشاء دولة كبرى عن طريق السيطرة على المدن التي حولها. ولكن الطبيعة التضاريسية لشبه الجزيرة الهلينية وتعدد جزرها أفشلا هذه المحاولات (كمثل ساحل بلاد الشام) سيما وأنها في الوقت عينه كانت تخوض صراعاً مع دولة المدينة الكنعانية القوية في افريقيا (قرطاجة)، وكذلك مع دول المدن الناشئة في غربها (ايطاليا)، ولكن هذا التمدد للامبراطوريات الشرقية تجاهها، والخطر الداهم عليها، خلقا المناخ المناسب لقيام دولة قارية في البلقان أي في مقدونيا، فلم تستطع حرب اسبارطة مع الفرس (٣٩٩ ـ ٣٩٤ ق.م.) صد هذاالخطر؛ ولم تستطع الأحلاف بين دول المدن الهلينية بعد هذه الحرب تحقيق صد هذا الخطر الأمني.

وفي عام ٣٥٩ ق.م. وضع فيليب الثاني المقدوني (٣٥٩ ـ ٣٣٦) أسس قيام دولة قارية كبيرة ثم اغتيل ٣٣٦ ق.م. وتسلّم الحكم ابنه (الاسكندر الثاني الكبير (٣٣٦ ـ ٣٢٣ ق.م.). وفي عام ٣٣٣ ق.م. اجتاح الاسكندر الأكبر آسيا الصغرى ووصل الى ايسوس على ساحل خليج الاسكندرونة (حيث دعيت باسمه) (خليج الاسكندرونة) ووقعت معركته مع الامبراطورية الفارسية، بعد ان كان قبل ذلك قد وحّد اليونان تحت سلطته، وبذلك افتتح الصراع بين الشرق والغرب.

أما عصر دول المدن (التي كانت ما زالت موجودة في غربي المتوسط) فسيجد نهايته، بعد التشكل التدريجي للدول هناك في عام ٢٠٢ ق.م. بهزيمة هنيبعل وخضوع قرطاجة، وإرهاصات قيام الامبراطورية الرومانية.

وقد لعبت دول المدن الساحلية، بالإضافة لأدوارها الحضارية الأخرى، دوراً مهماً جداً في تطوير السفن والملاحة البحرية، ما سيدخل تغييراً كبيراً على التكتيكات العسكرية بقيام الأساطيل الحربية البحرية، وتحويل المدن الساحلية الى ثغور، ولكن ثابت الجغرافية سيبقى العامل الحاسم في تحولات التطورات التاريخية للاستراتيجيات العسكرية، فستلعب من الآن وصاعداً الثغور البحرية دوراً خطيراً في الاستراتيجيات العسكرية، من دون ان يغير ذلك الثوابت الجغرافية الراسخة.

وسيؤرخ عام ٣٣٢ ق.م لبداية مرحلة جديدة في الصراعات الدولية.

انفجار الصراع بين الشرق والغرب

«وحينما نزل الاسكندر في سوريا، نرى
اشارات تفيد ان العرب كانوا يحتلون
لبنان»[١].

رينيه ديسو

٣٣٤ ق.م - انتصر الاسكندر على الفرس في Granique (البوسفور) فسقطت آسيا الصغرى بيده.

٣٣٣ ق.م - وقعت معركة افسوس (على السهل الساحلي في خليج الاسكندرونة) هَزَمَ فيها الاسكندر الأكبر داريوس الثالث (كودومان) وانفتحت بذلك أمامه الطريق الى بلاد الشام، واغتيل داريوس الثالث على أثر هزيمته وفراره من المعركة، وتابع الاسكندر طريقه فاحتلّ ساحل الشام[١] ومصر، وتقع بيده صور وغزّه بعد حصارهما.

٣٣٢ ق.م - ينطلق الاسكندر من صور، ويعبر معبر مرجعيون، فيأخذها (صور) بعد حصار، ويتابع من هناك اجتياحه حتى شمال شرق ما بين النهرين.

فقد قررت معركة «افسوس» Ifsos مصير بلاد الشام ومصر، فانسحب الجيش الفارسي منهما بعد وصول الاسكندر من دون قتال الى معبر انطاكية، خوفاً من انسداد الطرق عليهم بعد احتلال معبر انطاكية ليتخذ خطاً دفاعياً جديداً في Gagomitex شمال اربيل، ما وراء النهرين، حيث تقع معركة جديدة تفتح طريقه الى وسط آسيا (عام ٣٣١ ق.م) وهناك يقضي نهائياً على الامبراطورية الفارسية فيصل من هناك الى الهند.

٣٢٤ ق.م - يحاول الاسكندر الأكبر بخلفياته الفلسفية والعسكرية والثقافية[٢]، إقامة

(١) «العرب قبل الاسلام» - لجنة التأليف والنشر - القاهرة ١٩٥٥. ص ١٤.

(٢) تتلمذ الاسكندر الأكبر على أرسطو، وكان يُظهر احتراماً لكافة العقائد، منهياً بذلك محدودية ايديولوجية دولة المدينة ممهداً لنظرة عالمية، وأعجب بـ «التوحيد» الشرقي، والسلطة المطلقة (خلافاً للديمقراطية اليونانية)، وبالمساواة الانسانية، وكان له تأثير فيما بعد على الفكر الديني.

امبراطورية من الفرس واليونان تتعدد فيها الأنظمة حسب مقتضيات كل منطقة، إنما يتوحد فيها الجيش والاقتصاد، ويصك عملة خاصة بهذه الامبراطورية، وينشىء ٧٠ مدينة كمراكز اتصال تجاري بناء على الجغرافية المستحدثة، ولكن الموت عاجله بعد عام واحد، فمات في ١٣ حزيران ٣٢٦ ق.م في بابل لإصابته بالحمى وهو في الثالثة والثلاثين من عمره.

وبعد موته تقوم حرب بين الطامعين بالعرش diadoque (٣٢٧ ـ ٢٨١ ق.م).

٣٠٣ ق.م. تنقسم امبراطورية الاسكندر بين قواده الثلاثة: بطليموس، وانتيجونوس، وسلوقوس.

١ ـ بطليموس يستقلّ بمصر وتدعى دولته دولة البطالمة.

٢ ـ وتبقى بلاد الشام (ما عدا باديتها) موحّدة مع الأناضول حتى شمال شرق العراق ويحكمها انتيجونوس Antigone.

٣ ـ أما بلاد فارس وحتى الحدود الشرقية للامبراطورية فيحكمها سلوقوس Selucos.

ولكن هذا التقسيم لم يلبِّ الحاجات الاستراتيجية والتجارية للملوك الجدد، فمملكة انتيجونوس تستأثر بالجزر اليونانية الجنوبية وجنوب اليونان والأناضول والشاطىء الشرقي للبحر المتوسط (ساحل بلاد الشام)، مما يجعلها تمسك بالمجال الحيوي التجاري للبحرية اليونانية والدولية القديمة وبالطرق البرية لهذه التجارة معاً، فتخنق الممالك الباقية وتهددها استراتيجياً وتتحكم بخيراتها، ما أجَّج الحروب بينها. وأسفرت هذه الحروب بعد معركتي ديمتريوس البحرية ٣٠٦ ق.م ومعركة افسوس البرية في الأناضول عام ٣٠١ الى استيلاء السلوقيين على القسم الشمالي لساحل بلاد الشام، ويستولي البطالمة على قسمه الجنوبي، وبخسارة مملكة انتيجونوس لساحل بلاد الشام، وهو موضوع النزاع، تفقد قدرتها على الاستمرار، فتسقط ويتم تقاسم ما بقي منها بين قوادها الى أربعة ممالك.

أمّا ساحل بلاد الشام، فهي مصدر الثروة والقوة للدولة التي تسيطر عليه.

عام ٣٠١.

١ ـ يصل السلوقيون الى المتوسط باحتلالهم لشمال الساحل السوري من الاسكندرونة وحتى نهر الكلب،

٢ ـ تتمدد دولة البطالمة شمالاً فتحتل جنوب ساحل الشام حتى حاجز نهر الكلب.

ولكن هذا الوضع المستجد يعطي امتيازاً للبطالمة بسيطرتهم على الموانىء الجنوبية بما فيها العقبة والطريق البرية: أنظر مقدمات هذا الفصل (الطريق الثالث) ما يبقي أسباب النزاع قائمة.

وقد استمرّ هذا التوازن حتى عام ٢٢٠ ق.م، ثم ما لبث ان اختلّ مجدداً بهجوم السلوقيين واحتلالهم لجنوب لبنان وفلسطين وشاطىء سيناء، حيث اصطدموا بالبطالمة في معركة لم تحسم لمصلحة أي من الطرفين في رفح، ولكنها أبقت ساحل لبنان وفلسطين وسيناء في قبضة السلوقيين، ما أعطى لهذه الدولة القدرة على الاستمرار حتى الاجتياح الروماني عام ٣٠ ق.م.

ولكن البطالمة طوّروا الاسكندرية، اعتماداً على الملاحة البحرية بتركيزهم على التجارة البحرية، التي كان قد بناها الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م، فغدت «أكبر ملتقى طرق في العالم».

ويمكن رسم الخطوط التجارية في هذه الفترة على الوجه التالي:

- انطاكية الميناء الرئيسي للسلوقيين على البحر المتوسط مع الغرب، ومنها تتجه القوافل البرية باتجاه جنوبي شرقي حتى تصل الى مدينة (سلوقيا) شمالي بابل على نهر دجلة، وتتفرع الطرق التجارية منها الى الصين (طريق الحرير) وإيران وشمال الهند، وخط آخر ينزل من سلوقيا بمحاذاة الشاطىء الشرقي للخليج العربي حتى عُمان، حيث تنقل من هناك البضاعة بحراً الى الهند ومنها.

- الاسكندرية «ملتقى طرق العالم» بتعبير ذلك الزمن، وينحدر منها خط تجاري حتى الصعيد، حيث يتفرع الى فرع يكمل جنوباً حتى النوبة وأطراف السودان وخط يتجه غرباً الى البحر الاحمر، وخط ثالث يجتاز سيناء الى شمالي العقبة حيث يمرّ بمدينة البتراء (الخط النبطي) ويتّجه جنوباً مخترقاً الحجاز وصولاً الى اليمن حيث تكمل الرحلة الى الهند بحراً. (وعلى هذا الخط نشأت مكة كمفصل لطرق تجارية).

ولا شك أن اتساع حجم الأصناف المتبادلة من عبيد الى سلع حيوانية ومعادن ومنتجات زراعية، كان السبب في تعدد الطرق وتشعبها وحجم التجارة المتزايد. ومما يشير الى الحجم الكبير لهذا التبادل التجاري، وإلى مركز هذاالتبادل، المدن الكثيرة التي تصكّ فيها العملة لتغطية حجم التبادل المتزايد. ونشير هنا الى أن كل مدن ساحل بلاد الشام الكنعانية (الفينيقية)، أصبحت مراكز تصكّ فيها العملة البطلمية، ما يدلّ على الحجم الكبير جداً للتبادل التجاري من خلالها[1]. كل ذلك

(١) انظر Atlas Historique - Librairie Stock, 1968, P.66.

آثار شهية القوة الرومانية المتنامية في غربي المتوسط، التي وضعت السيطرة التدريجية على الشرق نصب عينها.

المرحلة. الهيلينية

في مصر (٣٠٤ ـ ٣٠ ق.م) حكم البطالمة (بطليموس الأول مؤرخ وأحد قادة الاسكندر، أعطى اسمه لكل خلفائه) وقد تمّ في هذه الفترة تأسيس متحف الاسكندرية.

وجاهد خلفاؤه من السلوقيين للاستيلاء على سورية وفلسطين (طريق التجارة الدولية) ولكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بغيرمصر، ولكنهم نشّطوا التجارة البحرية بحيث أصبحت الاسكندرية (ملتقى طرق العالم). وقد أدى النزاع على الحكم وتزايد النفوذ الروماني الى سقوط الاسكندرية في ٣ آب عام ٣٠ ق.م. وأصبحت مصر مقاطعة رومانية.

أمّا في باقي المناطق الهلينية، فقد أدّت كذلك النزاعات المتوالية الى التآكل التدريجي للسلطة اليونانية لمصلحة روما. ولعلّ أهمّ ما يمكن تسجيله في هذه الحقبة فيما يتعلق ببحثنا، إنشاء المدن الهيلينيّة، وأهمها انطاكية (المعبر التجاري والعسكري) في شمال سورية، حيث ستتركز فيما بعد الكنيسة الاورثوذكسية.

وكذلك فإن ما حصل في عهد انطيوخوس الثالث (٢٢٣ ـ ١٨٧ ق.م.) الذي حقّق نجاحاً في السيطرة على سورية وفلسطين، الأمر الذي أثار نزاعات بينه وبين الرومان، وقد قاد هذا الحدث التغلغل التدريجي للرومان.

وفي عام ١٩٠ ق.م. وفي معركة Magnesie مانييزي، كرست هزيمة انطيوخوس بصلح أفاميا (Afamia)، وبدأت الامبراطورية السلوقية بالانحلال، لتحلّ محلّها بصورة متسارعة، السيطرة الرومانية.

وفي عام ٦٤ ق.م قضى بومباي (الروماني) على سيطرة السلوقيين، وبقيت المناطق مجزأة. بين القادة الرومان.

٧٧ ـ ٤٤ ق.م. حتى يتمّ توحيدها مجدداً بعد انتهاء الحرب الأهلية الرومانية الثانية عام ٣٠ ق.م. حين أعطى السناتو لأوكتافيوس لقب اغسطس وأصبحت مصر (بعد انتحار كليوباترا وأنطونيوس) ولاية رومانية.

ساحل بلاد الشام
في ظل الامبراطوريتين الرومانية والبيزنطية
٣٠ ق.م ـ ٦٣٨ م

«وفي العهد الروماني نجد الايتوريين يقيمون في لبنان الداخلي، وكانوا يعرفون تارة بأنهم عرب، وطوراً بأنهم سوريون»

رينيه داسو.

روما من ٣٠ ق.م حتى ٢٣٥ م

ـ عام ١٠٦ م الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧ م) يتجه من غزه نحو الجنوب الشرقي فيُسقط دولة الأنباط في شمال غرب شبه الجزيرة العربية ويستولي على عاصمتها البتراء (للسيطرة على طريق الحجاز التجاري).

عام ١١٥ ـ ١١٧ م ينطلق الامبراطور تراجان من انطاكية (شمال سوريا) ليحتلّ أرمينيا وبلاد ما بين النهرين (العراق) (١١٤ ـ ١١٧) من الامبراطورية الفارسية، فيصل الى الخليج العربي (يسيطر على مداخل الشرق البحرية (السويس والعقبة وما بين النهرين حتى الخليج ووادي النيل)، وتصل بذلك الامبراطورية الرومانية الى أقصى اتساعها.

والملاحظ أنه حتى هذا التاريخ، فإن كلمة Arabia العربية وفي كل الامبراطوريات المتلاحقة، أي الأراضي العربية، كانت تشمل بالإضافة الى شبه الجزيرة العربية، بادية الشام حتى أعلاها وغرب العراق، ما خلا تدمر الواقعة خارج الخط الممتد من البحر المتوسط الى شمال العراق، أي إن الامبراطورية لا تشمل إلا المسالك التجارية والمدى الأمني حولها.

(١١٧ ـ ١٣٨ م) يتولى الحكم الامبراطور هادريان، فيعيد الى الامبراطورية الفارسية بعض الأراضي التي استولى عليها تراجان فيما بين النهرين ليوقّع سلماً مع الفرس. ويحصّن حدوده الجديدة على الفرات بالقلاع ويعيد بناء أورشليم تحت اسم[1] "Colonie Aelea capitoline" «حاضرة

(١) هنا لا بد من ملاحظة ان كلمة Capital بالفرنسية تعني عاصمة او رئيسة أو رأس مال.

مستعمرة ايلياء» وهو الاسم الذي أعطى بموجبه عمر بن الخطاب الأمان لأهلها (ايلياء).

١٣٢ - ١٣٥ م - ثورة اليهود بقيادة بركشيبا Bar kéchéba، يقضي عليها الامبراطور الروماني هادريان ويستعيد أورشليم.

١٦٢ - ١٦٥ م - ماركوس اوريليوس (الامبراطور) يحارب الفرس الذين استعادوا أرمينيا وكبادوكيا، وساحل بلاد الشام، وينتصر عليهم في دورا اوروبس Dura Europus عام ١٦٣ (شمال سوريا) ويعيد احتلال ما بين النهرين وبلاد أخرى.

٢٧٢ م - اورليان يقضي على مملكة زنوبيا في تدمر، بعد محاولتها الاستقلال لتعاظم ثروتها، ليضع يده على مكاسب التجارة التي تمرّ بها، بعد أن كان هادريان قد تخلّى عن مسلك ما بين النهرين التجاري، وعن معظم أنحاء سورية.

اشتهرت الامبراطورية الرومانية بما عرف بـ "pax Romana" الأمن الروماني، ففرضت الأمن والسلام على الأراضي التي كانت تسيطر عليها، ومن ضمنها ساحل بلاد الشام، بفضل الطرق التي أنشأتها وربطت بها كامل أرجاء الامبراطورية، فلم يشهد ساحل بلاد الشام، وهو المنطقة الأمنية والتجارية البالغة الأهمية، أحداثاً لها أهمية استراتيجية، ولكنها (الامبراطورية) كانت تتعرض على أطرافها لضغوط عسكرية متواصلة على امتداد حدودها، سيما الشمالية والشرقية منها، ما أدّى وببطء الى:

أزمة الامبراطورية الرومانية، ما بعد ٢٣٥ م.

في القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد، بدأت «أزمة العالم القديم»، فقد بدأ الضغط على حدود الامبراطورية الرومانية من الخيّالة الجرمان والسارمات Sarmates، ومن الفرس «والبرابرة» والمور Maures، وتهددت التجارة الداخلية بالعصابات المسلحة، فاختفت «الدول» التابعة، وغدا تحويل الولايات الى دول مغايرة أمراً لا غنى عنه. أما أقوى الخصوم، فكان امبراطورية الفرس الساسانيين، بالإضافة الى تحلل وحدة مجتمع الامبراطورية الداخلي بحكم سقوط ايديولوجيتها القديمة بفعل انتشار المسيحية، والمقاومة العاتية لها من قبل الدولة، والاضطهاد الذي مارسته لأتباع العقيدة الجديدة، ما أدى الى تفكّك وَصَلَ حتى الى داخل أجهزة الحكم، بالإضافة للتفكّك العامّ للبنية الاجتماعية والانقسام العمودي لهذه البنية، وما نتج عنه من ثورات وضغط أمني داخلي. ونتيجة لكل ذلك، شهدت الامبراطورية الرومانية تطوّرات وأحداثاً بالغة الأهمية، جرت على مراحل، أبرزها:

(٣٢٣ ـ ٣٣٧) وهي فترة حكم قسطنطين الأول الكبير، الذي أسس مدينة القسطنطينية (اسلامبول (اسطمبول) فيما بعد) ٣٣٠ م. التي أصبحت فيما بعد عاصمة الامبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية)، أي قسمَّ الامبراطورية الى قسمين قاعدتاهما روما والقسطنطينية، كي تستطيع كل منهما مواجهة تحديات اقليمها، واعتنق المسيحية واعترفت الامبراطورية رسمياً بالدين الجديد، كي يخفف من حدة الانقسام الاجتماعي الداخلي.

ففي القرنين الثالث والرابع بدأ الفرس بشنّ حملات متواصلة على العراق وداخل بلاد الشام وأرمينية.

٣٨٤م ـ وأدت هذه التطورات لانفصال هذه المناطق عن الامبراطورية الرومانية وخضوعها للفرس عام ٣٨٤[١].

أمّا ساحل بلاد الشام ذو الأهمية التجارية والأمنية، فقد استطاعت الامبراطورية الرومانية الاحتفاظ به، وبذلك استطاعت الاحتفاظ بسيطرتها على مصر. حتى نهاية القرن السادس وبدايات السابع.

٥٩٠ ـ ٦٢٨م ـ وهي فترة حكم كسرى الثاني بارويز، نشبت خلالها الحرب مجدداً بين الامبراطوريتين، ووصل اندفاع الفرس الى مصر بعد احتلالها بلاد الشام.

٦١١م ـ في هذا العام، استولى الفرس على انطاكية من البيزنطيين، ما أدى الى السقوط الاستراتيجي لأمن بلاد الشام ومصر، وما لبث الفرس ان استولوا على دمشق، ثم على (ايليا) بيت المقدس ونهبوا بقايا الصليب المقدس، ودمروا القدس وأحرقوها، واشترك اليهود مع الفرس في مذابح ارتكبت ضد المسيحيين استمرت ثلاثة أيام، ودمّروا عديداً من الكنائس والأديرة والمناسك، وحملوا بطريرك بيت المقدس بين الأسرى الى عاصمتهم (ctésophome) المدائن. وقد أدى ما أصاب القدس وفلسطين عامّة من خراب ودمار، الى زوال ما كان لبيزنطة من الهيبة في نفوس العرب في فلسطين وبلاد الشام والجزيرة، فاكتمل الاستعداد النفسي لتوحّدهم ولخلاصهم من الحكم الأجنبي الذي غدا عاجزاً عن حماية مقدّساتهم، فضلاً عن اضطهاده لفئات

---

(١) وذلك بموجب معاهدة صلح دائم وصداقة بين الامبراطورية الرومانية وشهبور الثالث الساساني.

كثيرة منهم[1]. (وكان المسيحيون العرب النصارى من نساطرة ومونوفيزيين وموارنة وغيرهم ممن لا يدينون بمذهب الدولة (الارثوذكسي) قد تعرضوا قبل ذلك لاضطهاد شديد). ولعل هذا الحدث (بالإضافة للأسباب التي سنذكرها فيما بعد) كان سبباً سياسياً ـ معتقدياً لكون القدس «أولى القبلتين»، علماً أن الدعوة الاسلامية بدأت عام ٦١٠ م، واستمرت القدس قبلة بالنسبة للمسلمين الى ما بعد الهجرة (عام ٦٢٢) حيث حوّلت لأسباب سياسية ـ اقتصادية ـ معتقدية القبلة الى مكة.

٦١٩ م ـ استولى الفرس على الاسكندرية، ثم سقطت مصر بأسرها في يدهم، ولكن هذا الغزو تراجع بسرعة فائقة، اذ ان هرقل تابع حربه ضد الفرس على جميع الجبهات، ففي:

٦٢٨ م ـ وصل هرقل الى دستاجرد (مقر ملك الفرس)، ما أجبر كسرى على عقد صلح مع بيزنطة، فعزله الفرس وقتلوه، وتولّى ابنه (قباذ شيرويه) فأبرم «سلاماً أبدياً» مع بيزنطة ردّ بموجبه جميع الأراضي التي خسرتها عام ٦١٩، بما فيها الجزيرة وبلاد الشام ومصر، بالإضافة الى أرمينيا، كما ردّ لها كل الرموز المقدسة التي استولى عليها الفرس من القدس، فأعادها هرقل شخصياً برفقة زوجته الى القدس عام ٦٣٠ م باحتفال مهيب.

ضعفُ الامبراطوريتين نتيجة تفكك أوضاعهما الداخلية وصراعهما الضاري، وتوق السكان الاصليين (العرب) في العراق والجزيرة وبلاد الشام ومصر الى التحرر من ربقة الحكم الأجنبي، وقيام الدعوة الاسلامية في شبه الجزيرة العربية، التي بشّرت بثورة اجتماعية كان العالم القديم قد بدأ يتوق اليها منذ انتشار المسيحية ودعوتها للمساواة بين البشر[2] الذي تحول الى نظام (الموالي) ودعوتها الانسانية لعدم التفرقة بين العناصر «لا فضل للعربي على أعجمي الا بالتقوى» واحترام العقيدة الجديدة للديانات (السماوية) «أهل الكتاب» وتقديسه لممثليها (موسى والسيد المسيح)؛ كل ذلك أدى الى نجاح الفتح العربي ـ الإسلامي الذي اقتصرت مقاومته على القوات البيزنطية والفارسية (الأجنبية)، (بعد ان انضمّ العرب

(١) انظر: د. السيد الباد العريني ـ الدولة البيزنطية ـ دار النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٦٥ (ص ١١٨ ـ ١١٩) وكذلك vaséliev ص ١٩٥.

(٢) أنظر الآيات القرآنية في ثواب من «يعتق رقبة».

والمسيحيون منهم الى «اخوتهم وأبناء جلدتهم» حسب تعبير جبلة بن الايهم الغساني) آي بعد انضمام المناذرة والغساسنة وقبائل أخرى من المسيحيين الى حركة التحرر العربية تلك، ومن هؤلاء من اعتنق الإسلام، ومنهم من بقي على دينه[1].

لقد كان الإسلام «رسالة العروبة» في زمنه، بعد المسيحية، ومكملاً لها[2]، وكان حركة تحرر عربية «أنا أنزلناه قرآناً عربياً» فبدأت به مرحلة حضارية جديدة في تاريخ الانسانية، حوّلت مسرى الحضارة، وإن كان عالم اليوم وبعد الف واربعماية عام يحتاج الى مرحلة نظرية جديدة، لتخليص العالم من التحالف الاستعماري الصهيوني، ويضع تسوية بين المنجز المادي للحضارة والوضع الإنساني، كما يوجد تسوية بين التراث الايماني للأمة والعالم وبين الالحاد (الشيوعي)[3]، ولست آرى غير العرب (وهم قلب العالم القديم والحديث ومركز تفاعله الحضاري) قادرين اليوم على تحقيق هذه الرسالة.

---

(١) أنظر: الأب بطرس ضو - تاريخ الموارنة دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٠ صفحات: ٢٢٦ - ٢٢٧ و٤٠٦.

(٢) بعد الرسالتين الابراهيمية والموسوية في العهد القديم أي في مسرى التطور الحضاري، وليس بمدلوله التوراتي الديني.

(٣) أنظر كتابنا «الانسان والحضارة - جدلية المادة والوعي».

في أزمة النظام العبودي
و
الظروف الممهدة لانتشار الإسلام

كنا قد استعرضنا الحالة السياسية الممهّدة لظهور الإسلام والصراعات بين بيزنطية والفرس التي أنهكت الطرفين، وأزّمت بلا شك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للامبراطوريتين، فأسقطت الولاء لهما؛ ومن البديهي ان تنعكس هذه الأزمة على الشعوب المحكومة أكثر مما تصيب الشعوب الحاكمة، أي تنعكس على أطراف الامبراطوريتين أكثر من انعكاسها على المركز، أي كانت الايديولوجية القديمة كلها في أزمة حادّة كانعكاس للظروف الاقتصادية والسياسية على الوعي البشري.

الأوضاع في شبه الجزيرة العربية

كان الاعرابي، كما يصفه المؤرخون، يصنع تماثيل آلهته من التمر ويأكلها إذا جاع، والعادات والتقاليد قد شاخت وغدت التناقضات تستفزّ كل المشاعر الانسانية، ومحيط شبه الجزيرة الحيوي قد ضاق بقاطنيه فكثرت الغزوات والحروب والمجاعات والمآسي الانسانية، وأتت حرب الفجار كشكل من أشكال تفجّرات الأزمة[1]، فزادت من المآسي الاقتصادية والاجتماعية، وراح ضيق ينيخ على صدور الناس، وجشع التجار (حتى فساد المكاييل، والارباح غير المشروعة) بلغ حداً لا يطاق، والنشاط التجاري أوجد طبقية حادّة، والمشردون واليتامى وأبناء السبيل كثر لا يجدون من يخفف من معاناتهم، والإملاق دفع بعض الناس للاحتباس حتى الموت جوعاً، وإلى وأد البنات، ووضع المرأة في المجتمع (وهذا عامل هام)

---

(١) القادة العسكريون الكبار في الفتح العربي الاسلامي تخرجوا جميعهم من حرب الفجار. أنظر: نصر شمالي والفريق عفيف البزري «العرب إنهاء عصر الرق وتوحيد العالم» دار المستقبل، ١٩٨٩.

أصبح لا يطاق[١]، من حيث امتهان كرامتها بالوأد والسبي والاعتداء والاغتصاب والنكاح النفعي لسد الرمق والاستعباد وما لا حصر له من الزيجات (الموقتة) سيما وأن عدد النساء يفوق عدد الرجال بكثير لكثرة القتل والغزوات والحروب، ما جعل المرأة سلعة رخيصة في بحثها عن الحماية والمأوى، وكذلك بلغت الأحقاد القبلية ذروتها نتيجة التطاحن على الموارد الشحيحة، والمنبوذون من المجتمع يعكّرون الأمن في كل مكان، والعبيد يُضطهدون ويعانون من وضع انساني مرير (وهم قلة ضئيلة).

هذا الواقع المزري أوجد هوّة سحيقة بين الواقع المعاش، وبين مثل الاعرابي في الشرف والكرامة، والجود والإغاثة والإجارة، والعفاف الخ... التي عبر عنها تعبيراً واضحاً الشعر الجاهلي. إذاً، كان المجتمع مأزوماً للغاية ويتوق الى حلول، سيما وان انفة الأعراب واجراءات الامبراطوريتين المجاورتين التي تحول دون توسعهم الجغرافي إلا بخضوعهم لشروط العيش في المجتمع العبودي الذي يحتقرونه (الاحتقار المتبادل بين المضر والحضر)، كل ذلك كان يدفعهم للاستماتة في دعم حلّ ينهي أزمتهم ويحفظ كرامتهم، ما جعلهم بحالة استعداد نفسي كامل لتقبل الرسالة.

الوضع في العراق وبلاد الشام ومصر

أمّا الوضع فيما يحيط بشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام، فلم يكن أقلّ تأزّماً، فالعرب الذين نزحوا على المدى التاريخي للهجرات من شبه الجزيرة واستوطنوا حولها، كانوا قد رفضوا النظام العبودي بكل أبعاده والسلطة الأجنبية التي تمثله[٢]، قبل ذلك بستة قرون، فاعتنقوا دعوة السيد المسيح، وجسدوها بكنائسهم القديمة عقائدياً واجتماعياً أحسن تجسيد وأنقاه[٣]، كرسالة انبثقت من قلب مجتمعهم فجسّدت روحه وطموحاته، والتزم مثلها وتحمّل على مدى ثلاثة قرون بإيمان وضحايا بشرية، ومجازر ارتكبها حكامهم الغرباء، فغدا المسيحيون طعمة للضواري وذهبوا طعمة للنار هم والصلبان التي عذبوا وقتلوا عليها، بما يشبه الإبادة

---

(١) ما تحرمه سورة «النساء» في القرآن الكريم دليل على ما كان سائداً قبل، وما تشرعه دليل على النقلة الثورية لوضع المرأة في حينه.

(٢) فالرومان (والبيزنيطون) لم يكونوا سوى طبقة عسكرية حاكمة وكذلك اليونان قبلهم، ولم تفقد الشعوب بوجودهم هويتها الثقافية التاريخية ولا لغتها أو لهجاتها القديمة.

(٣) أقامت الكنيسة المسيحية الشرقية (المجتمع المشاعي الأول)، مجتمعاً مشاعياً بتسليم كل الانتاج للكنيسة لكي تعيد توزيعه بالتساوي بين المؤمنين.

الجماعية قبل ان يهتز ضمير المجتمع الوثني الغربي، فيضطر قسطنطين الأول الى الاقرار بالدين الجديد كأحد أديان الدولة، ثم يعتنق المسيحية بتأثير من أمه المسيحية. حين مرض مرض الموت ٣٣٦م.

ومع اعتناق الدولة للمسيحية، اتَّحدَتْ في شخص الامبراطور رئاستا الدولة والكنيسة، وقام نظام هجين، تجلّى في تبني الدولة ظاهر العقيدة وإغفال مضمونها، تبنت لاهوتها وأسقطت أهدافها الاجتماعية، فلم تتسلم المسيحيةُ السلطة، إنما تسلّمت السلطةُ المسيحية، لذا لم تحمل السلطة حركة التغيير، إنما استوعبتها تمهيداً لابتلاعها وتحويل مسارها، وتحوير أهدافها، فقد أجهضت الدولة حركة «الثورة» المسيحية الاجتماعية، بعدم إسقاطها لعصر العبودية وتحقيق المساواة بين الناس، وأجضهت حركة التغيير الاقتصادية بموقفها ذاك كذلك.

فبعد تسلم قسطنطين الكبير السلطة (٣٢٣ ـ ٣٣٧)، ولم يكن بعد مسيحياً، دعا الى المجمع المسكوني الاول في «نيقية» عام ٣٢٥ وتدخّل في قرارات المؤتمر، وكان هذا آول «المجامع المسكونية التي تتولى تقرير ما تجري عليه الكنيسة المسيحية من عقيدة ونظام»[١] والذي أدان مذهب اريوس الاسكندري، وكان آريوس ينفي الصفة الالهية للسيد المسيح ويقول انه مخلوق، وكان أخصامه الرئيسيون آساقفة غربيين، وأيد هذا القرار مجمع القسطنطينية عام ٣٨١. «ومن ثم أخذت العقيدة الدينية تتخذ صورتها وشكلها[٢]» ، وبذلك انفصلت المسيحية عن جذورها الثقافية الشرقية أي عن مذهب التوحيد الابراهيمي، إذ وقع الحَرم على اريوس.

وإذا ما أخذنا بالاعتبار، الدراسات المسيحية «النصية»، التي تقول إن عيسى ابن مريم ويسوع الناصري هما شخصيتان تاريخيتان مختلفتان تجمع بينهما وحدة المطلب، وإن التباساً نصياً وحَّد الشخصيتين، وإن أولهما سبق الثاني بعدة قرون وكان مكان ولادته ودعوته بلاد الحجاز[٣] (والأول لم يصلب)، يمكن ان نفهم، الممهِّدات الثقافية لموقف الاسلام والمذاهب الاسلامية، من قضية الصلب وطبيعة السيد المسيح، حيث إن الثقافة الابراهيمية التوحيدية التي كانت في أصل المسيحية والاسلام، كانت ما زات سائدة في شبه الجزيرة العربية، الخارجة عن

(١) د. السيد الباز العريني ـ الدولة البيزنطية ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٥. ص ٣٢، عن Ostrogorrowiski, p. 44.

(٢) المصدر السابق نفسه، صفحة ٢.

(٣) أنظر: كمال الصليبي «البحث عن يسوع ـ قراءة جديدة في الأناجيل» ـ دار الشروق للنشر والتوزيع ـ رام الله ١٩٩٩.

نطاق سلطة الامبراطورية وعقائد كنائسها وكذلك مناذرة العراق. ويمكن أن نفهم كذلك تكامل الدعوات الثلاث في مسرى التطور الحضاري الانساني، وارتباطها، بإعادتها الى جذرها الثقافي الشرقي الواحد(١).

وبعد هذا الاستطراد، الذي كانت الغاية منه، إلقاء الضوء على الجو الثقافي العامّ لدى العرب وفي الشرق والممهِّد لظهور الإسلام، نعود لموضوعنا، بأن المسيحيين العرب في العراق وبلاد الشام ومصر، الذين كانوا يعانون على مدى القرون الثلاثة الأولى من ظهور المسيحية اضطهاداً قل نظيره ونظير التصدي الصبور له في التاريخ، لم يجدوا في مطلع القرن السابع، ولم تحمل ذاكرتهم الا استمراراً لاضطهاد هذه الامبراطورية بعد اعتناقها المسيحية لهم، بسبب انتمائهم المذهبي والايديولوجي المسيحي المخالف لمذهب الدولة التي بقيت غريبة على ثقافتهم رغم اعتناقها لدينهم، ولم يقتصر اضطهادها على الاريوسيين بل شمل كل الكنائس التي تعارض مذهب الدولة، لإرغامهم على التخلّي عن عقيدتهم، ونخص بالذكر الكنيسة المارونية لارتباطها المباشر بموضوعنا «تاريخ ساحل بلاد الشام»؛ فبعد مذبحة عام ٥١٧ والتي استشهد فيها ثلاثماية وخمسون راهباً مارونياً «ضحية المجمع الخلقيدوني»(٢) نشأت في لاوعي «الكنيسة المارونية» عقدة الاضطهاد(٣)، التي سيكون لها تأثيرها على تاريخ ساحل بلاد الشام حتى يومنا هذا(٤). أي وباختصار فإن مسيحيي الشرق كانوا يعانون الاضطهاد المتواصل في ظل الامبراطورية البيزنطية، وفي حالة إحباط، نتيجة سيطرة الدولة على العقيدة، وتحويلها من حركة ثورة وتغيير اجتماعي ـ اقتصادي موعود على الأرض، الى «يوتوبيا» إيمانية ماورائية، وستتحول صورة السيد المسيح من ثائر يحمل السوط على تجار الهيكل ويدافع عن الحق «جئت لألقي سيفاً لا لألقي سلاماً» الى صورة رجل يدير للظالم الخد الأيسر إذا ما لطمه على الأيمن طمعاً بوعد الآخرة(٥).

كل هذا بالإضافة الى الأزمة القاتلة التي يعاني منها النظام العبودي (الذي لم

(١) حول هذا الموضوع أنظر كتابنا «الانسان والحضارة».

(٢) تاريخ الموارنة ـ الأب بطرس ضو ـ دار النهار ـ بيروت ١٩٧٠ ـ ج ١ ص ١٧٠.

(٣) يصف احسان مَرّاش عقدة الاضطهاد بأنها تنشىء علاقات بين طرفين لا تسمح إلا بأن يكون «مضطهداً او مُضطهَداً». الحياة الجديدة ـ دار الطليعة ١٩٧٢.

(٤) هذه العقدة التي تحملها الكنيسة المارونية (اللبنانية) وستنقلها الى بعض من أتباعها، سيكون لها تأثيرها على مدى التاريخ السياسي لساحل بلاد الشام، بتداخلها مع الشؤون والظروف التاريخية، على وحدة المجتمع وهويته (وسنبحث هذا الأمر في فصل «المسألة اللبنانية» في الكتاب الثاني.

(٥) أنظر: «المسيح ليس مسيحياً» جورج برناردشو.. ترجمة جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ـ بيروت. وكذلك: رشيد سليم الخوري «الشاعر القروي» قصيدة «سلطان الاطرش والتتك».

تسقطه المسيحية إذ أجهضتها الدولة إنما خفّفت من غلوائه) جعل مسيحيي الشرق، أي عرب بلاد الشام والعراق ومصر، يتوقون توقاً عميقاً للخلاص من الدولة البيزنطية من ناحية، ومن ناحية أخرى وكما أوضحنا فيما سبق، فقد وجد بعض هؤلاء المسيحيين، والذين يحفظون في ثقافتهم الحضرية الارث الثقافي الشرقي (دولتي الغساسنة والمناذرة المسيحيتين) في الاسلام حركة مكملة للرسالات السماوية، فاعتنق بعضهم الدين الجديد، وبقي عرب آخرون على مسيحيتهم، حيث رأوا أن الدين الجديد يحترم مقدساتهم ولا يرغمهم على دينهم ولا يتدخل بمذاهبهم وعقائدهم، وإن يكن يحمل إرثاً ثقافياً حول المسيحية يميل الى مذاهب دون أخرى.

الاسلام دين ودولة

الدين في الاسلام، هو الشريعة التوحيدية الجديدة التي لا تنفي الشرائع القديمة، إنما تكملها، فتجد لذلك في حينها تعاطفاً نحوها من ثقافة عامّة تجد مدى لها في المجتمع العربي في بداية القرن السابع، فهي لا تنفي التراث،. إنما تكمله وتتفاعل مع الواقع القائم فتغير ما يمكن تغييره (ولو تدريجياً عن طريق الآيات الناسخة والمنسوخة) وتبقي منه على ما لا يمكن تغييره، وتعيد صياغة الواقع بمفهوم جديد متكامل لصياغة المستقبل، وتصوغ مفهوماً جديداً لعلاقة الانسان بالكون والطبيعة والمجتمع، فتعيد انسان عصرها (وهي عقيدة عربية وعالمية في آن) الى مسرى التاريخ، بعد ان تحل التناقضات في داخل الانسان وفي المجتمع التي تشل عطاءه الانساني، على ضوء تطور المنجز المادي للعصر، فتعيد بذلك التوازن بين المنجز المادي للحضارة والوضع الانساني[1]، وتبدأ بانتشارها دورةً حضارية جديدة، وهي بذلك تتمتع بكامل مواصفات كلمة «الثورة» بمعناها الحضاري، ولذا يمكن تسمية حركة الاسلام في مسار تطور الحضارة بتعبير «الثورة الاسلامية».

الدولة في الإسلام

التشريعات المختلفة تنبع من وحي العقيدة لتحل المشاكل الحياتية والتنظيمية يوماً بيوم وفق المسائل المطروحة والطارئة، فتؤلِّف بين القلوب المتنافرة وتنسج وحدة المجتمع. وبدأ تجسد الدولة في مجتمع صغير من المؤمنين يتنامى فيعزز

---

(١) للتوسع بهذا الموضوع أنظر: «الثورة والثوري وشروطهما» عبد المجيد عبد الملك ـ مجلة المنابر العدد ٢٤ ـ ١٩٨٨ وللاضطلاع على النظرية كاملة أنظر كتابنا «الانسان والحضارة ـ جدلية المادة والوعي».

أمل المستضعفين بمستقبل مشرق، ويتعزز ذلك كله بصدقية الرعيل الأول، وهي سمة عامّة تحكم كل الحركات الثورية، إذ يكون هذا الرعيل الأكثر مثالية والأشد صدقية في الاخلاص لمبادئها.

هذا النموذج المصغر للعالم الجديد، يستهوي عقول الناس ويريح قلوبهم بعد دفعهم الى إعادة نظر عميقة في أحوالهم السائدة، وهذا حال مجتمع الصحابة بكل تمظهراته الاجتماعية والاقتصادية العادلة، وبسدّه لفراغ روحي وحلّه لتناقض عقلي بين الواقع والمثل، فيفجر طاقات الإبداع بكل صورها، ويحفز على الاستبسال حتى الشهادة لترسيخ هذا النموذج وتعميمه، فتسير الدعوة بعد انطلاقتها الأولى سيرة نار في هشيم تؤججها عبقرية النبي وصحابته.

ولكن الدولة ليست مسألة نظرية وحسب، إذ إنّ قيامها يحتاج الى رقعة أرض وإلى تمويل وسياسة، والنبي مارس التجارة لزمن طويل، واستوعب في أسفاره كلّ ما رآه، وأدرك أسس قيام الدولة وأسباب قدرتها، وأدرك أزمة مجتمعه ومحيطه، والأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المختلفة والعقائد السائدة ومشكلاتها التاريخية، فكانت لديه شمولية في النظر الى مختلف وجوه أزمة العقيدة والمجتمع.

أمّا التمويل الأول للمجتمع النموذج، فكان عن طريق الغزوات على مصادر الثروة، فلم تعد الغزوات على القبائل، إنما أصبحت على قوافل التجارة والمدن التجارية. أمّا الغزوات، وان كانت تصلح لتمويل نموذج اجتماعي مزمع إنشاؤه، فالدولة تحتاج الى موارد ثابتة وشرعية.

وللقدس ثلاث ميزات: ميزة روحية تاريخية تشير الى معنى التواصل في الدعوة، ما يلبي المتطلبات الروحية لـ «يوتوبيا» العدالة، وميزة اقتصادية تاريخية (أوضحناها فيما سبق) بكونها أهم مفصل تجاري في مشرق المتوسط، فيمكن بذلك ان تشكل القاعدة الاقتصادية للدولة المزمع انشاؤها، وميزة استراتيجية يدل عليها صراع الامبراطوريات السابقة والمعاصرة.

لقد انطلقت الدعوة عام ١٦١٠، فكان الهدف الاستراتيجي الذي يلخص كل اتجاهاتها، مدينة القدس فكانت القدس القبلة الأولى، سيما وان مكة[1]، هي كما سبق وذكرنا، المفصل التجاري الثاني المهم بالنسبة لتجارة الاعراب، والتي تتجمع

---

(١) أنظر P.H. Lammans la Mecque à la veille de l'hegire librairie catholique Beirouth (Syrie) 1924.

فيها ثروات شبه الجزيرة العربية كانت منطلق الدعوة، والعمل على السيطرة عليها جرى بشكل دؤوب، وان كانت دونه مصاعب جمّة، انما كانت في المرحلة الاولى من الدعوة بمثابة «بمتناول اليد».

ولكن، وبعد السنة الأولى للدعوة يطرأ حدث جسيم على المنطقة.

ففي عام ٦١١ تجتاح الامبراطورية الفارسية المنطقة فتسيطر على كل المعابر التجارية في بلاد الشام ومصر بسرعة فائقة، والدعوة ما زالت في مطلعها ولا تملك أدنى الامكانات لتحقيق هدفها الاستراتيجي بالوصول الى القدس والسيطرة عليها سيما أمام هذه القوة الجديدة الطاغية، فالانتقال لتحقيق الهدف الستراتيجي العسكري والسياسي ما زال أمراً مستبعداً للغاية، ذلك الوجه السلبي للحدث؛ أمّا وجهه الايجابي على مسيرة الأحداث فبرز من كون الفرس (الوثنيين) نكلوا بالمسيحيين وبالقدس وحتى أنهم نهبوا رموز الصليب المقدس، والنقمة الشعبية على الفرس عميقة وإرادة الخلاص منهم زاخرة، وكذلك فقد أضاف هذا الحدث سبباً جديداً للنقمة على الدولة البيزنطية وهو عجزها عن حماية ممتلكاتها ورعاياها وحتى عن الدفاع عن مقدساتهم ومعتقداتهم؛ إنها يقظة عربية وتوق للخلاص من الامبراطوريتين معاً. فليس ثمة من داعٍ لتغيير الهدف الاستراتيجي الرامي الى اقامة الدولة العربية الاسلامية، فأسباب التركيز على القدس كهدف استراتيجي تعاظم ولم يتناقص، وارتبطت القدس بشكل عميق بتحقيق مرامي الدعوة وإنجاحها.

وبدأت الدعوة تتنامى في أنحاء الجزيرة، سيما في المراكز التجارية الهامّة كاليمن وغيرها، فدعاة يطوفون مبشرين، ووفود تأتي مستطلعة، بالإضافة لقوافل التجار الذين تغصّ بهم أسواق مكة وشعابها، وتجمّع قوم ممن تلقوا الدعوة في مكة حول النبي فسموا الصحابة وأقام النبي تحالفات كان أهمها مع أهل يثرب فسموا الأنصار.

هذه الحركة في قلب شبه الجزيرة لم تثر في البدء حتى مخاوف قريش، ولكن تعاظم الدعوة جعل قريشاً تحسّ بخطر داهم فاضطهدت أتباع النبي وحاولت اغتياله، فكان خروج النبي بعد خروج الصحابة الى يثرب التي استقبلته بالترحاب والغناء والزغاريد وسميت «المدينة المنورة» عام ٦٢٢م.

كان الفرس ما زالوا في بلاد الشام ومصر، وكانوا ما يزالون في القدس، ولكن

عملية إخراج النبي من مكة، جعلت الأولوية في التوجه الى مكة لإقامة دولة الاسلام، بقاعدتها الاقتصادية والاجتماعية بعيداً عن سلطة الامبراطورية الفارسية من ناحية، ولتأمين قاعدة اقتصادية للدولة المزمع انشاؤها من ناحية ثانية، ولبسط سلطة الدولة المزمع إقامتها على أنحاء الجزيرة لتجييش عربها للمهمة الكبرى. ولكن الهجرة، بالإضافة الى ما يستلزمه نشر الدعوة وتأسيس المجتمع الاسلامي من مصاريف، دفعت الرسول الى القيام بغزوات ليس بقصد الفتح وإنما بقصد تمويل وتجهيز القوة اللازمة للاستيلاء على مكة كمرحلة أولى وغدت مكة قبلة المسلمين بعد القدس.

وبعد ان كانت الغزوات على القوافل التجارية، تحولت الى غزوات على الحواضر التجارية، ومنها خيبر، حيث الرأسمالية التجارية الربوية، وغزوة مؤتة.

وبعد ثمان سنوات من الهجرة الى المدينة يعود النبي فيدخل مكة سلماً مظفراً ليصبح سيدها.

الفصل الثالث

الفتح العربي - الإسلامي

أو

حركة التحرر العربي ونشوء القومية العربية

٦٣٦ م - ٨٣٣ م

الفتح العربي ـ الإسلامي
أو
حركة التحرر العربي ونشوء القومية العربية

كمثل عادة الأمم المغلوبة بالانبهار بحضارة الأمم الغالبة وتلقف ثقافتها وحضارتها، ومحاولة تقليدها واستلهام مصادر تفوقها، انبهرت أمتنا العربية بالحضارة الغربية، بعدما انهزمت في أول مواجهة مباشرة معها، بعد انقطاع طويل عن الاحتكاك بها[١]، حين غزا نابليون الأول مصر (١٧٩٨)، فأدى ذلك الى بدايات تفتّح الوعي العربي لحالة تخلّفه والبحث عن أسبابها.

ولكن ما يهمّنا في هذا السياق، أنّ الفكر العربي العلماني (لأن الفكر الديني لم يهتم بهذا الامر)، تلقف مقولات الحضارة الغربية بكل وجوهها من دون تمحيص ودراسة لمدى انطباق بعض مقولاتها على واقعنا، وساهمت مؤامرة الغرب على ثقافتنا بترسيخ هذا النهج، لأن الغرب الاستعماري يدرك ان وراء أيّ حضارة وأي عمل ذهنيّ وفعل في الواقع ايديولوجية تحفزه وتحركه، فلذا كرّس كل جهوده، وبمختلف السبل لتضليل اتجاهنا في مجال العلوم الانسانية، حيث انه من خلال هذه العلوم، يمكن ان ندرك مكامن البنية الايديولوجية للتخلف، لهدمها، وإقامة بنية ايديولوجية علمية للنهضة (سيما ان عصر النبوات الذي قامت عليه كل حضاراتنا القديمة قد انقضى) ونحن في عصر العلم. فالحقائق الاجتماعية ترتبط بظروف الزمان والمكان، خلافاً للعلوم الطبيعية والرياضية. وقد ناقشت هذا الامر في كتابي، «الانسان والحضارة ـ جدلية المادة والوعي»[٢].

---

(١) سنوضح هذا الأمر بالتفصيل حينما نتكلم عن مغزى سقوط غرناطة (١٤٩٢) والقسطنطينية (١٤٥٣) وسقوطهما المتزامن، وعن سبب اختيارنا لعام ١٤٩٢ كمفصل في التاريخ السياسي العالمي، وعلاقة ذلك بالمعارف الجغرافية التي بدلت لثلاثة قرون (١٤٩٢ ـ ١٧٩٨) الاستراتيجيات والصراعات الدولية.

(٢) أنظر: الكتاب المذكور «مقال في الثورة» ومجلة «المنابر» البيروتية عدد ٢٤، شباط ١٩٨٨.

وفيما يتعلق بموضوعنا، فقد تلقّى فكرنا المستغرب مقولة الغرب حول نشوء القومية في اوروبا في العصر الحديث، وهذا صحيح فيما يتعلق بأوروبا، أمّا تعميم هذا التوقيت من وجهة نظر الأوروبيين، فهو مظهر من مظاهر نظرتهم الاحادية والعنصرية التي تعتمد، ومن جميع الوجوه، تاريخ تطور الحضارة الغربية على أنه تأريخ الحضارة العالمية بكونها المصدر الوحيد للحضارة بعد حضارات الشرق الأدنى القديم، وتغفل كل كتبهم عن تاريخ الحضارة ونظرياتهم، مساهمات الشعوب الأخرى فيها: واعتبرت الشيوعيةُ القومية وضمن االاطار نفسه حركة رجعية ناجمة عن الرأسمالية، وبذلك نظر الغرب للقومية، وكأنها نظرية ابتدعها الغرب، في زمن معين، كما اكتشف الذرة مثلاً، أو فكرة نفعية مادية ابتكرت لتحقيق مصالح طبقة، وأسقطوا بعدها الحضاري الانساني، بكونها سمة ثقافية توحّد بين مجموعة بشرية نتيجة تطور حضاري معيّن، تنبثق عنها مشاعر ومصالح موحِّدة وبجدلية معها بين الايديولوجية والمصلحة بارتباط مع الواقع الجغرافي والتطور التاريخي، ولقد تلقّف مع الاسف فكرنا العربي ـ المستغرب، نظرية الغرب هذه، وسحبوا تاريخ تكوّن القومية في آوروبا على العالم بأسره، مسقطين عوامل التطور الحضاري والزمان والمكان (أي عوامل شروط الوعي وخصوصيته).

فالإسلام في زمنه، كما المسيحية في زمنها، هما حركة ثورة وتحرر وتوحيد حضاري، وهي (بمعزل عن صفتها الطقسية المعتقدية التي اتخذتها فيما بعد) حركة قومية ـ انسانية ـ تحررية انبثقت في سياق التطور الحضاري للمجتمعات التي ظهرت فيها (والصفة القومية للاسلام بالتحديد، حيث ارتبط القومي بالإنساني تتجلّى فيه أكثر مما تتجلى في المسيحية التي يغلب عليها الطابع الانساني العام) لأن ظروف التكوّن الحضاري الممهّد لظهور القومية، كان في القرن السابع الميلادي مختلفاً عمّا كان عليه وقت ظهور السيد المسيح[1]. وقد تجلّت الحضارة الاسلامية بأبهى مظاهرها تحت سلطة العرب وسقطت هذه الحضارة بسقوط سلطتهم، كما سنرى في السياق (انّا أنزلناه قرآناً عربياً)، وليست هذه بنظرة تعصبية، وتفسيرها العلمي، ان رسالة الاسلام كانت تتفق مع سياق حركة

---

(١) كان اسم بادية الشام وشبه الجزيرة العربية وكذلك شرقي مصر يدعى بأرض العرب منذ فجر التاريخ، (أنظر هيرودوت و Atlas historique (مرجعين مذكورين آنفاً). وان تكن الدولة العربية الاسلامية امتدت الى اسبانيا غرباً وإلى الهند شرقاً (كامبراطورية) فقد انحسرت الثقافة العربية واللغة العربية الى حدود ما يعرف اليوم بالوطن العربي، أي حيث كان التطور التاريخي يفرض استمرارها، رغم التوسع الامبراطوري سابقاً، والتقسيم الذي أصاب امتدادها الجغرافي فيما بعد.

الثقافة العربية، وكحركة ثورية في هذا السياق[1]، ولكنها لم تكن تتفق بالدرجة نفسها مع سياق تطور ثقافة الشعوب الاخرى التي اعتنقته؛ ويمكن للاستدلال الأعمق على هذه الحقيقة ملاحظة أن العطاء الثقافي للمسيحيين العرب قد ازدهر في ظل السلطة العربية في الدولة العربية ـ الاسلامية وسقط مع سقوطها، وسادته مرحلة انحطاط متزامنة مع انحطاط المجتمع العربي ككل، وكان العرب المسيحيون في طليعة الرواد في نهضتها الحديثة، وهذه الحقيقة تثبت وحدة سياق حضارة الأمة في جناحيها الاسلام والمسيحية على مدى الألفي سنة المنصرمتين بالنسبة للمسيحيين، والأربع عشرة قرناً منذ ظهور الاسلام. والدليل على ما نقول أنّ ازدهار العطاء الحضاري وانحطاطه تمّا كلاهما في ظل المسيحية والاسلام[2].

فالفتح العربي ـ الإسلامي لبلاد الشام ومصر والامتداد الشمال افريقي وبغداد، لم يكن فتحاً بمعنى دخول شعب على شعب آخر، أو قوة غريبة على شعب الأرض التي تدخلها، فلم يُشِرْ أيٌّ مصدر الى حصول تهجير بشري، فلم يخرج الا المستعمرون وبعض حاشيتهم، هذا بالنسبة لمصطلح الفتح.

أمّا الصفة الملحقة «العربي ـ الاسلامي. فذلك للإشارة الى أمرين:

أولهما: تمييز هذه الهجرة عما سبقها ولحقها من هجرات من شبه الجزيرة العربية، وهي هجرات لم تقتصر على زمن ما.

وثانيهما: للدلالة الخاصة التي تحملها هذه الحملة، لنشرها عقيدة غيّرت الوجه الحضاري، ليس لهذه المنطقة وحسب، وإنما لوسط العالم القديم كله، وغيّرت الجغرافية السياسية والسمة الحضارية والبنية الايديولوجية لثلث العالم المعروف آنذاك.

لقد سبق وأشرنا الى كلام د. السيد الباز العريني، حول أن العرب (في مختلف مناطقهم) آنذاك خارج شبه الجزيرة وَحَّدَهم توقٌ الى الخلاص من الامبراطورية البيزنطية بعد أن سقطت هيبتها بالاجتياح الفارسي، وبفعل سوء معاملتها للعرب بتمييزها العنصري والمذهبي ولاضطهادها المسيحيين المخالفين لمذهب الدولة، وكذلك حنقا على الفرس للاختلاف ـ العرقي والديني والحضاري.

---

(١) من وحي هذه الحقائق وتوضيحاً لأسبابها ومضامينها كان كتابي «الانسان والحضارة ـ جدلية المادة والوعي) وهو نظرية حديثة في فلسفة التاريخ، استحوذت على اهتمام عدد من مفكرينا العرب، وكذلك على اهتمام «اكاديمية زوتشيه» وهي أعلى اكاديمية للفلسفة في جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية.

(٢) وانظر كذلك مقالنا: «مطارحات علمانية لمكرم سعيد حنوش» مجلة المنابر ـ العدد ٩٦، حزيران ١٩٩٩، ص ١٢٩.

وتوقهم للتحرر وعصبيتهم العربية (القومية بتسميتها القديمة) كانت أحد الأسباب الرئيسية التي أدت الى انهيار الامبراطوريتين البيزنطية والفارسية لاقتصار حرب العرب على جيوش المستعمر الأجنبي، فقد انحاز العرب المسيحيون في العراق (المناذرة) وفي الشام الغساسنة الى الجيش العربي، ولا أدلّ على ذلك من قول جبلة بن الايهم الغساني للأنصار «أنتم أخوتنا وبنو أبينا» وانضم وفرقته العسكرية اليهم لقتال الجيش البيزنطي المستعمر، سيما وان الدين الجديد اعترف بالمسيحية وقدّس السيد المسيح، واحترم جميع رموز العقيدة، فمن المسيحيين العرب بعد ذلك من اعتنق الدين الجديد، ومنهم من بقي على دينه من دون أدنى حرَج.

أمّا علاقته بنشوء القومية العربية، فكونه قد وحّد لهجاتها بلغته، كما حصل في تشكيل القوميات في اوروبا فيما بعد، فلم تنشأ القوميات الا بعد أن توحدت لغة الادب، واعتماد اللغات القومية بدلاً من اللاتينية؛ أولاً.

ثانيهما: حدد الإسلام بانتشاره المدى الجغرافي لهذه الامة ومثّل توقها ومصلحتها المشتركة في التحرر والتوحد والتقدم الحضاري، وأضاف مرحلة جديدة لرسالتها التي تجلت بالرسالات، بدءاً بإبراهيم الخليل حتى السيد المسيح، والتي طورت الايديولوجية الاجتماعية والوضع الانساني، بما يتناسب مع تطور الانجاز المادي للحضارة[1].

ولقد أسهبتُ في هذه المقدّمة، لأن هذا الحدث كان نقطة تحوُّل في تاريخ ساحل بلاد الشام بعده وارتباط مصيرها بمسيرة واحدة، بكل نجاحها وكبواتها، كجزء من هذه الأمة، ولعبه لدور القلب فيها. ولعيشه تحت حكم يمثل شخصيته الثقافية التاريخية.

---

(١) حول هذا الموضوع أنظر كتابنا «الانسان والحضارة».

ساحل الشام منذ الفتح العربي ـ الإسلامي[١]

«من الخطأ ان يعتقد الانسان ان دخول العناصر العربية الى الشام يرجع زمنه الى الفتح الاسلامي»

رينه ديسو

١ ـ في مرحلة التأسيس والنهوض[١] (٦٥٧ ـ ٨٣٣ م)

المعارك الحاسمة

- معركة اجنادين (جنوب فلسطين).
- معركة اليرموك (وسط فلسطين ـ معبر بيسان).

٧٥٩ م ـ معركة نهر الموت (شمال مدينة بيروت) حماية الأمن العربي في بلاد الشام،

هذه الأحداث تمثل المعارك الاستراتيجية في تاريخ ساحل بلاد الشام في هذه الفترة، ولو ان محاولات السيطرة عليه، وبقائه في قلب الصراعات الدولية سيستمر بحكم الثابت الجغرافي، ولكن من هذا التاريخ وصاعداً سيصبح أمنه واستقراره مرتبطين بصورة مباشرة بأمن محيطه العربي، والعكس صحيح، وسيكون استقرار أوضاعه مرتبطاً مباشرة بالوضع العربي العام، فيسقط هذا الاستقرار مع فترات ضعف محيطه العربي، ويترسخ بقوة محيطه. وهذه القاعدة ما زالت سارية حتى يومنا هذا، وسيكون مرتبطاً بصورة مباشرة، كما كل الأمن العربي، بقوة العراق ومصر، المركزين الرئيسين لقوة المنطقة منذ فجر التاريخ السياسي للمجتمعات

---

(١) تشير كل المراجع التاريخية الى ان خروج هجرات من شبه الجزيرة العربية (وهي منطقة طرد بشري) الى الجوار الخصب في بلاد الشام والعراق ومصر وشمال افريقيا والسودان، بدأ قبل عام ٣٠٠٠ ق.م. تحت اسماء مختلفة ولهجات مختلفة لهذه الهجرات، في ارهاصات التكون التاريخي للأمة العربية، أما تسميتنا (الفتح العربي ـ الاسلامي) فلا تشير ضمن الحدود المبينة أعلاه الى دخول وتوسع امبراطوري لشعب على أراضي شعوب أخرى، انما لتمييز هذا الدخول عما سبقه وعما سيليه، ولأن هذا الدخول بصفتيه العربية ـ الاسلامية هو حركة تشكل نهائي لمواصفات الأمة، وحركة تحررها، (أي للتعبير عن المدلولات الحضارية لهذه الهجرة).

البشرية. أمّا وضعه المباشر فمرتبط بوضع دمشق، كما كان منذ فجر التاريخ، ومصير دمشق مرتبط به. فهي نقطة التوازن على هذا الساحل. قال المؤرخ صالح بن يحيى «قيل قديماً من ملك الشام ملك الساحل».

وما يجب الاشارة اليه هنا ان ليس في تاريخ الفتوح ما يشير الى اختراق جبال لبنان من الشرق الى الغرب سوى ما أشار اليه الواقدي ونقله عن ابن كثير «أنه عندما أرسل خالد بن الوليد سرية من البقاع الى بيروت تعرّضت لهجوم من قوم من الروم (ومناصريهم) في عين معيسنون[1]، وعلى الروم رجل يقال له سنان، تحدّر على المسلمين من عقبة بيروت فقتل من المسلمين يومئذٍ جماعة من الشهداء، وكانوا يسمون عين معيسنون عين الشهداء»[2] يقول الاستاذ حافظ أبو مصلح[3] «ومعيسنون ممر هامّ جداً يصل الجرد بالشاطىء يختصر المسافات (...) وقد سكنت معيسنون جماعة من التنوخيين (بعد) عام ٧٥٨ م وهو «واد يشكل سهلاً مستطيلاً غارقاً بين كيفون* وسوق الغرب وشطره».

فتوح الشام ومصر

توغل الفاتحون العرب ـ المسلمون في بادية الشام مفتتحين مدنها حتى جاوزوا حمص الى قنسرين.

٦٣٤ ـ استولوا على حصن بصرى (خلف نهر الاردن).

٦٣٥ ـ سقطت دمشق، وتبين للعرب ان «الضرورة الحربية تقضي على المسلمين المقاتلين على أرض الشام ان لا يتوغلوا فيها قبل ان تتمكن القوة الزاحفة الى فلسطين من تثبيت أقدامها هناك»[4].

٦٣٦ ـ تمَّ حصار قيسارية واجتمع عسكر الروم باجنادين وبيسان وغزة، وتمَّ النصر للعرب باجنادين، وبسقوط اجنادين عُزلَت مصر، وأصبحت بحكم الساقطة عسكريا، وقد تم التوجه اليها بعد الانتهاء من فتوح بلاد

(١ و ٣) «التنوخيون ـ القرى الدارسة» حافظ أبو مصلح ـ المركز العربي للأبحاث والتوثيق ـ بيروت ١٩٩٩.

(٢) أنظر «كتاب «أعمال المؤتمر لتاريخ لبنان» منشورات فيلون ـ لبنان» بحث للدكتور جورج شلهوب. وكذلك «لبنان من الفتح العربي الى الفتح الاسلامي» محمد علي مكي ص ٢٩.

* هناك بقايا قلعة قديمة في كيفون (قلعة الحصن) لأهمية موقعها، ولم يستعملها التنوخيون الا كمركز مراقبة، لاعتمادهم على القتال في الوعر، وليس التحصن بالقلاع.

(٤) اللواء الركن د. ياسين سويد «معارك خالد بن الوليد» المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٧٣.

الشام وفارس فسقطت الفسطاط (القاهرة)، ٦٤٠ م والاسكندرية ٦٤٢. ولكن هذاالنصر لم ينهِ الأمر، فطالما بقي خط ساحل بلاد الشام مفتوحاً للبيزنطيين، فقد تجمّع (من الجيش المنحدر من انطاكية وسواها) البيزنطيون في الياقوصة، وتقع في سهل شمالي اليرموك، وتألف جيش للروم من مايتين وأربعين ألف رجل، في محاولة لدحر العرب بغية الحفاظ على خط الساحل التجاري، سيما وان جبال لبنان وحتى معبر انطاكية ما زالا بيدهم. فتم النصر الحاسم للعرب في معركة اليرموك.

وبالسيطرة على هذا المعبر، انهارت سلطة البيزنطيين على بلاد الشام، وترك هرقل سورية بعد ان أيقن أن الامر قد حسم[1]، ودخل العرب القدس (٦٣٦) (ايلياء) بعد مجيء الخليفة عمر بن الخطاب لتسلمها بنفسه بناء على طلب بطريركها، وأعطاها صك الأمان.

وقد شكل حاجز نهر الكلب عقبة في وجه هذا الزحف العربي، فتمّ فتح الساحل حتى هذا الحاجز بالزحف شمالاً من فلسطين، وبالإتجاه جنوباً انطلاقاً من طرابلس.

٧٥٠ ـ سقوط الدولة الأموية على يد ابو العباس [السفاح] (٧٥٠ ـ ٧٥٤) وكان العباسيون قد اتخذوا مقراً لتحضير ثورتهم في قرية «الحمية» جنوبي البحر الميت، لأنها «كانت واقعة على خط القوافل التجارية السائرة من الغرب الى الشرق ومن الشمال الى الجنوب فضلاً عن قربها من طريق الحجيج»[2].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) عارف تامر «القرامطة» ـ دارمكتبة الحياة بيروت ـ بدون تاريخ ـ ص ٢١ ـ ٢٢.

ساحل بلاد الشام
٦٣٦ ـ ٧٥٨ م

الفتح والثغرة الامنية[1]

لم نصادف في كتب التاريخ ما يشير الى ان هذه الفتوح اتجهت نحو جبال لبنان[2]، واخترقتها من الشرق باتجاه الغرب عن طريق الممرات الطبيعية بين الداخل والساحل، وهذا الأمر على ما يبدو لم يحصل قط عبر التاريخ حتى ذلك الزمن (رغم كثرة الصراعات على هذه المنطقة)، ولعل ذلك يعود لوعورة تلك الجبال وبرودتها وصعوبة القتال فيها، خصوصاً على قوم صحراويين، فطبيعة هذه الجبال ومناخها يختلفان تماماً عن طبيعة ومناخ موطنهم الأصلي. ونلاحظ كذلك ان أغلب المدن الداخلية التي تم فتحها كان بعض سكانها أو جلّهم وفي بعض الأحيان كلهم من العرب، وذلك يعود لكون هذه السهول وبادية الشام امتدادًا طبيعيًا لشبه الجزيرة العربية التي كانت دوماً منطقة طرد بشري للأراضي الخصبة المحاذية لها؛ فكل شعوب بلاد الشام من كلدانيين وآراميين وعبرانيين وكنعانيين (فينيقيين) هم من هجرات خرجت من هذه الجزيرة على فترات متقاربة حيناً ومتباعدة أحياناً (ما يفسّر اختلاف لهجاتهم مع تطور اللهجات العربية القديمة) واصلاً، فكل المراجع التاريخية الموثوقة، وحتى الاجنبية منها تطلق اسم Arabia ومنذ بدء التاريخ، على كل المنطقة الممتدة شمال شبه الجزيرة العربية، سيما منها بلاد الشام وغرب وجنوب العراق)، وكذلك فإن كتب التاريخ تروي لنا أن سكان المدن الساحلية في

---

(١) عن كتابي «تاريخ الاقطاع في لبنان» ـ المركز العربي للأبحاث والتوثيق ـ بيروت ٢٠٠٠ ـ ص ٢٢ ـ ٢٥.

(٢) سوى بعثة معاوية التي هزمت في معيسنون، ولم تودِّ الى استقرار بشري في جبال لبنان. (أنظر اشارة لهذا الموضوع).

بلاد الشام قد هاجر اكثرهم حين الفتح على خلاف أماكن أخرى، ولعل ذلك يعود الى ان كثيرين منهم بالنظر للامبراطوريات المتتالية التي حكمت هذه المنطقة، وكذلك بالنظر للأهمية التجارية لهذا الساحل، كانوا مهاجرين غير عرب يقيمون على هذا الساحل لأسباب تجارية، وهذه الظاهرة التاريخية ما زالت تتجلى حتى في التاريخ الحديث، ففي الحواضر التجارية الهامة تتواجد جاليات أجنبية أكثر من أيّ منطقة عربية أخرى للأسباب التجارية عينها؛ ومؤخراً في شبه الجزيرة العربية بعد النفط والتطور التجاري على أطرافها.

ولأن هذا الفتح لم يشمل جبال لبنان، ولكون هذه الجبال تتواصل طبوغرافيا حتى شمال بلاد الشام على مقربة من انطاكية، ولأن حدود الفتح العربي لم تشمل هذه المنطقة الشمالية الجبلية العليا وبقي جبل اللكام، وهو ما يعرف اليوم بجبال العلويين تحت السيطرة البيزنطية، فلم تنسحب الحاميات البيزنطية الموجودة في هذا الجبل، وهي التي عرفت باسم المردة أو المردائيتي[1]، الذين انسحبوا إبان خلافة الوليد بن عبد الملك حين جدد معاهدة كان قد عقدها معاوية بن أبي سفيان مع الدولة البيزنطية لكفّ هجمات هذه الحامية على الداخل والساحل. ولعل قسطنطين الامبراطور البيزنطي ٣٢٣م قد لاحظ ضعف هذا الساحل فأرسل «غزاة روميين مرديين (فاستولوا على كل ما هو من جبل الجليل الى جبل اللكام وعلى جبل لبنان ايضاً، فكابد منهم العرب أموراً كثيرة» حسب تعبير ابن العبري.

التقسيمات العسكرية العربية وضعف الساحل

قسم العرب بلاد الشام الى خمسة أجناد (ولايات عسكرية).

١ ـ جند فلسطين ويمتد ساحله الى قيسارية شمالاً (١٥ كيلومترًا جنوب حيفا) وعندها ينتهي ساحل جنوبي فلسطين حيث ان حيفا تقوم على طرف امتداد جبلي يصل الى البحر.

٢ ـ جند الاردن وساحله من قيسارية وحتى جنوب صور شمالاً (أي حتى رأس الناقورة حيث تصل الجبال الى البحر).

٣ ـ جند دمشق وساحله من صور (رأس الناقورة) وحتى طرابلس شمالاً.

٤ ـ جند حمص وساحله يمتد بين طرابلس وأنطاكية (لأن الجبل جبل سوس

(١) للتفريق بين الجراجمة والمردة والموارنة، وهو التباس شائع، أنظر: المطران يوسف دريان «البراهين الراهنة في أصل المردة والجراجمة والموارنة» دار كنعان ١٩٨٤ ـ بيروت. (والمردة هم من أصل أرمني) وعادوا الى ارمينية عام ٦٨٧.

[قزل داغ] يقترب من انطاكية ليشكل مضيقاً ساحلياً ضيّقاً وهو امتداد لجبل امانوس).

٥ ـ جند قنسرين ويمتد ساحله شمالي جند حمص وحتى الحدود مع الدولة البيزنطية (خليج الاسكندرونة).

وبملاحظة جند دمشق على ضوء الثغرة الأمنية التي سبق وذكرناها، يتبين لنا الضعف الاستراتيجي لهذا الساحل، فبين مركز الجند (دمشق) وبين الساحل تقوم سلسلة جبال لبنان الغربية التي سبق وأوضحنا انها شكلت برزخاً أمنيًا خارج سلطة الدولة، وعلى هذا الشريط الساحلي يقع حاجز نهر الكلب، بالإضافة الى ما سبق وذكرناه في كون طبيعة هذا الساحل لم تسمح تاريخياً بقيام دولة قوية عليه يمكنها ان تقاوم الغزوات الاجنبية. كل ذلك جعل البيزنطيين يهاجمون جنوبي هذا الساحل عدة مرات ويعيدون السيطرة عليه ما يستوجب إعادة فتحه، مما جعل أمن هذا الساحل وكذلك البقاع معرضاً للاضطراب بين عامي ٦٣٨ ـ ٧٥٨ م[١] فلم تفلح في درء هذا الامر استراتيجية عمر بن الخطاب الدفاعية، وكذلك لم تفلح سياسة معاوية الدفاعية إلا في درء الخطر البحري[٢]. وبقيت هذه المنطقة تعاني هذا الضعف الأمني، ما اضطر معاوية لدفع الجزية للدولة البيزنطية، وكذلك فعل عبد الملك بن مروان، الاموي وظلت هذه المسألة قائمة حتى مجيء أبي جعفر المنصور، ثاني الخلفاء العباسيين وإرساله القبائل التنوخية للاستقرار في جبل لبنان عام ٧٥٨ م لتقوم بالمهمات التالية[٣]:

١ ـ الوقوف بوجه أيّ محاولة للوصول الى بيت المقدس عن طريق السلاسل الجبلية من الشمال.

٢ ـ تأمين طريق يصل بين دمشق والساحل ومنع السطو على القوافل التجارية او الامدادات العسكرية بين عمق الدولة والساحل، وبمحاذاة هذا الجبل على امتداد الشرقي والغربي.

٣ ـ إقامة عمق استراتيجي واحتياط بشري لتأمين حماية محلية كافية للساحل.

---

(١) حول تفاصيل هذا الامر راجع كتابنا «تاريخ الاقطاع في لبنان» مرجع مذكور آنفاً.
(٢) نفسه ص ٣٢.
(٣) وقد نمي اليّ من بعض الباحثين ان معاوية أرسل ٣٠ ألف جندي للسيطرة على هذا الجبل، ولكن هذه القوة استدرجت وطوقت ما دفع معاوية لعقد هدنة مع الدولة البيزنطية (راجع كتابنا المذكور آنفاً).

٤ ـ تعريب الجبل (أي إيجاد قوة رادعة مقيمة تحمل عبء الأمن الاستراتيجي للدولة في هذه المنطقة) وإيجاد قوة رادعة للقوة المحلية التي كانت تستغلّ كل سانحة للتمرد على الدولة المركزية وتعتدي على أمن السواحل وقوافل الحج وطرق التجارة.

٥ ـ السيطرة على الجبال والممرات الجبلية (ظهر البيدر، وترشيش) وتركيز نقاط اتصال لنظام الاشارة والانذار، وذلك عن طريق ايجاد محطات للحمام الزاجل نهارا، ولإيقاد الشعلة ليلاً:

وكانت المهمة الأمنية لهؤلاء التنوخيين تشمل حماية الساحل من نهر الكلب حتى صيدا، وضُم أمن جنوبي صيدا الى جند فلسطين، وأمن شمالي حاجز نهر الكلب الى طرابلس.

وبذلك يكون قد نشأ تبدُّل كبير على استراتيجية أمن هذا الساحل، كانت إقطاعة الجرد مرتكزه، ويمتد الامن الساحلي الواقع تحت مسؤوليتها من صيدا الى خلدة، بالاضافة للمتن والشوف، وإمارة الغرب التنوخية حامية الساحل من خلدة الى نهر الكلب. هذا التبدل الستراتيجي سنرى مفاعيله فيما بعد، سيما إبّان الغزوات الصليبية، وفي الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام على اثر نهاية الحرب العالمية الاولى وتنفيذ اتفاقية سايكس بيكو (عام ١٩١٨ ـ ١٩٢٠)، وذلك باحتلال الجنرال غورو لدمشق وإسقاط الحكومة العربيّة عن طريق ظهر البيدر، وهذا ما جعل المستعمر الفرنسي لا يجزيء الامن والاقتصاد بين لبنان وسورية، وكذلك في محاولات اسرائيل والقوى المتحالفة معها في الحرب الاهلية اللبنانية (١٩٧٥ ـ ١٩٩١) لاحتلال ممر ظهر البيدر ومحاولات اسرائيل والقوات اللبنانية للتواصل عن طريق السلاسل الجبلية والوصول الى نيحا (الشوف) معركة الرادار إبّان حرب (١٩٧٥ ـ ١٩٩١) وكذلك عجز قوات «ميشال عون» ١٩٨٩ عن اجتياز مفازة نهر الكلب، ما نقل المعركة بينه وبين القوات اللبنانية الى كسروان)، وهذا أحد الأسباب التي تجعل المساعدة العسكرية السورية والتواجد السوري في لبنان ضرورياً، طالما استمر التهديد الاسرائيلي، وهو ما أوجب البنود المتعلقة بهذا الموضوع في اتفاق الطائف والذي لا تتحكّم بوجوبه الفترة الزمنية، إنما الضرورة الامنية للبلدين معاً، وهذا أحد أسباب ارتباط المسارين السوري واللبناني في النزاع مع الكيان الصهيوني الغاصب. بالإضافة للضعف المتمثل في أمن البقاع، فإذا ما اخترقته اسرائيل انفتحت لها الخاصرة الغربية السورية حتى حمص وسهول عكار.

جبل لبنان وساحله من ٦٤٣ الى ٧٥٨ [1]

استعراض تاريخي

تحدثنا في الصفحات السابقة عن الثغرة الدفاعية والبرزخ الأمني الذي أبقى جبال لبنان امتداداً حتى جبال عكار غير مشمولة بالفتح ولقربها من جبال العلويين (جبل اللكام) برزخاً أمنياً يضعف أمن جند الشام. ويبدو ان البيزنطيين الذين كانوا يحكمون هذه المنطقة عرفوا نقاط ضعفها فأخذوا يهاجمونها من البحر. وسنعرض فيما يلي سجل أحداث هذا الساحل في هذه الفترة:

٦٤٤ ـ ٦٤٦ في أواخر خلافة عمر بن الخطاب وبداية خلافة عثمان، أعاد الروم الغلبة على بعض السواحل فأعاد معاوية فتحها ورمَّ حصونها وشحنها بالمقاتلة ووجّه ابن مجيب الازدي الى طرابلس وحاصرها حتى أتمّ فتحها لتعزيز أمن هذا الساحل.

ـ وأثناء خلافة معاوية ونظراً لانشغاله بحرب أهل العراق عليه، اضطرّ للجوء الى صَلح مع الدولة البيزنطية مقابل جزية يدفعها لها استرضاء.

٦٧٥ ـ حارب الامير يوحنا (أمير كسروان) العرب وكسرهم وغزا سواحل البحر والبقاع وتولّى في أيام قسطنطين (اللحياني ٦٦٨ـ ٦٨٥) من القدس الى حدود انطاكية (أي السلسلة الجبلية من وسط فلسطين حتى شمال سوريا).

٦٨٥ ـ بسبب الغزوات التي استمرّ (المردائيتي أو المردة) وهم فرقة من الجيش البيزنطي من أصل أرمني كانت ترابط في جبال لبنان، وبسبب الغزوات التي ظل هؤلاء يقومون بها على الساحل والبقاع، وفي هذه السنة دخلت جيوش رومية الى جبل اللكام وانضم اليها جراجمة عبيد وأباق ووصلت الى جبال لبنان، مما اضطرّ الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) لتجديد المعاهدة التي كان معاوية قد عقدها مع البيزنطيين، وزاد قدر الجزية، وانسحبت بموجب هذه المعاهدة قوات «المردة» من جبال لبنان، وتم عقد هدنة مع البيزنطيين، بعد ان كان هؤلاء قد هاجموا بصحبة الأمير يوحنا ونزلوا الى البقاع فقطعوا طريق الحج التي كان عبد الملك قد حوّل طريقها الى هناك بسبب ثورة ابن الزبير.

---

(١) عن كتابنا «تاريخ الاقطاع في لبنان» مرجع مذكور آنفاً ص ٢٦ ـ ٢٩.

٧٠٧ـ اجتمع الجراجمة نسبةً الى مدينتهم (الجرجومة) في جبل اللكام وانضمت اليهم جيوش بيزنطية من الاسكندرونة ورودس، فوجّه الوليد بن عبد الملك أخاه مسلمة على رأس حملة فافتتح الجرجومة. وهدمها وسمح لأهلها بأن ينزلوا حيث أحبوا من بلاد الشام، ولم يكرههم على دينهم وأعطاهم عهداً بأن يعاملوا معاملة المسلمين.

٧٥٠ـ سقطت الدولة الاموية وتولى أبو العباس (السفاح) الخلافة.

٧٥٢ـ سار المقدم الياس (مقدم كسروان) الى البقاع فنهب قرى وقتل أهلها، فأرسل والي الشام اليه رسلاً ليجعل معه صلحاً، ثم أرسل جيشاً هاجمه في قرية المروج وقتله. وبعد رجوع الجيش العباسي عاد أصحابه ودفنوه هناك بقرب جامع القرية، وسميت منذ ذلك الحين قبر الياس وهي المعروفة اليوم بقب الياس، وتولّى بعد المقدم الياس ابن أخته سمعان، فسار عسكر الدولة اليهم واستدرج الامير سمعان الجيش عبر معبر زحلة ـ ترشيش ـ ضهور الشوير ـ ووقع القتال في قرية شرقي الشوير فانكسر عسكر الدولة ودام القتال بين عسكر الدولة والأمير سمعان مدة طويلة.

٧٥٦ـ ١٣٦ هـ. تولى ابو جعفر المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥) ثاني الخلفاء العباسيين الخلافة.

حملة ابي جعفر المنصور

٧٥٨ـ أراد الخليفة أبو جعفر المنصور وضع حد نهائي لأمن ساحل بلاد الشام[1]، فحضر الى دمشق واستدعى اليه الأمراء التنوخيين المقيمين في معرة النعمان فحضر منهم الاميران ارسلان والمنذر اللخميان التنوخيان فأمرهما بتجريد حملة مع قبائلهما والاستقرار في جبل لبنان، ونشر قبائل أخرى على أطراف بلاد جبيل ويشري والهرمل وعكار، بما يحيط بكسروان للغرض نفسه.

٧٥٩ـ حضرت الحملة وافتتحت الجبل وكانت وقعة «نهر الموت» شمالي بيروت أول صدام عنيف ثبّت التنوخيين في جبال لبنان وبدأ هؤلاء تنفيذ المهمة الموكله اليهم، وأعيد تقسيم أمن المنطقة على الوجه التالي:

١ ـ اتبع أمن الساحل شمالي نهر الكلب الى طرابلس.

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع أنظر كتابنا «تاريخ الاقطاع في لبنان ٧٥٨ ـ ١٨٦٤».

٢ ـ أوكل الأمن من نهر الكلب شمالاً حتى صيدا جنوباً الى ولاية بيروت وصيدا، بحكم مباشر من التنوخيين حيناً، وبمساندة هؤلاء أحياناً أخرى.

أمّا ما كان يسمى جبال بيروت وجبال صيدا (أي المتن والجرد والشوف واقليم الخروب) وحتى شريط يوازيه في سهل البقاع على السفوح الشرقية للسلسلة الغربية، فقد كان أمنه مناطًا بالتنوخيين الذين يتمتعون بحكم ذاتي ويولى الاقطاع اليهم وراثياً من الدولة المركزية. وبذلك تم تطويق الكسروانيين من دون فرض حكم مباشر عليهم، على ان يتولّى التنوخيون التعاطي معهم سلماً أو حرباً حسب مقتضيات الحال، من دون تدخل مباشر من الدولة المركزية إلا عند الضرورة. وعلى هذا المنوال تطور وضع جبل لبنان وأمنه. وبذلك انكفأ الكسروانيون عن الساحل. ولم يستتب الامر بهذه السهولة. ويذكر الحتوني[١] عن حروب جرت بين الطرفين في أعوام ٧٩٠م ـ ٨٤٥ و٨٧٥ اذ يقول الحتوني «ويظهر من تاريخ الامراء الارسلانيين (التنوخيين) ان الحروب بينهم وبين سكان كسروان بقيت متواصلة الى قدوم الجيوش الصليبية سنة ١٠٩٩ لأنه سنة ١٠٨١ كتب تاج الدين تنشق السلجوقي ملك دمشق كتاباً الى الامير شجاع الدولة الارسلاني به يستدعيه الى طاعته ويحرضه على غزو المردة[٢] والمحافظة من الافرنج[٣].

٧٦٢ ـ أتم أبو جعفر المنصور بناء بغداد ونقل عاصمته إليها.

وكانت الدولة العباسية تسند ولاية بيروت وصيدا غالباً للتنوخيين[٤].

---

(١) الخوري منصور طنوس الحتوني «نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية» ص ٢٠ ـ ٢٦.

(٢) حول عدم صحة هذه التسمية أنظر «تاريخ الاقطاع في لبنان ص ٢٧، والبراهين الراهنة في أصل المردة والجراجمة والموارنة، الأب يوسف دريان ـ دار كنعان ـ بيروت ١٩٨٤.

(٣) الحتوني ص ٢٥.

(٤) أنظر «تاريخ الاقطاع في لبنان» مرجع مذكور آنفاً، ود. عبد العزيز سالم ـ دراسة في تاريخ صيدا ص ٦٥ والشدياق ج ١ ص ٢١.

الفصل الرابع

«حضارة أمة تصارع الوأد»

أزمة الحضارة العالمية
في نهاية الألفية الأولى
وبداية الألفية الثانية

١ ـ الامارة الحمدانية (بمفهوم عربي للأمن والسلطة)

٢ ـ القرامطة (ثورة عقائدية واجتماعية)

٣ ـ الدولة الفاطمية (ثورة اسلامية جهادية ـ عربية)

٤ ـ الامارة التنوخية (امارة عربية تبحث عن طريق)

أزمة الحضارة العالمية
في نهاية الالفية الأولى
وبداية الألفية الثانية

مدخل

كثيراً ما نقرأ في دراسات المؤرخين العرب المحدثين أن الحروب الصليبية كانت لأهداف اقتصادية، من باب العلم بالشيء حيناً، أو من باب التلطيف أحياناً مسايرة للوحدة الاجتماعية في المجتمع العربي الفسيفسائيِّ العقائد والمذاهب، لكون هذه الأرض تحمل كل إرث الانسانية بعقائدها وتسامحها تجاه التعددية.

لقد شاركت كل اوروبا في الحروب الصليبية، فكانت حقاً صراعاً بين حضارتين شرقية وغربية بكل أبعاده. ولكن دارسي تفاصيل هذه الحروب، سيما المؤرخين الثقات الغربيين منهم يتضح من دراساتهم انه وان كان شعار الصليب، قد وحَّد مؤمنين ومغامرين بتأثير من رجال الدين وبوحي من الايديولوجية السائدة، إلا ان غاية قوادها وحكامها، كانت قلّما تتم التزاماً بهذا الشعار المعلن، انما تتعلق بأهداف اقتصادية ومصالح سياسية بحتة، ما يفسر أن هذه الحملات كانت تتوجه الى القسطنطينية، أحياناً، أو تقوم بتحالفات مع امارات مسلمة لتحقيق أهدافها التجارية، او تحوّر الأهداف الاستراتيجية لهذه الحملات عن قصدها الأساسي لتضارب مصالح بين قوى قياداتها، من دون ان تغفل أيٌّ منهاالتستر بـ «القدس» كهدف نهائي للحملة، وتوَجُّهِها الى مكان آخر[1]، تبعاً لأهداف سياسية أو اقتصادية، أو للاستفادة منها في توجيه الصراعات الاوروبية الداخلية.

---

(١) أنظر: هـ. أ. ل فيشر «تاريخ اوروبا العصور الوسطى» ـ ترجمة محمد مصطفى زيادة ود. السيد الباز العريني ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٤.

فلسطين قلب الأمن العربي

لقد شاهدنا من استعراضنا لتاريخ ساحل بلاد الشام، حقيقة ان الصراع على هذه المنطقة، وبالنظر للخصائص التي استعرضناها في بداية هذا البحث، لم يتوقف قط، وكان بيضة قبان استمرار هذه الامبراطوريات، وقدرتها على البقاء لفترات طويلة يرتبط، وبصورة مستمرة، بقدرتها على الحفاظ على هذه المنطقة[١]، أي ان وظيفة هذه المنطقة على مدى التاريخ، كانت وظيفة القلب النابض لحياة الامبراطوريات، مع ملاحظة مهمّة جداً وهي ان هذا الاستقرار للامبراطوريات أي التعبير عن قوتها لا يمكن ان يدوم إلا:

أولاً: إذا كانت مصر في الغرب، وبلاد ما بين النهرين (العراق) في الشرق ضمن هذه الامبراطورية، وإذا ما اختلّ هذاالميزان الذي يمكن تشبيهه بأن بلاد الشام ساعده الأوسط والعراق ومصر كفّتاه، يبقى مختلاً باختلال الوزن بغياب إحدى هاتين الكفتين.

ثانياً: ان الفترات القصيرة التي تبقى فيها بلاد الشام (مستقلة) و غير موحَّدة مع محيطها من العراق الى مصر، لا يمكن ان تكون الا فترة تجاذب للنفوذ بين القوى الكبيرة، ومرحلة حمل قبل ولادة امبراطورية جديدة قوية تتحفز للسيطرة عليها:

ثالثاً: ان الدراسة المتأمّلة الدقيقة للخرائط التاريخية للامتداد الجغرافي للامبراطوريات القديمة تشير الى ان شبه الجزيرة العربية مع امتدادها الطبيعي بادية الشام، لم تدخل في الخرائط التاريخية لهذه الامبراطوريات، الا أطرافها الشرقية المحاذية لما بين النهرين (شرق العراق)، والشريط الغربي المحاذي لهذه البادية والمتمثل بغرب سورية (الحالية) وبعض شرق الاردن، أي الشريط الذي يشمل حلب وحمص شمالاً ودمشق وحوران وسطاً امتداداً حتى البتراء والأطراف العليا

---

(١) يقول اللواء د. ياسين سويد في كتابه «مؤامرة الغرب على العرب» ان كامبل ـ بانرمان رئيس وزراء بريطانيا (١٩٠٥ ـ ١٩٠٧) عقد حين توليه السلطة مؤتمراً ضم مايتي عالم في جميع العلوم ومن كل دول الامبراطوريات القديمة لدراسة المسألة التالية: أسباب سقوط الامبراطوريات بعد نشوئها وكيفية إطالة عمر الاستعمار الاوروبي بعد ان شاخ؟، وخرج المؤتمر بعد سنتين من انعقاده بتقرير بقي سرياً ولم تنشر الا بعض مقاطع منه، وعلى نتائجه بنيت اتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفور. ولعل ما توصلنا اليه في بحثنا يطابق مضمون هذا التقرير، وما نتج عنه يؤكد هذا الامر، وكانت خريطة سايكس بيكو، ومن نتائجه قيام الدولة العبرية وانعكاساته على الأمن العربي منذ عام ١٩٤٨، واتفاقية كامب ديفيد وحرب الخليج الثانية.

الشمالية الغربية لشبه الجزيرة العربية جنوباً. أمّا المناطق الباقية من بادية الشام فكانت خاضعة بدرجة أكبر أو أقلّ لنفوذ ما حولها؛ وأمّا شبه الجزيرة العربية وبادية الشام الى أعلاها فقد عرفت منذ فجر التاريخ باسم Arabia أي الأرض العربية، فكان مستقلاً عن أي حكم مباشر وبالتالي كان رغم طبيعة الحياة القاسية والمضطربة، وغير المستقرة التي يفرضها شح موارده، مجالاً رحباً وموئلاً للحريات لبقائها خارج سلطة الامبراطوريات أولاً، ما أُنتج شخصية أنوفة تفضّل شظف العيش على التنازل عن حريتها. ولعل، هذا ما يفسر احتقار أهل المضر لأهل الحضر، وبعض العكس صحيح، وأنفة أهل المضر عن الحياة الحضرية. هذه الخصائص النفسية التي تجلّت في النتاج الأدبي لهذا المجتمع والتي امتدت الى خارج شبه الجزيرة مع الامتداد العربي بعد انتشار الحضارة العربية الاسلامية (الشعر الجاهلي بعامّة: وعنترة وامرؤ القيس والنابغة وحكمة زهير الخ...) وبالشعر الذي يمتاز بالحس الانساني العميق والرقيق (قيس بن الملوّح، كثير عزّة وجميل بثينة، والحب العذري والشعر الرقيق، الذي وجد بأبهى أشكاله في الموشحات الاندلسية والشعر الاندلسي الرقيق والخالد.

رابعاً: أمّا الاستنتاج الرابع والامتداد اللازم للثالث، فالحركة الثورية النهضوية، والقفزة الهائلة التي حققتها الحضارة العربية ـ الاسلامية والتسامح الذي تحلّت به (حيث استمرت السلطة العربية ولم تقع تحت تعصب وجور شعوب اسلامية أخرى)[1] بالنسبة لما قبلها، ولما عاصرها وما تلاها، وإن تكن أحكامها الزمنية ونظرتها الغيبية وليس توجهاتها ومثلها أضحت اليوم بحاجة الى ان تواكب التطور الحضاري والمعرفي.

خامساً: وبالعودة الى الأهمية الجيوبوليتيكية، بعد ذاك الاستطراد اللازم، فإن انطلاق الامبراطورية العربية ـ الاسلامية من هذه المنطقة، كان رسالة، وأزهى مرحلة تاريخية عبر العصور بإنسانيتها وتوحيدها للعالم ولاستقراره على مدى قرون، وكانت نوعاً من الاتجاه نحو الاستيحاء الاجتماعي «لليوتوبيا» المسيحية وخطوة الى الأمام تستمد روحها، أي لعبت دور القاعدة لذاك الميزان الثابت، وحققت حالة انسانية، لم يكن قبل ذلك سوى الاسكندر الأكبر بشخصه وبمشروعه

---

(١) انظر مقالنا «المسألة اللبنانية والتدخلات الاجنبية» مرجع مذكور آنفاً..

قد شكل ثمرة لم تنضج لها، وسقطت قبل نضجها، بكونه تلميذاً لأرسطو، أي لفلسفة مثالية تقدمية تستمد جذورها المثالية من مدارس فلسفية في الشرق الادنى القديم.

سادساً: هذه الحقيقة الجيوبوليتيكية (لساحل بلاد الشام) ستؤكد ذاتها ابتداء من الفتح العربي والسيادة العربية بوحدة الحالة السياسية من عام ٦٤٢ (استكمال فتح مصر) وعلى مدى اثني عشر قرناً، حتى كانت حركة الاستعمار الاوروبي الناتجة عن الثورة الصناعية، إذ عادت مشاريع السيطرة على المنطقة والعمل على تفتيتها من أجل إسقاط سبب قوتها التاريخي، الذي جعلها بمنأى عن السيطرة الغربية، في ظل ستاتيكو دولي اكتمل عام ١٩١٨ باقتسام تركة (الرجل المريض) وتطبيق اتفاقية سايكس ـ بيكو، ما أتاح ظروف قيام الكيان الصهيوني الذي يهدف الى:

أولاً: مصادرة قلب الأمن العربي وإبقاء المنطقة بحال خلل أمني دائم.

ثانياً: الحؤول دون استعادة قوتها بالابقاء على تفتيتها.

ثالثاً: وضع اليد على مفصل التجارة الدولية الأهم (فلسطين)، الذي يوفّر استمرار قوتها وضعف محيطها، سيما بعد فتح قناة السويس التي أعادت الى المنطقة كل أهميتها بعد اكتشاف الطرق البحرية الحديثة وتطور الملاحة والنقل الجوي.

وقد تركز هذا الستاتيكو بعد قيام الثورة البلشفية، (وتوازن الشرق الأوسط) كحاجة لـ (الوفاق الدولي) بالحفاظ على مفاعيل اتفاق سايكس ـ بيكو كنواة ووعد بلفور وإقامة الكيان الصهيوني كإسفين دائم ولإيضاح ذلك سنوضح الحقيقة التاريخية التالية:

أولاً: ان مصر وبلاد الشام (أي ما يعرف اليوم باسم (مصر والاردن وفلسطين وسورية ولبنان) بقيت طوال هذه الفترة (٦٤٠ ـ ١٨٤٠) تخضع لحالة سياسية وأمنية واحدة كما سيبين الجدول التاريخي آخر الكتاب[1].

ثانياً: ان الاستقرار الحقيقي والكامل لهذه المنطقة لا يتوفّر الا بأجنحته الثلاث: العراق وشبه الجزيرة والمغرب.

ثالثاً: انه في كل مرة سقط العراق فيها من هذه المعادلة، اهتزّ مصير المغرب وشبه الجزيرة.

---

(١) وما التواريخ (الكيانية) التي تحاول تكريس تاريخ الولايات على مدى هذه الفترة، على انه تاريخ أمم ودول، الا مؤامرة الغرب على الثقافة العربية لترسيخ ايديولوجية شعبية تتفق مع المصالح الاستعمارية.

رابعاً: انه في كل مرة يتماسك فيها الوضع السياسي في اتحاد مصر وسورية والعراق، تتهيأ ظروف أمن ومصير هذا الساحل، ويُحمى جناحا شبه الجزيرة العربية.

٨٦٨ ـ قامت في مصر الدولة الطولونية ومدت نفوذها الى بلاد الشام.

٨٧١ ـ «تولّى الأمير النعمان بن عامر التنوخي الذي يرتفع نسبه الى المنذر بن النعمان من ملوك الحيرة، بيروت بالإضافة الى صيدا وجبالهما (اقليم الخروب والشوف والجرد والغرب (المؤلّف)) بأمر اماجور التركي، عامل دمشق من قبل الخليفة العباسي ولقبه آماجور بأمير الدولة، وأعاد توليته الطولونيون، وتولى بعده الامير منذر»[١].

وإلى هذه الامارة يعود الفضل في وقف الزحف الصليبي على الساحل عند نهر الكلب (١٠٩٩) وتحويل زحفهم للمرور من كسروان كما سنوضح فيما يلي، وما أدى الى إرجاء سقوط بيروت حتى عام (١١١٠)[٢].

٩٠٥ ـ سقوط الدولة الطولونية وعودة مصر وبلاد الشام الى الدولة العباسية، وتولية الخليفة لوالٍ عليها يمهّد لقيام الدولة الاخشيدية.

٩٣٥ ـ يستقل الاخشيديون بمصر ويقيمون الدولة الاخشيدية باسم الخلافة العباسية.

٩٣٧ ـ يعطي الخليفة العباسي المتقي بالله لمحمد بن طغج (الاخشيدي) ولاية بلاد الشام مع حق توريثها لأبنائه من بعده «على الرغم من المشاكل التي أثارها الحمدانيون والتي اقتضت من الاخشيديين ان يدفعوا للامارة الحمدانية جزية سنوية»[٣].

٩٤٤ ـ سيف الدولة الحمداني. يوسع امارته الى حلب (٩٤٤ ـ ٩٦٧) ويستقل بها، ويضع ستراتيجية عربية لمجاهدة البيزنطيين وتتولّى هذه الامارة كل عبء الثغور الشمالية للوطن فتحظى بمحبة العرب وتأييدهم وولائهم. والحمدانيون هم فرع من قبيلة بني تغلب في الموصل، وبمجيئهم الى حلب تقوم أواصر الدعم بينهم وبين التنوخيين (وتنوخيو جبل لبنان فرعٌ منهم) ويمتد تحالفه ليشمل الامارة التنوخية في جبال لبنان وساحله.

---

(١) دراسة في تاريخ صيدا ـ مرجع مذكور آنفاً ص ٦٦؛ والنجوم الزاهرة ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٢.

(٢) أنظر أحداث عام ١١١٠ فيما يلي.

(٣) المرجع السابق.

قومية وحضارتها في صراعهما مع التحنيط

قبل الاستطراد في عرضنا التاريخي، لا بدّ من التوقف عند محطة هامّة في سياق الحضارة العالمية وما يتعلق منها بموضوعنا؛ فمع بداية القرن العاشر الميلادي كان الصراع بين نقائض الحضارة العربية قد بلغ ذروته.

صراع القوميات:

كان العرب قد بدؤوا منذ خلافة المعتصم (٨٣٣ ـ ٨٤٢) بالاعتماد شبه الكامل على الشعوب الاسلامية الأخرى في تشكيل جيشهم وحرسهم الشخصي بسبب الصراعات المذهبية بينهم وبقايا خلافاتهم القبلية والمشاكل التي أدت اليها النزاعات حتى بين الاخوة على الملك بتأثير من الشعوبية؛ فلم تُجدِ نكبة هارون الرشيد للبرامكة نفعاً في وقف هذه السيرورة. كانت سلطة العرب قد بدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة من الداخل (حتى ضمن قصر الخلافة)، هذا الوضع المتردي وسيطرة الترك والديلم واستئثارهم النهائي بالسلطة، واضطهادهم للعرب لمنع عودة سلطتهم في مركز الدولة، دفع العرب الطامحين لإعادة السلطة اليهم الى اللجوء الى الاطراف لإقامة سلطة ترنو بطرف عينها الى بغداد، تهدف لهدم الدولة السنّية الهرمة والعاجزة والمحكومة بغير العرب، والمستهترة بمصير العرب على الثغور، وبمصير الارض، فقامت حركات ثلاث (شيعية) على الأطراف، وتعاطفت معهم امارة عربية تتمتع بحكم ذاتي في جبل لبنان (التنوخيون).

أ ـ عام ٩٠٠م ـ قامت الدولة الفاطمية في تونس (المهدية في القيروان) وليبيا والجزائر لتمتد الى المغرب وموريتانيا (٩٥٨ ـ ٩٨٥ و٩٩١) وإلى مصر وبلاد الشام (٩٦٩ ـ ١١٤٤) في بلاد الشام لتسقط أخيراً في مصر بموت آخر خلفائها العاضد عام١١٧٠م وباستلام صلاح الدين الايوبي للحكم ليقيم الدولة

الايوبية في مصر والشام وشمال العراق وصولاً الى اليمن، وتستمد الدولة الفاطمية شرعيتها الدينية من انتسابها الى فاطمة الزهراء (ابنة النبي) وشرعيتها القومية من نسبها القرشي (لهذا نرى التشكيك القائم حتى اليوم بنسبها وشرعيتها) من تأثير الشعوبية والخلاف المذهبي مع الدولة السنّية) وكل ذلك لإسقاط مشروعها العربي والذي سنعرضه فيما يلي.

ب ـ القرامطة في شمال شرق الجزيرة العربية[1] وكانت حركة عربية شيعية ثارت على المعتقد وعلى الخليفة ممثلاً بالسلاجقة.

ج ـ الامارة العربية التنوخية تأسست في جبل لبنان ٧٥٨ م[2].

لغز حجر بتاتر

٩٤٤ ـ نقلت الامارة التنوخية قاعدة الامارة من عبيه الى بتاتر لحماية ثغر الامارة من ناحية السلاجقة، ويتزامن ذلك مع امتداد امارة الحمدانيين الى حلب على يد سيف الدولة وظهور تعاون واستراتيجية عربية لحماية الثغور، وحلف يرمي للتنسيق بين القوى العربية لاستعادة الحكم العربي، وهذا ما سيحل لغز (حجر قمندلون بتاتر)[3]، فقد نقش على هذا الحجر «١٢٥٥ سلامة الانسان حفظ الالسان» وسنة ١٢٥٥ بالتقويم الاسكندري[4] تعادل ٩٤٤ م. أي سنة بدء سيف الدولة لاستراتيجية اقامة دولة عربية واستيلائه على حلب ومجاهدته البيزنطيين في هضبة الأناضول، وأمّا الجملة الآنفة الذكر فتشير الى وجود لغز، وكتمان لسر بالغ الاهمية على سلامة الأفراد والمجتمع، لأنه يتعلق بالأمن الاجتماعي، خوفاً من ردة فعل السلاجقة حكام بلاد الشام الداخلية ودمشق. (راجع الصورة آخر الكتاب).

---

(١) بدأ ظهورها كجماعة في حوالي منتصف القرن الثالث الهجري وقضي على تجمعها في منتصف القرن الخامس أيام المستنصر بالله الفاطمي، وقد قضى عليهم الفاطميون بعد ان هاجموا مكة ودمروها وأخذوا الحجر الاسود (المؤلّف).

(٢) أنظر: تاريخ الاقطاع في لبنان ـ مرجع مذكور آنفاً.

(٣) أنظر كذلك: تاريخ الاقطاع في لبنان ـ مرجع مذكور آنفاً (صورة صفحة ١٠٢) و(ص ١١٢).

(٤) أما استعمال التاريخ الاسكندري فيرمز الى اعتناق الامير معضاد التنوخي للمذهب الفاطمي، فخلافاً للتأريخ المستعمل في كل الآثار التنوخية، والتي تدون بالسنة الهجرية لكونهم مسلمين، أما علاقة ذلك باعتناق المذهب التوحيدي وبالدولة الفاطمية، فلأن الاسكندر الاكبر (بمشروعه الانساني الفلسفي له مكانة خاصة في العقيدة لإيمانها باختلاف الأدوار لاختلاف الأزمنة، واختلاف الشعائر باختلاف الادوار؛ انظر النقط والدوائر ـ الشيخ عبد الغفار زين الدين (تقي الدين) وانظر كذلك الاختلاف بين الامراء التنوخيين حول السياسة الواجب أتباعها (أحداث ١٩٧٥) «تاريخ الاقطاع في لبنان ص ١٤٣» ورسالة بهاء الدين السموقي للأمير معضاد في رسائل الحكمة. والرمز يشير الى احياء مشروع انهاء العبودية وعصر بدء المساواة، سيما وان في رسائل الحكمة رسالة تحرم العبودية تحريماً كاملاً ومطلقاً، إكمالاً لرسالة الاسلام في دورها في نهاية الالفية الاولى. وفشل المشروع العربي.. هو ما يفسر التحول الذي طرأ على شعار التنوخيين من «أسد» في آثار عبيه (قاعدة التنوخيين الاولى) الى أسد مقيد بسلسلة فيما بعد (أنظر الآثار التنوخية في اعبيه وبتاتر وعين عنوب والشويفات وغيرها.

الحضارة العربية في القرنين العاشر والحادي عشر
نضج الشيخوخة أم صحوة الموت

«كل ايديولوجية تقيم حضارة ما هي
نفسها التي تؤدي الى إنهيارها بعد ان تحقق
(الايديولوجية) نفسها في شكل حضاري
معين، وبعد ان تفُرغ أبعادها الايجابية، أي
عندما تبدأ بالعجز عن حل المشكلات
الاجتماعية التي تنشأ عنها»[1].

المؤلف

بلغت الحضارة العربية في القرنين العاشر والحادي عشر أعلى مراحل نضجها وأبهى مظاهر حضارتها. ففي هذين القرنين برزت كل عبقريتها في الفلسفة والعلوم والفنون والشعر والأدب والحكمة وفنون البناء الخ... فأنتجت ما يتجاوز ظروف الزمان والمكان لتأخذ مكانة خلابة في سجل العطاء الانساني الخالد.

وكانت رسالة الاسلام التي انبثقت من روح هذه الامة، بعد ما مهّدته المسيحية بإنسانيتها الرفيعة ومثلها الانسانية الخالدة، كان الاسلام قد شكّل ثورة اجتماعية وثقافية وإنسانية وحضارية، بما يمثّل أعظم ثورة اجتماعية ـ انسانية بالنقلة التي حققها في الوضع الانساني، بإعادة التوازن بين المنجز المادي للحضارة والوضع الانساني، وأعطى أبهى شكل ممكن للعدالة في ذلك الزمن، وفتح أمام الفكر أبعاداً وآفاقاً. تجلّت بعطاءات رائعة، وما زال حتى اليوم (وبعد عصر انحطاط طويل مرت به الأمة) يعطي ايحاءات وومضات لافتة.«وليست ظواهر الاختلاف في مرحلة حضارية معينة الا تعبيراً عن الفعل وردّة الفعل، أي عن ديالكتيك تفاعل هذه الحضارة مع ارادة رفضها». فعوامل سقوط الحضارة تنمو في رحمها، وعلى مبدأ النقائض التي تستدعي بعضها، فإن الحضارة العربية ـ الاسلامية بلغت في هذين القرنين أعلى درجات التناقض في دورتها الحضارية، أي بلغت هذه الحضارة أوج عطائها وانفتاحها الفكري، فبلغت نقائضها بذلك أقصى اتساع لها، ففي مقابل هذا النضج والانفتاح، كان الوجه الآخر للصورة، او النقطة المقابلة هي استدعاء

(١) أنظر مقالنا «الثورة والثوري وشروطهما» مجلة المنابر البيروتية عدد ٢٤، السنة الثالثة، شباط ١٩٨٨، وكتابنا «الانسان والحضارة ـ جدلية المادة والوعي».

النقائض لبعضها[1]، جمود وطقسية وتعصبية في السمة الايديولوجية العامّة للحضارة، ما كان يؤذن باقتراب سقوطها؛ وبتعبير آخر فالحضارة أمست بحكمة شيخ يعاني جسده من داء دخل في مرحلته القاتلة، ولم تُجدِ في عملية محاولتها للتجدد فلسفة أبي العلاء في المشرق، ولا فلسفة ابن رشد في المغرب، ولعل هذا التناقض بين العقلانية الكاملة والغيبية المطلقة، وجد أبرز تجلياته في الدعوة الفاطمية.

وبعودة الى موضوعنا نقول ان الشيخوخة والوهن اللذين أصابا الحضارة العربية انعكسا في تناقضات اجتماعية ودينية ومذهبية ومناطقية، وباختلال جديد بين تطور الانجاز المادي للحضارة والوضع الانساني، تلك الاشتراكات المرضية التي ما زلنا حتى يومنا هذا نتخبط للخروج منها، ما انعكس على الوضع السياسي العامّ للمرحلة.

فعلى امتداد الوطن العربي كانت جولة أخيرة وقاسية بين انتفاضات بقايا الحياة وحشرجات الموت، وتجلّت هذه الصحوة العربية اليائسة في ثلاث كيانات سياسية، الامارة الحمدانية على الثغور الشمالية، والامارتين التنوخيتين في جبل لبنان (في الوسط) والدولة الفاطمية في القيروان التي كان عليها ان تتحمل كل أوزار تلك المرحلة وتحدياتها، والتي طبقاً لمبدأ النقائض تجلّت فيها كل تصرفات عزم الجسم المتهاوي للمحافظة على بقية الحياة فيه. وحيث ان موضوعنا «بلاد الشام» هو في موقع القلب من هذا الجسم فسيكون لهذه القوى الثلاث دور وظهور في هذا النزاع. في الوقت الذي كان فيه العرب بأغلبيتهم الساحقة تحت حكم حكّام آغراب متنازعين على السلطة والثروة، والشعب تمزقه الصراعات المذهبية والجمود الفكري المتنامي، والغيبة المُشلَّة لكل نشاط فعال، أُحبِطَ حتى تخلَّى عن الجهادِ وينتظرُ في نهاية الألفية الأولى المخلّص الآتي من الغيب (الشيعة) أو المتمسك بالطقسية والاتكالية ويرى الخلاص بالابتهال (السنّة)، والأقليات المضطهدة والتي تنتفض للخلاص مما تعانيه الأمة، وتعجز عن التغيير فتزيد البلبلة بالانتفاضات والاغتيالات، والتنظيمات السرية التي تملأ المسؤولين رعباً فتدفعهم الى المزيد من البطش، أو أقليات دينية (مسيحية ويهودية وغيرها)، تضيّق عليها الايديولوجية السائدة الخناق، فتكفر بكل الوضع القائم، فتتقوقع أو تتآمر مع الخارج للتخلّص مما هي عليه من ضيق لعجزها عن تغيير الوضع القائم[2]، أو

(١) أنظر: المرجع السابق، كتابنا «الانسان والحضارة».

(٢) فبعد ان كانت كلمة «أهل الكتاب» في ايديولوجية صدر الاسلام العربي تطلق على أناس تجب شرعاً حمايتهم ورعايتهم، استبدلت بكلمة «ذمي» في عجز الحضارة الاسلامية ـ الشعوبية سيما بين أهل السنة أصبحت كلمة تدل على الدونية الاجتماعية وتتبنى على هذا الوضع مواقف وفتاوى يندى لها الجبين =

تحسين موقعها الاجتماعي والسياسي، وما زالت الأمراض التي خلّفتها الدولة الدينية ماثلة في لاوعي مجتمعاتنا العربية المعاصرة، وتلقي بظلال قاتمة على محاولات الاصلاح الاجتماعي وتنعكس سلباً على وحدة المجتمع وأمنه.

الامارة الحمدانية (٨٩٠ـ١٠٠٣)

٨٩٠ ـ ٩٤٤ في الموصل ٩٤٤ ـ ١٠٠٣ الموصل وحلب والرها والاسكندرونة وأطراف آسيا الصغرى (أنظر الخريطة).

امتدت على الثغور الشمالية للوجود العربي من الموصل والرها، وأطراف جنوب شرقي الأناضول شرقاً والاسكندرية والساحل الشمالي لبلاد الشام غرباً وأعالي ما بين النهرين وبادية الشام جنوباً، وكان أبرز ممثليها سيف الدولة (٩٤٤ ـ ٩٦٢) الذي أمضى فترة حكمه وحتى الرمق الأخير من حياته في جهاد بطولي قلّ نظيره. وفي وقت كان فيه هدف استعادة السلطة العربية بات محرماً لا يجرؤ أحد على المجاهرة به، ولعل أبيات المتنبي التالية تشير الى ذلك:

مغاني الشُعب طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربيَّ فيها ... غريب اليد والوجه واللسان

وفي غمز على خيانة السلاجقة لقضية الأمة يقول المتنبي لسيف الدولة:

وسوى الرومِ خلف ظهرِك رومٌ ... فعلى أي جانبيك تميلُ

ولم يكن المتنبي يبتغي امارة للإمارة، انما في سبيل تحقيق هذا الهدف القومي السامي:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة ... وما تبتغي؟ ما ابتغي جلَّ ان يسمى

وعلق كل آماله على سيف الدولة لتحقيق هدف اقامة الدولة العربية، فأخذ يحرضه على خلع الخليفة العاجز:

ومن يجعل الضرغامَ في الصيدِ بازَهُ ... تصيَّدَهُ الضرغامُ فيما تصيَّدَا

= خجلاً (أنظر: جرجي زيدان ـ تاريخ التمدن اللاسلامي ـ المجلد الثاني ص ١٤٤) أو انتقاصاً لكثير من الحقوق المدنية والحريات الشخصية (أنظر: ساطع الحصري ـ البلاد العربية والدولة العثمانية). أما في المجتمعات غير السنيّة فلم يَسُدْ هذا الوضع نظراً للمعاناة المشتركة التي تعيشها كل شرائح المجتمع مذهبياً. ولكن هذه الصورة على بشاعتها، في القرون الأولى من الألفية الثانية تبقى فيها ملامح مشرقة بالمقارنة مع صورة المسلم من منظار المسيحية ـ الاوروبية في العصور الوسطى. والصورتان معاً تمثلان انحدار المفهوم الانساني والوضع الانساني مع انحدار حضارة الدولة الدينية، وتدل على تناقضها مع رسالتي الاسلام والمسيحية.

وإذا ما أخذنا بالاعتبار أن الخليفة القرشي كان يمثل رمز الدولة المسلمة، وان سيف الدولة لم يكن قرشياً، يمكننا الاستنتاج ان المتنبي لم يكن يهتم بالصفة الاسلامية للدولة، انما بهويتها القومية، سيما وإننا لا نجد في شعر المتنبي ما يشير الى نزعة دينية أو مذهبية. وَوَصفُ المتنبي بأنه كان «مالىء الدنيا وشاغل الناس» يشير لكونه ممثلاً للرأي العام في عصره.

وأملَ المتنبي ان يكون سيفُ الدولة بطل هذا الحكم، ورأى فيه مجاهداً عربياً دون هوادة دفاعاً عن الارض والشعب فنظم بمدحه قصائده التي خلدت الاثنين معاً، فوحّد هدفها المشترك ذكرهما، ولكنه وجد في بلاط سيف الدولة حساداً ومنتفعين يحولون بينه وبين سلطة أرادها لتحقيق هدفه السياسي فغادر بلاط الأمير الحمداني متوجهًا الى مصر، وفي بعض مدائحه لكافور تجد الندم والاستهزاء في معرض المدح، وحينما غادر بلاط سيف الدولة كان يعرف عظم العبء الذي يحمله الامير، ويعرف أهدافه الستراتيجية البعيدة:

يحمِّل سيف الدولة الجيش همَّه   وقد عجزتْ عنهُ الجيوشُ الخضارمُ

ويعود من مصر خائباً تاركاً لكافور «داليته» الهجائية التي سارت ولا تزال على كل شفة ولسان.

أمّا موقفه من باقي حكام الامصار العربية الذين كانوا مماليك وعبيداً عند العرب، فغدوا السادة، يؤلفون الزمرة الحاكمة في كل الأمصار، وهم أولي الأمر والنهي المتحكّمون برقاب العباد ومصائرهم، دون ضمير أو رادع أو حس بمسؤولية عن الارض التي رفعتهم والشعب الذي أكرمهم حتى أذلوه، فكان المتنبي يرى فيهم جاحدي الفضل وناكري النعمة، والسماحة التي حولتهم من عبيد الى حكام، فتجبَّروا على أولي نعمتهم، ولم يكن باستطاعته ان يهجوهم جميعاً، ولسنا نرى بين كل من مدحهم المتنبي من غير العرب الا كافور، ولعل قصده لمصر كان لسبب سياسي، فإذا كان سيف الدولة يحمي الثغور الشمالية فعليه ان يسعى الى إمرة في الجنوب، سيما وان لمصر وزناً كبيراً في قوة العرب، ولكنه لم يجد عند كافور تحقيقاً لهدفه السياسي، ولم يجد فيه أيّ خصلة من شيم العرب التي يمجدها بشعره، فهجا من خلاله كل الحكام على امتداد الوطن:

لا تَشْترِ العبدَ الا والعصا معهُ   ان العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ

وعرَّض بالمصريين الذين ارتضوا أن يتحكّم في رقابهم مثل هذا العبد الذي اغتال سيّده:

أكلما اغتال عبد السوءِ سيِّده أو خانه فلهُ في مصرَ تمهيدُ
صار الخصيُّ إمام الآبقينَ بها فالحرُّ مستعبَدٌ والعبدُ معبود

الوجه الآخر للصورة - الدولة البيزنطية

كانت الحضارة البيزنطية في تلك المرحلة قد شاخت، وأخذت بالترنح تحت ضربات تأتيها من كل جانب وتخوض على الجبهات كافة حروباً لا نهاية لها، تنعكس على أوضاعها الداخلية أزمات اقتصادية واجتماعية وتحكم بها يوتوبيا إحياء الامبراطورية القديمة، ويشتد فيها التعصب الديني المذهبي، وتتهدَّدُها أخطار ليس من المسلمين في جنوبها وشرقها فحسب، انما من وثنيين في شمالها، ومسيحيين من غربها (الكاثوليكية) فكانت محاولات أصلاحها تتوالى، ولكنها وجدت نفسها عاجزة عن الاستمرار ان لم تستعد قوتها، وامتدادها الجنوبي السابق (قبل هزيمتها بالفتوح العربية) حيث كان مصدر قوتها الاكبر، وهو اليوم مثار حقدها الاعظم، وهذا الجنوب يعاني من فراغ سياسي وعسكري وتدبُّ فيه النزاعات والفوضى ولها فيه بقايا جذور، انه الهدف الاكبر، ومصدر القوة والخلاص الاعظم من ازماتها الداخلية والخارجية.

ففي زمن حُكم قسطنطين الثامن (الفترة الاولى ٩٦١ ـ ٩٦٣) وباسيل الثاني (جزار البلغار) برز قائد عسكري من خلال الحروب المتواصلة تجتمع فيه صفات القائد العسكري والمتديّن المتعصب في آن والذي سيتولى فيما بعد الامبراطورية: نقفور الثاني فوقاس (٩٦٣ ـ ٩٦٩) ويتسلم لصفاته هذه قيادة الجبهة الجنوبية بعد انتصاراته على الجبهات الاخرى. ففي عام ٩٦٢ ـ وكان نقفور بعدُ قائداً عسكرياً، كانت طموحاته تتركز في الاستيلاء على بلاد الشام والقدس، وكان لا بد لتحقيق ذلك من القضاء على الامارة الحمدانية (بقيادة سيف الدولة) لتنفتح أمامه سبل السيطرة على الخطوط التجارية لبلاد الشام وساحلها. (وكان الولاة في خلافة المطيع قد تحولوا الى ملوك يحكمون ممالك متنازعة)، فوجّه نقفور جيشه الى الامارة الحمدانية مسدِّداً طعنته الى قلبها، فاجتاز جبال الامانوس التي تفصله عن الامارة وتوجه نحو حلب، فدخلها ومكث بها سبعة أيام فنهبها وخربها ولكنه عجز عن الاستيلاء على قلعتها فانكفأ عنها وعاد الى عاصمته ليتسلم الحكم، وقد أثار ما حل بحلب استياء في الجماهير العربية، حتى حاول أهل بغداد اقتحام قصر الخليفة وقتله لتخاذله فلم يفلحوا[1]، وبعد خروج نقفور رمَّم سيف الدولة جميع الحصون، سيّما حصون انطاكية لأهميتها الاستراتيجية والتجارية.

---

(١) انظر: تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ المكتبة التجارية الكبرى بمصر ـ ١٩٥٢ ص ٣٩٨ وما بعدها.

٩٦٣ ـ بعد عودته منتصراً، نصّب نقفور نفسه امبراطوراً، وأعاد تنظيم الجيش بمصادرة أموال الكنيسة وإصلاح نظام الاقطاع العسكري؛ ووقعت معارك طاحنة بينه وبين سيف الدولة، وأحرز سيف الدولة انتصارات كبيرة، وغنم الكثير بعدما توغل في الأراضي البيزنطية، ولكن اضطرابات داخل الامارة الحمدانية أجبرته على الانكفاء لإخمادها، وتسلّم حنا الأول تزيمسكس (الشمشقيق) أمرة جيش الشرق.

٩٦٤ ـ حاصر تزيمسكس المصيصة فخرج جيش من طرسوس لملاقاته يتألف من ١٥.٠٠٠ مقاتل، فانفك عن المصيصة، وأحرز جيش طرسوس عليه انتصارات باهرة في ضواحي اضنه، ولكن تزيمسكس استطاع إعادة تجميع جيشه وارتد على جيش طرسوس، وبعد معركة طاحنة قتل فيها عدد كبير من جيش طرسوس وفرّ الباقون (٥٠٠٠) تاركين بهائمهم وأغلب سلاحهم واختبأوا من جيش تزيمسكس في إحدى الروابي القريبة فلاحقهم وأفناهم جميعاً، وأخذ المكان اسم «تل الدم» «فغدا رمزاً للرعب والخوف»[1]، ولكن سيف الدولة وصل مع الخرسانيين واستعاد كل ما كان تزيمسكس قد احتله.

وفي ربيع هذا العام جمع تزيمسكس جيشاً كبيراً من الارمن والكرج وجماعات من البنادقة والامالفيّين[2] وافتتح عشرين حصناً لتتفتح أمامه عمق بلاد الشام، ولكن الشتاء أدركه فعاد أدراجه.

٩٦٥ ـ كان سيف الدولة يقوم بإخماد فتنة قام بها اكبر قواده «نجا» فوجّه نقفور ثلاثة جيوش للاستيلاء على المصيصة وطرسوس، بعد ان كان قد أعطاهما عهد أمان فنقضه، واحتل المصيصة وأوقع فيها مذبحة وأسر مايتي ألف من أهلها وأرسلهم الى القسطنطينية، واستسلمت طرسوس فأجلى عنها أهلها وجعل منها مدينة مسيحية[3]، ثم عاد اليها بعض أهلها فتنصّروا. وقامت فتن في ارمينيا وانطاكية ولانشغاله بإخمادها هادن سيف الدولة البيزنطيين بعد ان استولوا على معظم مدن قيليقية، وتبادل معهم الأسرى وافتدى من بقي منهم بـ ٢٠٠ الف دينار بيزنطي[4] في عام ٩٦٦.

---

(١) مسكويه ـ تجارب الامم ج ٢ ص ٢٠٢ والباز العريني ص ٤٧٥.
(٢) الباز العريني، مرجع مذكور آنفاً.
(٣) العريني ص ٤٧٧.
(٤) نفسه ص ٤٧٨.

٩٦٦ ـ نقض نقفور الهدنة، وعاث في عمق مدن بلاد الشام فساداً، فراسله سيف الدولة وتلقى منه بأنه لن يجيبه الا من انطاكية، وحاول سيف الدولة الاستنجاد بأخيه حاكم الموصل، ولكن جيش نقفور كان يسيطر على الطرق ولم يستطع الرسول الوصول الى الموصل، وعزم نقفور على الوصول الى بيت المقدس، وطلب الى سيف الدولة ان يخلي الشام ويعود الى الموصل، كل ذلك ولم يحرك كافور الاخشيدي ساكناً، كما لم يدفع الأذى عن المسيحيين من حنق المسلمين في القدس. وبينما كان سيف الدولة يحصّن حلب، كان نقفور يعيث في بلاد الشام فساداً، وأرسل الى سيف الدولة يعرض عليه تقاسم بلاد الشام فرفض، فتوجه نقفور الى انطاكية وحاصرها ثمانية ايام، وبذل لأهلها الأمان فأبوا تسليمها وحاربوه أشد حرب، فارتد عنها الى الأراضي البيزنطية[1].

٩٦٧ ـ عاد سيف الدولة الى حلب مع الخرسانية استعدادا لمواجهات جديدة، ولكنه توفي في شهر شباط أي في مطالع العام.

المشهد عام ٩٦٧

في الوقت الذي كانت فيه الامارة الحمدانية وبعض القبائل العربية في شمال بلاد الشام وشمال ما بين النهرين تخوض معارك مستميتة للذود عن الثغور الشمالية للأرض العربية، كانت الدولة الفاطمية[2] الناشئة في تونس ومن عاصمتها (المهدية) في القيروان تخوص حرباً بحرية ضروساً ضد الاساطيل البيزنطية والأوروبية، لإبقاء السيطرة على الجزر كقواعد استراتيجية لحماية الثغور البحرية العربية من غرب المتوسط وعلى امتداد شرقه، وتحقّق سيطرة شبه كاملة على أمن البحر المتوسط الذي يشكل الأمن العربي ٧٠٪ منه «وتحوّل هذا البحر الى بحيرة اسلامية» حسب تعبير ابن خلدون[3]، فكانت بذلك تحمي أمن ساحل بلاد الشام ضمن استراتيجيها القاضية بمهاجمة الاسطول البيزنطي والثغور البيزنطية، بالاضافة الى الأساطيل الاوروبية. وفي عام ٩٦٧ كانت الدولة الفاطمية تخوض حرباً على القواعد الاستراتيجية للأساطيل الاوروبية في ايطاليا، بالإضافة لشلها للأسطول البيزنطي «وقد جعلوا الجهاد دعامة من دعائم العقيدة الشيعية»[4]. أما

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨٠.

(٢) الدولة الفاطمية في القيروان (٩٠٩ ـ ٩٦٧).

(٣ و٤) د. عبد المنعم ماجد «العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى» مكتبة الجامعة العربية ـ بيروت ١٩٦٦ ص ١٠٦ وص ١١١ وص ١٢٠.

في الوسط وبين الاثنين أي في مصر وبلاد الشام والعراق فالخلافة السنية متوفاة، والشعوبية تحكم باسم سلطة عربية محنطة لا تملك حفظ أمن قصر الخلافة لولا الحراس الاتراك، وملوك السلاجقة والترك لا يأبهون للخطر المحدق من كل جانب ولا يدفعون شر البيزنطيين على حياة الناس او سلامة الارض رغم مرابطتهم على هذه الثغور الشمالية ويكيدون للفاطميين والحمدانيين باسم حماية الدين، فيتهمون الفاطميين بفساد النسب[1] والعقيدة والحمدانيين باسم خروجهم على سلطة الله الممثلة بالخليفة، ويؤجّجون إرث الصراعات المذهبية للحفاظ على شرعية حكمهم، ويضمرون الحقد على كل ما هو عربي وعلى من هو عربي، وتحظى بذلك الدولة الفاطمية على ولاء مراكز القوة العربية في بلاد الشام، سيّما التنوخيين في جبل لبنان ومنطقة شمال بلاد الشام.

والأحداث المتلاحقة منذ مجيء نقفور فوقاس، تشير الى سقوط الأمن البري سيما الخطر المحدق بأنطاكية التي يرى فيها المعز مفتاح بلاد الشام ومصر البري، لكل هذه الظروف، سيما بعد موت سيف الدولة، يوقف المعز حربه البحرية في ايطاليا ويصرف انتباهه الى الخطر البري المحدق، فيعقد هدنة ثم صلحاً مع الدولة البيزنطية ويوقف حربهما البحرية.

٩٦٧ - يأمر المعز الفاطمي قائده جوهر الصقلي بالزحف نحو مصر واحتلال الفسطاط والقضاء على الدولة الاخشيدية وبأن يتابع مسيره نحو بلاد الشام والوصول الى انطاكية.

ورأى الفاطميون «لا بد من طرد الحاميات البيزنطية التي تحتل انطاكية وسائر المواضع الحصينة في اعالي سورية واقليم الساحل وإخراجهم الى ما وراء جبال طوروس لتأمين وادي النيل»[2].

وينفّذ جوهر الصقلي امر المعز فيستولي على الفسطاط حيث سيبني عاصمة للدولة الفاطمية ويدعوها «القاهرة» وينتقل المعز عام ٩٦٩ اليها، ويوجه قائده الى بلاد الشام.

٩٦٨ - تمكن جعفر، وهو من قادة جيش جوهر، من الاستيلاء على دمشق بعد معركتين حاسمتين في الرملة وطبرية، وقد أمّر جعفر اقليم الغرب

---

(١) علماً ان الشريف الرضي وهو من أبناء البيت كان يكيل لهم المدائح ويؤكد صحة نسبهم. على سبيل المثال أنظر: ابن شامة «كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية» ج ١ - قسم ٢ القاهرة ١٩٦٢ المؤسسة المصرية العامة ص ٥١٥.

(٢) العريني، الدولة البيزنطية ص ٥٥٢.

بما فيه طرابلس وبيروت وصيدا الى الامير سيف الدولة المنذر ابن امير الدولة النعمان بن عامر التنوخي[١] الذي توفي بعد سنتين فخلفه ابنه تميم الملقّب بعز الدولة. وفي هذه السنة وجه نقفور حملة استولت على معرة مصرين، ثم على معرة النعمان وكفرطاب وشيزر وحماه وحمص ثم سار الى عرقة فافتتحها والى طرابلس فأخذ ربضها، وأوقع في هذه المدن والحصون مجازر، فطوّق انطاكية بغية احتلالها ثم ما لبث ان احتلها[٢]. وبلغ هذا الامر جعفر بن فلاح الكتامي القائد لدى جوهر فوجه حملة لتحرير انطاكية، ولكن أهل دمشق السنّة لم يرضوا باستيلاء جعفر عليها (لكون الدولة الفاطمية شيعية) فمضى ابن موهوب الحاكم من قبل الاخشيديين الى القرامطة ودعاهم للحضور لاستعادة دمشق، فحضر هؤلاء الى دمشق ما أضطرّ حملة جعفر الى انطاكية للعودة الى دمشق، وحصلت بين الطرفين معركة قرب أسوار دمشق فانهزم الفاطميون وقتل فيها جعفر ثم زحف القرامطة الى الرملة فاستولوا عليها كما استولوا على المناطق الواقعة بينها وبين دمشق، ولكن صيدا والامارة التنوخية في جبل لبنان بقيا خارج سيطرتهم. «أمّا مدن الساحل فقد بقيت تحت سلطة الفاطميين»[٣]. وكان والياً عليها من قبل الفاطميين ابن الشيخ.

٩٦٩ - وتغير الموقف في الشام بعد ظهور هفتكين من قبل العباسيين وأيده أهل السنة بدمشق، وأراد بسط سلطته على بعلبك والساحل فهاجم ابن موهوب في بعلبك وفر ظالم ابن موهوب والتجأ الى الامير تميم بن المنذر التنوخي، وكتب الى المعز الذي أمره بالإقامة في صيدا[٤].

٩٧٢-٩٧٣ - استغل تزيمسكس أحداث الشام، فوجه حملة كبيرة هدفها احتلال بيت المقدس، وهاجم أهل بغداد قصر الخليفة فسُدَّ دونهم ولكن بنو تغلب وبنو حمدان هاجموا البيزنطيين على نهر دجلة فهزموهم وأسروا قائد الحملة.

٩٧٤ - هاجم تزيمسكس بني حمدان وبني تغلب، مع جيش أرمني، فاضطر أبو تغلب لمهادنتهم.

---

(١) د. عبد العزيز سالم - دراسة في تاريخ مدينة صيدا - منشورات جامعة بيروت العربية، ص ٦٨.

(٢) العريني - مرجع مذكور سابقاً ص ٤٨١ - ٤٨٢.

(٣) سالم ص ٦٨ - ٦٩.

(٤) وينقل عن المعز قوله «انه ما سار الى الشرق طمعاً في ملك أو جاه، انما للجهاد ووقف خطرالروم» - تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى» د. عبد المنعم ماجد، ص ١١٦.

٩٧٥ ـ استولى تزيمسكس على الثغور فاحتل أغلبها ثم زحف من انطاكية الى حمص فافتتحها وتابع بعلبك فأخضعها ونهبها، وانتشر جيشه في البقاع يأسر وينهب ويحرق، ثم اتجه الى دمشق فاضطر هفتكين للدخول في طاعته ودفع له أموالاً، ومن دمشق اتجه جنوباً فمرّ بطبريا فاستسلمت له وأعطته مالاً، ثم تابع زحفه الى الناصرة فبيسان وعكا وقيسارية، ثم ارتد شمالاً الى بيروت بدل الاتجاه لبيت المقدس، وارتد منها جنوباً الى صيدا[1] وأتاح ذلك لهفتكين في دمشق ان يعيد الدعوة للعباسيين، واستسلمت صيدا ودفع لتزيمسكس مالاً وأعلنت ولاءها له[2]، فانسحب وأراد هفتكين محاربة الفاطميين فاستنجد بالقرامطة فوافوه، فزحف الى الرملة، فانسحب أبو محمود ابراهيم بن جعفر بن فلاح أمير دمشق السابق من قبل الفاطميين من الرملة الى يافا وتحصّن بها، فعزل القرامطة والعباسيون الرملة، وحينها توفي المعز الفاطمي وتم استخلاف ابنه العزيز بالله فاطمأن القرامطة من ناحية مصر وعزموا على احتلال ساحل بلاد الشام.

هذه الأحداث مجتمعة تشير الى صراع دولي على بلاد الشام متعدد الاطراف، ولكن ضمن هذا الصراع هناك نهجان متناقضان:

الأول وتمثله سياسة الحمدانيين وبعد ضعفها سياسة الفاطميين، وتقضي هذه الاستراتيجية وهي استراتيجية ترمي الى الدفاع عن الثغور الشمالية وقاعدتها انطاكية، أي الدفاع عن المصالح القومية والدفاع عن الشعب والارض.

الاتجاه الثاني: عدم الاكتراث بما يحدث في شمال بلاد الشام، إنما التنازع الداخلي بأيديولوجية مذهبية، او لتوسيع رقعة الدويلات والامارات المتنازعة، لنهب ما تبقى من ثرواتها وللجاه والنفوذ، وهو ما تمثله سياسة الاخشيديين والسلاجقة (أي ممثلي الخليفة العباسي السني) والذين لا يتورّعون عن التحالف مع البيزنطيين (وهو ما يمثل عوامل الانحطاط الذي انتهى فيما بعد الى قيام الدولة العثمانية (الدولة السُنِّيَة) وليس (السَنيَة) كما تقرأ خطأ. ومن هنا أجرؤ على التقرير ان وقف الاجتهاد في المذهب السني وتمسكه بالنص وجمود الفكر

(١) تاريخ صيدا ص ٧١.
(٢) نفسه.

أي (الدولة الدينية الرافضة للتطور) هي في أساس سقوط الحضارة العربية ـ الاسلامية، والمسؤولة الاولى عن التخبط الذي ما زلنا نعانيه حتى اليوم من انقسامات دينية وطائفية.

أما القرامطة، فمشروع غير واضح النظرة الاستراتيجية، وبالتالي فشل.

كان على التنوخيين ان يتخذوا موقفاً من هذا الصراع، فدب الخلاف بينهم كما سنرى.

١٩٧٥ (التنوخيون) ـ «انقسم التنوخيون نتيجة هذا النزاع الى فريقين كل منهما انحاز الى فريق، ووقعت معارك بين الفاطميين والقرامطة في يافا وعاد هفتكين الى صيدا.

«وفي هذه السنة استنجد ابن الشيخ وابن موهوب بالامير ابن الحسين بن محمود بن ارسلان (التنوخي) وسار الى هفتكين، وتواقع مع ابن الشيخ وابن مرهوب فهزمهما فسارا الى الامير تميم فأخذهما وحاصر برجاله في شقيف تيرون، وولى هفتكين الامير درويش (التنوخي) بيروت وجبل الغرب (امارة الغرب التنوخية) ولقب فخر الدولة فدخله (الجبل) على غير استواء، ثم ان هفتكين رحل عن صيدا طالباً عكا، وقد وفد عليها عسكر العزيز، فتفرق أصحابه (هفتكين) عنه وعاد الى دمشق متحصناً فتبعه القائد جوهر (الصقلي) وكتب الى الامراء التنوخيين يدعوهم اليه فوافوه الى المعسكر خارج دمشق، فولّى الامير تميماً عمله ووعده بالنجدة فرجع، وقد تحزب مع الامير درويش جمع كبير فلم يتمكن من الاستيلاء على الامارة. ولما اشتد الحصار على هفتكين في دمشق ضعف حزب الامير درويش، ثم ورد الخبر بقدوم القرامطة لنجدته، فاختل الامر وانقلبت الاحوال. وأخيراً تم الامر بين امراء الغرب على ان يقسموا البلاد ويقيم كل في شطره، فاجتمعوا في طردلا وتشاطروا البلاد، وهذه اسماؤهم (...) من ولد الامير فوارس بن عبد الملك[١] و(...) من ولد الامير عبدالله بن النعمان، وكتبوا بينهم الصكوك بأن لا أحد يتعرض للآخر وأقام كل في شطره»[٢].

واستقر هذا الصراع الاقليمي ـ والدولي على وقوع بلاد الشام وساحلها بقبضة الفاطميين ما عدا انطاكية التي بقيت بيد البيزنطيين.

---

(١) هؤلاء حالفوا الفاطميين، ثم ما لبثوا أن تلقوا الدعوة الفاطمية (الجهادية سياسياً) وأصبحوا من أتباع مذهب التوحيد، وما لبث كل التنوخيين ان اعتنقوا المذهب، وقد وردت فيما بعد رسالة من رسائل الحكمة بتولية الامير أبو الفوارس معضاد الفوارسي (من بني فوارس بن عبد الملك) على رأس الدعوة. انظر رسائل ا لحكمة، وكتابنا «تاريخ الاقطاع في لبنان» مرجع مذكور آنفاً ص ١٤٤.

(٢) الشدياق ص ٥٠١.

الفصل الخامس

سقوط الحضارة العربية

حروب الفرنجة[1]
أو الصراع على خط ساحل بلاد الشام التجاري
(آب ١٠٩٩ ـ ١٢٩١)

اوروبا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر

عام ٤١٠ م سقطت روما على أيدي القوط الغربيين Wisigoth، ولم تلبث ان سقطت رافنا، فانتهت بذلك الامبراطورية الرومانية في الغرب بعد ان كانت هذه الامبراطورية قد اعتنقت منذ مدى غير بعيد الدين المسيحي. وتدب بعد ذلك فوضى، فقد وصلت ارستقراطية حديثة العهد بالمسيحية من شعوب غريبة عن المسيحية وحضارتها، ولم يبق من هذه الامبراطورية بعد ستة قرون في عاصمتها الغربية إلا ذكرى مجد غابر، وآثار تدل على ثروة وغنى وحضارة مزدهرة بفعل سيطرتها على ثروات المستعمرات وطرق التجارة.

صحيح أن الامبراطورية الرومانية تحمل في الذاكرة الكنسية والشعبية ذكريات تعذيب المسيحيين واضطهادهم، ولكنها في اللاوعي الاجتماعي بدّدت بسقوطها حلماً كان واعداً. فلم تكد المسيحية تنتصر، فتمتلك الغنى المادي من خلال سيطرتها على الامبراطورية حتى تسقط الامبراطورية تحت أيدي «البرابرة»، ثم لتكمل سقوطها بعد قرنين في الشرق على ايدي «الكفرة» المسلمين، كان هذا الانطباع السائد لدى جمهرة مسيحيي الغرب في ظل جهل شعبي مطبق، وعصبية عمياء.

وفي غرب القارة (اسبانيا) تقوم حضارة مزدهرة يتمتع بها «الكفار» (المسلمون) ويسودون على أرض المسيحية؛ أما معارف هؤلاء «الكفار» فهي مرفوضة قطعاً، فهي بلغة لا يعرفونها، والنفس والعقل في وسط القارة يرفضانها رفضاً تاماً. ومن يترجم فكر هذه الحضارة مصيره الحرق، أليس ذلك ما أصاب مترجم كتاب لابن رشد؛ أمّا

---

(١) التسمية العربية لما دعاه الغربيون «الحروب الصليبية».

في شرقها «فالهرطقة» الارثوذكسية «الدولة البيزنطية» بالنسبة للغربيين، هزمت على أيدي «الكفرة» فهذه الهرطقة تحمل في اللاوعي الشعبي مسؤولية سقوط المسيحية وعجزها عن مواجهة «الكفار» لخروجها على الايمان «السليم».

وكل من كتب عن اوروبا العصور الوسطى ينوّه بوجود حنين لدى الشعب بأسره بذكرى الامبراطورية القديمة والتوق الى إحيائها. وبعد ستة قرون لم يبق من الامبراطورية المتوفاة الاّ «نوستالجيا» (الحنين) والنوستالجيا تحمل من رغبات الذات المكبوتة أكثر مما تحمل من ارتباط بحقيقة الموضوع.

الوضع الاقتصادي والاجتماعي والوضع الانساني «القنانة وعسف الاقطاع والارتباط بالأرض وحدود الاقطاعة، بعد ذكرى الامبراطورية العالمية الفسيحة، كل ذلك ينيخ على صدور «المؤمنين» الطبقات الشعبية، تغذيه نوستالجيا لعصر امبراطوري وحلم «الجنة الارضية» المسيحية. التي اغتيلت على أيدي الاغراب وعلى أيدي أبنائها؛ ومقاومة السلطة الجائرة والعاجزة عن بعث هذا الحلم تحرّمه الكنيسة المتحالفة مع الاقطاع والمستفيدة مثله من نِعَم الوضعِ السائد، وبين ظهراني هذا المجتمع تعيش طبقة «ثرية للغاية» اليهود في المدن الصغيرة المتناثرة "Bourge" بما هم عليه «اليهود» من ثروات التجارة مع الشرق.

التوق للخلاص يجد متنفّسه في الوعي الشعبي في الاقتطاع من لقمة العيش لمصلحة النذور وإقامة الصلوات، وفيما بعد شراء صكوك الغفران ولو بالتخلص من المقتنيات الدنيوية القليلة أملاً «بملكوت الله» بعد ان أصبح الواقع يعبر عن انسحاق لا يطاق. كل ذلك جرى في ظل فظاظة في الواقع والفكر لا تمتّ بصلة الى حقيقة المسيحية، فليس على الارض سلام، ولا في الناس محبة، ويبقى الخلاص بمرضاة الله الذي في الأعالي، «وبملكوت السماوات».

هذا الانسحاق واليوثوبيا الناتجة عنه، وتلك الايديولوجية الاجتماعية يحمل همومها فنّان ذلك العصر، فجاء فنه يحمل في جماليته تشويشاً وفظاظة.

لقد وصف غوته الفن القوطي الذي نشأ في تلك الفترة عندما رأى للمرة الأولى كاتدرائية ستراسبورغ بقوله: «غير منسقة، اصطناعية، مصنوعة، مثقلة بالأحمال، مشكّلة من قطع وأجزاء»؛ أما بالنسبة للفنان الايطالي فاساري الذي أعطى لهذاالفن لأول مرة اسمه «الفن القوطي» فكانت هذه التسمية مرادفة بالنسبة اليه وإلى زملائه لكلمة «متوحّش» "Barbare"[1].

(١) Ursula Hatjé, Trente siécles d'art, - Librairie Hachette 1963, p. 195.

فبعد ان كان الفنان في العصر الوسيط (الاعلى) L'art Roman يعكس إبداعُهُ الاعجاب بالفن الروماني مطعَّماً بالفن العربي بالزخرفة والقناطر المتراتبة والحجارة الملونة يغلّفها الفكر المسيحي (المذبح والتصميم في الكنيسة الامبراطورية في اكس لا شابل بالمقارنة مع جامع قرطبة العربي ـ الاسلامي)، فَقَدَ الفن الاوروبي في القرن الحادي عشر طابعه هذا، ليحل محله تقليد للقنطرة العربية المؤلفة من تلاقي قوسين حادّين على ارتفاع شاهق مع ضخامة غير مألوفة في البناء، من حيث الارتفاع والضخامة المبالغ فيها للأعمدة.

في زيارتي اليتيمة لباريس في مطلع السبعينات، وقفت منذهلاً أمام الجمال الفظ لكنيسة «نوتردام» (القوطية) متأمِّلاً مكوِّناتها، من الداخل والخارج، وممعناً في التأمل والتفكير في مدلولات هندستها وتماثيلها، وفيما قصده الفنان من ترميز في فنه، معبراً عن ايديولوجية عصره؛ فأول ما يلفتك في الخارج والداخل ارتفاعها الشاهق وضيق وارتفاع نوافذها التي على ارتفاعها، لا تسمح إلا بنور قليل، وضخامة حجارتها وعواميدها، وقلة ارتفاع أبوابها بما لا يتناسق قط مع ارتفاع البناء. وأول شعور يساورك هو الانسحاق والقزمية، اللذان يرمزان الى قزمية الانسان أمام ما يمثل منظور جلال الله وقدرته، وشدة جبروته في ايديولوجيا العصر، والأبواب المبالغ في وطوئها بالنسبة لهذا البناء الشامخ، توحي اليك بكلمات القديس توما الاكويني «اجهدوا في الدخول من الباب الضيق»؛ وعلى هذه الواجهة وفي أعلاها تماثيل عديدة تمثل جبروت الشيطان وإغراآته وسوء المصير الذي يدعوك اليه، وفي وسط هذا الحشد الكبير من الرموز المخيفة، يقف ملاكان بوجه سمح وبجناحين تمكنهما من الارتفاع الى الأعالي ينحنيان أمامك ببشاشة وتواضع ليشيرا اليك للدخول من «الباب الضيق»، وعندما تلج الباب الضيق ملبياً هذه الدعوة هارباً من الشرور المتربصة بك إن تجاهلت الدعوة، تصل الى قاعة شديدة الارتفاع والسمو فسيحة الارجاء (انها ملكوت الله) ولكنك في الوقت عينه تحسّ بالانسحاق والقزمية أمام ضخامة الاعمدة وعظمة المبنى؛ الضخامة التي كانت تشعرك بالانسحاق أمام عظمة السلطة في العمارة الرومانية، تشعرك بهذا الانسحاق عينه إنما أمام عظمة الله وملكوته الفسيح وقدرته الجبارة.

ومع ذلك كله، فقلة عرض رواق الكنيسة بالنسبة الى طولها، وتقسيمات وضع مقاعدها، تجعل المكان بأسره مخصصاً لعدد قليل من الناس في كل صف من الصفوف الطويلة لمقاعد الكنيسة، فكل صف عرضي لا يتسع إلا لعدد قليل، والفواصل كلها تشير الى الطبقية، وعدم اتساع المكان القريب من المذبح، الا

لتراتبية في المجالس تبدأ بكبار رجال المجتمع والكنيسة ولا تترك للعامّة إلا الاماكن الأشد بعداً عن المذبح، ولن أستطرد اكثر لأننا لسنا في مجال بحث للفنون، انما في مجال تصوير ايديولوجية عصر، لفهم المناخ النفسي الذي أدّى الى «حرب الفرنجة» الحروب الصليبية، بغية تفسيرها وتعليل ظروفها، انما أريد ان أشير قبل الختام الى الجوامع في عالم على تماس مباشر بهذا العالم الذي وصفناه، أي في العالم الاسلامي، فالجامع يقع فيه المحراب في وسط الحائط الطولي للمسجد، ما يجعل الصف الاول والصفوف التي تليه أوسع من ان تكون لطبقة واحدة، وأقرب الى مكان الصلاة، ما يعبّر عن مساواة وحميمية أكثر مع العقيدة، كما وان نعومة الاعمدة والزخارف وقلة ارتفاع المبنى، إلا المئذنة التي ينادي منها المؤمنون لإداء شعائر العقيدة، كل ذلك لا يمثل انسحاقاً وقزمية في إحساس المؤمن، إنما شعوراً بالمساواة والرحمة. إنه الفرق بين ايديولوجيتين تدخلان ساحَ الصراع، اي بمجموع الافكار السائدة في ذلك العصر، وليس بالفرق بين دينين. فالمعتقد المسيحي الشرقي المحب والمسامح والداعي للمساواة والتوزيع العادل للثروة [الاشتراكية في ظل الكنيسة التي تتولى استلام الناتج الاجتماعي لإعادة توزيعه حسب الحاجة وبالتساوي بين المؤمنين، هذا الشكل الاول الذي تجسد عملياً لقرنين بكل شفافيته ونقائه، وبكل روح التسامح والتقشف الذي يمثله (أعطنا خبزنا كفاف يومنا)] كان قد سقط تدريجياً حين اتحدت السلطتان الدينية والزمنية بشخص الامبراطور في الشرق، وأصبح البابا في الغرب نظير السلطة بأبهتها وغدا حليفها والطامع بها، كانت اليوتوبيا التي أوجدتها المسيحية قد سقطت بالقوة، وان تكن قد احتفظت في المشرق في ظل ثقافة الشرق القديمة والثقافة الهللينيستية ببعض ملامحها الباهتة، فلم تتمثل في الغرب في العصور الوسطى إلا بفظاظة «البرابرة».

الدولة العباسية الإسلامية في مطلع القرن الحادي عشر

أو المنظر من الزاوية المقابلة.

وفي الزاوية الأخرى من الصورة، تبدو الحضارة الإسلامية كعجوز ثريّ ما زال يحتفظ برونق مظاهره وثراه، فهي وإن كانت قد بدت فيها حكمة الشيوخ، فهي تشبه الشيوخ كذلك في تراخي عزمها، وتراجع إرادتها، وبدأت تعاني تصلّب شرايين الرأس فإن تكن ايديولوجية الغرب المسيحية قد أحرقت مترجم كتب ابن رشد، فعلى تخومها في الغرب، وبعد وقت غير طويل، أحرقت الايديولوجية الاسلامية كتب ابن رشد ونفته من وطنه وكفَّرتْه، وهو قاضي القضاة والعالم الديني، وكاد

بذلك كل عطائه ان يضيع. أما في المشرق فيسود الترف الى جانب الوهن والترهّل، والجسد الذي بات يعاني «اشتراكات» في وضعه الصحي.

انه صراع بين حضارتين شاختا وتفتقدان العقلانيّة، مع فارق ان إحداهما تمرّ بمرحلة نزع لتتحفّز لانطلاقة جديدة فتسعى وراء اكتساب العقلانية من غربها، وأخرى تتحفز ليقظة النزع الاخير لتدخل الى غرفة التحنيط، برفضها إرتشافَ اكسير الحياة. انها حضارة قررت ان تنتحر، وتذكِّرك باختيار سقراط الانتحار بارتشاف كأس السم، وكان بذلك كأنه يشرب السم بالنيابة عن الحضارة اليونانية التي لم يطل ازدهارها بعده، فما لبث ان تراجع عطاؤها الحضاري وانتهى الامر بسقوطها الابداعي والعسكري والسياسي.

فالمرحلة الاولى وهي مرحلة النقاء الثوري الاول و(دولة الرسالة)، أصابها داء سريع، وتمثلت أزمتها القاتلة بالصراع بين الواقع والمثال، ولعل أول من رأى الآفة وتنبأ بها أبو ذر الغفاري، حين زار بلاد الشام ومعاوية بعد والٍ عليها فصاح، حين رآه بثياب الخز ومظاهر الابهة «أكسروية يامعاوية!» وقد ماتَ ثلاثةٌ من خلفائها الأربعة غيلة (عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ـ وعلي بن أبي طالب).

وأماّ المرحلة الثانية وهي مرحلة الدولة «العربية ـ الاسلامية» فقد فقدت النقاء الأولي للرسالة بمجرد قيامها، إنما بقيت فيها سماحة صفتها الاولى العربية بتأصل حرية المعتقد وحرية الفكر، هذه الصفات الاصيلة في البادية العربية، ومسيرة خلفائها سيما منهم ثاني العمرين «عمر بن عبد العزيز» هي الصورة المشرقة لهذه المرحلة. ولكن الصراع السياسي ـ المذهبي الذي تحول الى صراع مذهبي فيما بعد، من ناحية ، وصراع القوميات، كما في كل امبراطوريات التاريخ، وصولاً الى الاتحاد السوفييتي في أواخر القرن المنصرم، وتداخل هذين الصراعين، أسقط هذه المرحلة وأوجد مرحلة جديدة. ويتحمّل الصراع السياسي ـ المذهبي المسؤولية في اعتماد العرب فيما بعد على الاتراك السُنّةْ لحمايتهم، ما أسقط تدريجياً الصفة العربية للدولة. ففي المرحلة العباسية الثالثة وبسبب الانحسار التدريجي لسلطة العرب في الدولة العباسية، فقد قضي على روح الحضارة العربية الاسلامية وهي أحد أهم السمات التي ميزت انسانيتها وساعدت على اتساع انتشارها، وارتكزت عليه في قيامها وهو ان «لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى»، فقد أعطى هذا الشعار لهذه الدولة قوة وبهاء كبيرين، ولكنه سرعان ما أفقدها أهم مرتكزاتها الحضارية والمعتقدية، إذ خرجت هذه الرسالة من جذورها التاريخية حين خرجت من يد العرب، الى يد الاتراك والفرس والديلم الخ... «... إلا ان البعض منهم (الموالي)

أصبحوا ـ كما يحدث غالباً في مثل هذه الحال أشدّ عصبية للاسلام من العرب أنفسهم، بحيث بلغت غيرتهم حد التعصب فاضطهدوا غير المسلمين.. وقد كان أشد المسلمين تعصباً اولئك النصارى واليهود الذين دخلوا الاسلام»[١].

فهذه الشعوب لم تكن تحمل الارث الحضاري السابق نفسه الذي يمثل روح الرسالة[٢]، التي تمثلت بـ «وقد كنتم خير امة أخرجت للناس» و«انا انزلناه قرآناً عربياً»، فبدأت الحضارة الاسلامية بظل حكم هؤلاء وإرثهم الثقافي، تتحول الى حضارة تتمسك بظاهرالاسلام وغدت ايديولوجيتها طقسية وتعصبية لا دينية وحسب بل مذهبية، هذا الداء (المعدي) الذي استشرى في عصر المماليك، وأدخل الحضارة في مرحلة موت وتحنيط في ظل الامبراطورية العثمانية. ففي رحم الدولة العباسية (السُنِّية) بصفتها دولة أممية ترتكز على الاسلام، بدأت المزايدة في اظهار الطقسية الاسلامية تقضي على الجو المناسب للإبداع (حتى في الفكر الديني)، وكذلك فتتت الصراعات المذهبية والدينية والقومية (أي الحركة الشعوبية) الدولة وقضت على مركزيتها بنشوء الامارات التابعة اسمياً لها، والمتمادية بالتمسك بالطقسية الاسلامية لإثبات شرعيتها، واتخذت الولاء الاسمي للخليفة القرشي غطاء لها. في هذا الجو الايديولوجي، بالإضافة للترف الاقتصادي الاجتماعي الناجم عن غنى المجتمع وتراكم الثروات لسيطرة دولته الموحدة، ثم دويلاته على قلب طرق التجارة العالمية، والطبقية الاقتصادية والاجتماعية المتعددة الاشكال والناتجة عن تكدس الثروات ،وتوالي النزاعات وتعدد الجنسيات. يضاف الى ذلك كله ويكمن كذلك وراءه تطور وسائل الانتاج وازدياد عدد السكان، وتقادُم النظام الاقتصادي الاسلامي فيما يتعلق بمشاركة المجتمع بفائض انتاج السلع والضرائب على الثروة عن طريق الزكاة وغيرها من موارد خزينة الدولة، وتخلفه عن حلّ معضلات الواقع المستجد، وفساد الحكام ونهبهم لثروات الدولة، والانحلال الاجتماعي الناتج عن الترف والطبقية الاجتماعية، كل ذلك (هذه الاشتراكات المرضية) أدى الى الترهّل والانحلال اللذين أصابا المجتمع وفتّتا وحدته التي كانت سرّ قوته. في هذا المناخ، تفتّحت أعين المجتمع الاوروبي ووجدت أطماعه المناخ المناسب للاستيلاء على خيرات موقع دويلات وإمارات متنازعة في ظل حضارة شائخة ومترهّلة، انه التدمير الذاتي الذي أصاب الحضارة العربية الاسلامية Autodestruction.

(١) فيليب حتي، ادوارد جرجي ـ جبرائيل جبور «تاريخ العرب» ـ طبعة دار الكشاف ١٩٦٥، ويرى جرجي زيدان في كتابه تاريخ التمدن الاسلامي الرأي نفسه.

(٢) انظر مقالنا «المسألة اللبنانية والتدخلات الاجنبية» مجلة الرؤية ـ العدد ١ ـ السنة الأولى ١٩٩٠.

الظروف الممهِّدة لغزوات الافرنج (الصليبيين)

في عهد القائم العباسي ١٠٣١ ـ ١٠٧٥ سيطر السلاجقة على بغداد نفسها ونودي بطغرلبك سلطاناً بعد أن انقذ الخليفة من السجن فأطلق الخليفة عليه لقب سلطان وتزوج بابنة الخليفة قسراً عنه، مملوك يتزوج بابنة الخليفة، ما اعتبره المؤرخ السيوطي (السُنّي) صاحب كتاب تاريخ الخلفاء موتاً للدولة العباسية فكتب «إنا لله وإنا إليه راجعون»[1]، فأصبحت امبراطورية سلجوقية وان كان لقب الدولة العباسية ظل يطلق عليها.

أما في مصر، ففي عهد الخليفة الظاهر الفاطمي ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ استولى السلاجقة على أراضي الدولة الفاطمية في بلاد الشام ووصلوا الى حدود مصر، وسقطت كما ذكرنا بالقوة الدولة العباسية. وبانتقال ساحل الشام الى يد السلاجقة ضعفت الدولة الفاطمية وبدأت بالتقهقر حتى سقوطها النهائي ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠ م على يد صلاح الدين الأيوبي، الذي كان قد استبدّ بالحكم على عهد آخر خلفائها، وقضى على كل القوى المؤيدة لهذه الدولة، مستعيناً بوزيره قراقوش(أي الغراب الأسود) ما أدى الى انتحار آخر خلفائها بتناوله السم وهو الخليفة العاضد ١١٧٠ م.

وبذلك انتهى الحكم العربي لمصر وبلاد الشام وغدا الخليفة العباسي القرشي (رمز الاسلام على مدى ما يزيد على أربعة قرون) غطاء لسلطة غير العرب. وبسقوط العراق ومصر بيد غير العرب سقط الأمن العربي كله على مدى ثمانية قرون وعلى امتداد الوطن العربي، فلم تعد الأرض العربية تعني شيئاً لهؤلاء بل مصالح ممالكهم ومصالحهم،وما زلنا حتى يومنا نعاني ذيول هذا السقوط والتفكك، فإذا كانت بلاد الشام بمركز القلب، فمصر والعراق هما ضمانة هذا الأمن. كما ان المغرب هو مصدر أمن مصر وقوّتها. أمّا شبه الجزيرة فليس موطن العرب الاصلي وحسب انما هو كان وما زال عمقهم الاستراتيجي الكبير.

ولعلّ من أهم الأسباب التي أدّت الى صعود الدولة الفاطمية وسقوطها، والتي أهملها المؤرخون، هي القوة البحرية لهذه الدولة، فقبل قيامها كان الفرنجة يسمون البحر المتوسط Mara Nostrum أي بحرنا، وغدا اسمه بعد جهادها البحري يعرف باسم «بحر العرب» ولكن تراجع البحرية الفاطمية، ثم العربية في المغرب بعامّة، بعد دخول النورمانديين وسيطرتهم التدريجية على البحر، أدى الى استيلائهم على

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ـ طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة ـ ١٩٥٢. ص ٤٢٠.

شرق المتوسط وبالتالي على حصة كبيرة من خيرات التجارة العالمية، فتراجعت قوة الدولة الفاطمية، وبدأ عجزها في الدفاع عن مواقعها في البحر بعد خسارتها قوتها البحرية(١). وليس من قبيل الصدفة، أن يكون تطور الاساطيل البحرية الغربية والاستيلاء على كريت، العامل الممهِّد للانتصارات البرية فيما بعد.

وتعتبر حملات حنا تزيمسكس الاول هي البدايات الاولى لانتصارات الفرنجة والتمهيد الاول لها، وإن يكن المؤرخون قد اعتبروا أن عام ١٠٩٩ وهو العام الذي وصلت فيه الحملة الغربية الصليبية الثانية الى بلاد الشام هي بداية هذه الحروب.

ولقد أوضحنا فيما سبق كيف ان الايديولوجية الاوروبية في هذا الزمن كانت ترتكز على ثلاث سمات رئيسية: ١) التعصب الديني ٢) الحلم الامبراطوري ٣) الانسحاق الشعبي السياسي والمادي، الذي تستهويه فكرة امبراطورية مسيحية غنية تحقق أحلامه. ولعل عاملاً رابعاً وهامّاً لعب دوره وهو رغبة الكنيسة الغربية بتحقيق سيادتها على الرعايا المسيحيين كافة والقضاء على الكنيسة الارثوذكسية ودولتها، حيث كان الامبراطور الشرقي، كما سبق وأوضحنا رئيس الدولة والكنيسة، بعد ان تم الفصل بين الكنيستين عام ١٠٥٤.

وكذلك في الشرق كانت الصفة الاسلامية للدولة أصبحت هي الطاغية، والمزايَدة بالتزام طقسية الاسلام بين القادة الشعوبيين (غير العرب) أضحت هي مقياس شرعية الحكم والدولة. فالدولة الدينية هي الامر الحاسم المسبب للتدمير الذاتي Autodesturction للحضارة العربية، والتي ما نزال حتى اليوم نعاني ذيول الأمراض التي خلّفتها من طائفية ومذهبية، وحتى مناطقية، بعد ان كانت قد حققت حضارتها المزدهرة(٢).

وكذلك، كان الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٩٦ - ١٠٢٠)، وباجتهاد مذهبي - إسلاميّ خاص، قد عمل من خلال «دار الحكمة» في مصر على نشر مذهبه «التوحيدي»، الذي يرى ان دعوة التوحيد متكاملة من بداية ظهورها مروراً بـ «الديانات السماوية» وجميع رُسلها وأنبيائها وكذلك بالفلاسفة الذين دعوا للتوحيد، دعوة متكاملة، تختلف فيها الشرائع والناطقون حسب الأدوار واختلاف الزمان؛ فدعا الى نقض أقوال كل أهل الظاهر والباطن وإلى اتِّباع مذهب «التوحيد»، فكفَّر،

(١) ارجو ان يتنبه الباحثون بعدي للأهمية الستراتيجية للسيطرة البحرية منذ بدايات العصور الوسطى سيما ان بريطانيا بعد البرتغال واسبانيا أصبحت سيدة البحار، وورثتها مؤخراً الولايات المتحدة. أما أنا فقد استوحيت هذا الموقف من نظرة سريعة على كتاب «تاريخ البحرية الاسلامية» في المغرب والاندلس - د. عبد العزيز سالم ود. مختار العبادي - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٦٩.

(٢) انظر كتابنا الانسان والحضارة - جدلية المادة والوعي - مقال في الثورة.

ككلّ المذاهب الأخرى، كلَّ من لا يتفق مع مذهبه في الاسلام، لتمسّك بعض المذاهب (السنة) بظاهر النص، وتأويل بعضهم للآيات (الشيعة) أهل الباطن، ورأى الصواب و«الفرقة الناجية» في اتباع مذهبه التوحيدي، وألغى إلزامية الفروض، وان جعلها مستحبة مستعيضاً عنها بـ «المسلك التوحيدي ـ الاسلامي». وحرم بالنص الرق تحريماً كاملاً.

أمّا فيما يتعلق بموقفه من أهل الكتاب (المسيحيين واليهود)، فقد دعاهم للإقلاع عن طقوسهم ومعتقداتهم والالتزام بوعد قال انهم قد وعدوه لجده النبي بأن يلتحقوا بالاسلام، بعد ان انقضت المهلة التي طلبوها من جده «النبي محمد»، واعتناق مذهبه التوحيدي ـ الاسلامي ـ العقلاني، فلما أبوا، اعتبر الحاكم ان تقديسهم للصليب وقولهم بألوهية السيد المسيح من مذاهب الظاهر (ربما بعودة الى الكنائس الشرقية القديمة) فاعتبرهم من أهل الظاهر، وأمر بتكسير الصلبان، وهدم كنيسة القيامة، وغير ذلك مما اعتبره خروجاً على التوحيد وكفراً، وأمر بأن يرتدي المسيحيون واليهود ألبسة خاصة لتمييزهم، ما اعتبره المسيحيون، سيما الغربيون منهم اضطهاداً للمسيحيين.

كانت نهاية الألفية الأولى، وتصادف حصول ظواهر طبيعية متكررة من زلازل وغيرها، وكانت كل الاديان والمذاهب تنتظر المهدي المخلص، بعد ان مُلئت الارض جوراً، وبعض أتباع الحاكم اعتبروه المخلص، وأن وعد القيامة قد حلَّ، لقد كان اضطراب نفسي عامّ يسود الحضارة العالمية في تلك المرحلة.

١٠٥٥ ـ وعامل ممهد آخر مباشر لهذه الحرب، فقد قام الب ارسلان السلجوقي الذي تولى السلطنة في بغداد في عام ١٠٥٥ بالاستيلاء على بلاد الشام بما فيها فلسطين والقدس، وطرد الفاطميين منها.

١٠٧١ ـ ثم حارب البيزنطيين وانتصر عليهم في معركة مانزيكرت في شمال شرق آسيا الصغرى، وبهذا قلّص حجم الامبراطورية البيزنطية باستيلائه على جزء واسع من أراضيها.

١٠٧٤ ـ شاء البابا غريغوار السابع ان يأتي لنجدة مسيحيي الشرق، وبضم الكنيسة الشرقية الى الغربية.

١٠٨٠ ـ قامت «سلطنة ايقونية» في آسيا الصغرى (سلطنة الروم) على الاراضي التي كان الب ارسلان عام ١٠٧١ قد دخلها، ما أثار نقمة في العالم المسيحي .

١٠٨١ ـ كتب تاج الدين السلجوقي ملك دمشق كتاباً الى الامير شجاع الدولة الارسلاني يستدعيه الى طاعته[١] ويحرضه على غزو (المردة) الكسروانيين والمحافظة من الافرنج»[٢].

١٠٩٥ ـ أرسل الكسيس الثاني (كومنين) امبراطور بيزنطة الى روما بعثة ليطلب من البابا اوريان الثاني النجدة، فيعقد الاخير مجمع كليرمونت ويحثّ فيه الامراء والفرسان الغربيين لشن حروب صليبية شعارها «القدس» وشارتها الصليب الابيض.

والحج المسيحي القديم الى القدس، الذي لم تكن تكمن وراءه ايّ خلفية عسكرية، غدا من الآن وصاعداً بفعل التعصب الديني حجاً لتخليص الارض المقدسة من السلاجقة، تغذيها فكرة شن حرب مقدسة ضد «الكفار»، وحلَّ محل المحبة والغفران روح العداء والانتقام انما على أيّ حال، فإن الامتداد نحو الجنوب الذي مثلته خريطة امتداد حملات الفرنجة (الى العقبة) يشير إن لم نورد دليلاً سواه الى ارادة السيطرة على أهم الخطوط التجارية نحو الشرق، وعلى الاهداف المادية التي ارتدت رداء الايمان. وتذكرنا خارطة الكيان الصهيوني اليوم بما كانت عليه الامارات الصليبية في قسمها الجنوبي، انه تكرار لطموح الامبراطوريات نفسه على مدى أربعة آلاف وخمسماية سنة.

١٠٩٦ ـ قاد مغامر يدعى بيير ليرميت (أي الحاجّ) حملة من المغامرين أبادها البلغاريون والسلاجقة قبل وصولها.

١٠٩٦ ـ ١٠٩٩ ـ حملة الفرنجة الاولى وقد نظمها هنري الرابع ملك المانيا وفيليب الاول ملك فرنسا، والثاني لم يحضر باعتباره «محروماً من الكنيسة» فحضر على رأسها روبرت النورماندي (أمير الشمال). وغودفروى دوبويون (الفلاندر) وروبير الثاني الفالاندري وتضم (الفالاندريين والفلامان) وريمون دو تولوز (أمير تولوز، جنوب فرنسا) وبوهيموند دو تارنت وابن أخيه تانكرد (نورمانديا الايطالية) وديماتوس بوي Puy وممثل البابا، وبعد حصار «نيقية» وانتصارهم على سلطانها في دوريلي Dorylé (في أواسط غرب اسيا الصغرى) اي (اسكيشهر)، استولت الحملة على انطاكية بعد حصار دام سبعة أشهر.

---

(١) ما يؤكد قولنا أن حلفاً عربياً كان بين الامراء العرب في المنطقة خارجاً عن ارادة السلاجقة.

(٢) الحتوني ص ٢٥.

١٠٩٨ ـ (٣ حزيران) ـ وبعد خيانة من حامية المدينة، وعلى اثر هجمة مباغتة (بعدان ادّعى راهب انه وجد الحربة المقدسة التي طُعن بها السيد المسيح، في إحدى كنائس انطاكية) أجبر الغربيون فرقة مساندة بقيادة كربوغا حاكم الموصل، على الفرار من المعركة بعد ان كادت ان تفنى، ثم تبعوا الفارين وأفنوهم، واحتلوا القدس بعد حصار استمر خمسة أسابيع، وكان بلدوين الالماني قد احتل الرها، واحتل تانكرد طرسوس، وسكان المدينتين من الارمن المسيحيين، فقامت بذلك أول امارتين صليبيتين على المسيحيين الشرقيين[١]، وبعد احتلال انطاكية انفتحت السبل أمام الحملة الى بلاد الشام.

١٠٩٩ ـ احتلال القدس: ويقول د. فيليب حتي[٢] «أما ريموند دوتولوز أغنى زعماء فرنسا، فقد استاء من تفرّد بوهمند في السلطة، وكان رجاله هم الذين اكتشفوا الحربة بأنطاكية، فزحف جنوباً واحتل معرة النعمان مسقط رأس أبي العلاء، ولكن رجاله أخلوها في ١٧ كانون الثاني ١٠٩٩، بعد ان قتلوا ما يزيد على مئة ألف نسمة من أهلها وسلموها للنار[*]». وبلغت وحشيتهم انهم «كانوا يغلون البالغين بالقدور ويشكّون الاولاد بالسفافيد ويلتهمونهم مشويين»[٣].

ثم سار ريموند غرباً فاحتل حصن الاكراد (وهو نقطة عسكرية خطيرة تتحكم بالممر الواقع على وادي العاصي نحو المتوسط) وحاصر عرقة (على الحافة الشمالية من لبنان الشمالي)، ونزل انطرسوس على الساحل من دون مقاومة، وأمدّه موارنة لبنان بعدد من الأدلاء والجنود[٤]، الا ان ريموند تنازل عن جميع هذه الاملاك استجابة لنداء غودفروي دوبويون (كونت لورين) شقيق بلدوين، فرافق الجيش الزاحف على القدس وهي الهدف المعلن «واتجه الفرنجة جنوباً فنزلوا

---

(١) فيليب حتي «تاريخ العرب» دار غندور للطباعة والنشر ط ٥، ١٩٧٤، ص ٧٢٦.

(٢) المرجع السابق، عن ابن الاثير ج ١٠ ص ١٩٠.

(*) ولعل هذه المجزرة الرهيبة في معرة النعمان، كانت لكون بعض أهلها من التوخيين، وهم أهل وأبناء عمومة تنوخيي جبل لبنان (وأبو العلاء المعري منهم) ولكونها كانت ترفد سيف الدولة بالكثير من المقاتلين، وكذلك لإرهاب الامارة التنوخية في جبل لبنان التي كانت تساند سيف الدولة، وإنذاراً لها لمنع وقوفها بوجه الحملة.

(٣) أمين معلوف «الحروب الصليبية كما رآها العرب» دار الفارابي ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٣ ـ ص ٦٣، عن المؤرخ «راول دي كين».

(٤) الخوري منصور طنوس الحتوني «نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية» طبعة دار كنعان بيروت ١٩٨٣ ص ٣٩.

الرملة(...) وأصبحت أول منطقة لاتينية في سورية الجنوبية»، وبعد معركة في عسقلان، وصل الصليبيون الى العقبة، وبذلك تتضح الأهداف الحقيقية وهي السيطرة على الموانىء والطريق البرية الى البحر الاحمر[١].

١٠٩٩ - وبعد اقتحامهم القدس، وبعد حصار استمر أسابيع أقاموا دولة مسيحية اقطاعية مع استقلال تام للاقطاعيين (ومجلس للاقطاعيين) وكان حاكم القدس غودفروي دوبويون، وبعد موته قد خلفه أخوه بدوين (بلدوين) (١١١٠ - ١١١٨) وحمل لقب ملك[٢].

١١٠٠ - أ - «مات غودفروي بعد ان قام بغارات ضد المسلمين امتدت حتى بلغت دمشق»[٣].

ب - «أرسل الامير عضد الدولة رجالاً الى مفازة نهرالكلب يكمنون للأمير بلدوين الفرنساوي أخي كونراد ملك بيت المقدس القادم بألف رجل الى القدس ليرث تاج أخيه، ولما أقبل على المكمنين حاربهم وظفر بهم وظل سائراً في طريقه[٤].

١١٠٤ - استولى اللاتين على عكا، وكان سقوط عكا بعد انطاكية بمثابة سقوط استراتيجي لساحل بلاد الشام، ولم يبق للسيطرة الكاملة على الساحل أيّ عقبة الا الامارة التنوخية التي كان نطاق حمايتها الامنية من صيدا الى نهر الكلب[٥].

سقوط بيروت ومذبحة التنوخيين[٦]

١١١٠ - «جمع بلدوين (جيشاً) ونازل بيروت وحاصرها براً وبحراً وكان في المدينة الامير شجاع الدولة (التنوخي) وجماعة من أقاربه. ولما تعذّر عليه

---

(١) انظر فيما يلي الحوافز الدافعة للغزو الافرنجي.

(٢) دعيت «مملكة القدس»، وكان امتيازها انها تضم ميناءي عكا والعقبة، ما جعل تجارة الشرق على (الخط الثالث) الخطين البحري والبري كلها تمر عبرها، ويأتي امتياز «القدس» والحج عاملاً مساعداً.

(٣) ارنست باركر - «الحروب الصليبية» - ترجمة د. السيد الباز العريني - طبعة دار النهضة العربية - بيروت ط ٢ - ص ٢٨.

(٤) لقد شرحت في كتابي «تاريخ الاقطاع في لبنان»، مرجع مذكور آنفاً، الاهمية الستراتيجية لإقطاعة الجرد، والامارة التنوخية بالنسبة لأمن بيروت.

(٥) طانيوس الشدياق «تاريخ الأعيان في جبل لبنان» ج ٢ - ص ٥٠٦.

(٦) تذكر الدكتورة آن ماري عفيش في مقالها في مجلة «الجيش» (مرجع مذكور آنفاً) «ومما يذكر ان بودوين الاول لما سار من انطاكية الى اورشليم ليخلف أخاه غودفريد في الملك كاد يذوق في هذا الممر كأس المنية لولا حذقه وشجاعته» وتردد مصادر تاريخية «ان بدوين المذكور عندما وصل الى مفازة نهر =

فتحها (لمساندة الجبل لها) استنجد بأفرنج السواحل وامراء (المردة) الكسروانيين فأنجدوه، فنهض افرنج الشمال وتجمعوا مع (المردة) في جبيل (أي قبل مفازة نهر الكلب) ونهض افرنج الجنوب وتجمعوا في مرج الغازية (جنوب صيدا)، ثم نهض الفريقان في يوم واحد، الشماليون عن طريق الجرد، والجنوبيون على طريق الساحل، ودهموا الغرب صباحاً فنهبوه وأحرقوه وقتلوا وأسروا من وجدوه، فلم ينجُ من أهاليه سوى الغائبين والمنهزمين، فقُتِل من الامراء الامير موسى بن ابرهيم بن أبي بكر بن المنذر وأولاده الصغار والامير القاسم بن هشام ابن أبي بكر وولده الامير ادريس، والأمير مودود بن سعيد بن قابوس وولداه الامير سعد والامير زهير والامير مالك بن مصطفى بن عون، والأمير عبيد بن معضاد بن حسام والأمير يحيى بن الخضر بن الحسين بن علي وأخوه، والامير يوسف والأمير علي بن حليم بن يوسف ابن فارس الفوارسي وأولاده وأخوته وبنو عمه فانقطعت بهم سلالة بني فوارس (بن عبد الملك. وقد دحضنا هذا الادعاء في كتابنا «تاريخ الاقطاع في لبنان»). وأُسر الامير ثابت بن معروف بن علي وحفيده الامير عبد الرحمن بن فراس بن ثابت، ثم قتلا مع المأسورين كما سيأتي. ولم يبق من الامراء الموجودين في الغرب سوى الامير بحتر ابن الامير عضد الدولة إذ اخفته أمه في عرمون حتى انجلت الافرنج.

«ثم انحدرت الافرنج الى بيروت وشددوا عليها الحصار ففتحوها بالسيف وذلك في ٢٣ نيسان وكانت مدة محاصرتها شهرين. فقُتل من الامراء خمسة الامير عضد الدولة علي وكان طويلاً عريض الصدر شجاعاً غضنفراً كريماً عاقلاً صبوراً عليّ الهمة والامير سالم بن ثابت بن معروف والأمير عبد الحليم بن علي بن طعمه وولده الامير ساعد وأخوه الامير عبد الرحيم بن علي. وأُسر ثلاثة منهم الامير الخضر بن علي بن الحسين وولده الامير الحسين والأمير علي ابن طعمه بن علي وجماعة غيرهم.

= الكلب واجهه كمين أرسله الامير التنوخي من مايتي مقاتل فقضى عليهم وتابع طريقه على الساحل». وهذا قول لا أساس له من الصحة، فلم يستطع الصليبيون قط قبل مذبحة ١١١٠ ان يخطوا داخل أراضي الامارة التنوخية، والأرجح انه عاد وسلك طريق كسروان الى البقاع سيما انه كان عليه ان يقطع ما يقارب ٥٠ كيلومتراً بين نهر الكلب وصيدا في الأراضي التنوخية، ولو كان محيط بيروت آمناً لما اضطر الكسروانيون والصليبيون شن حملة على الجرد والناعمة لقتال بيروت عام ١١١٠، ولم تذكر كتب التاريخ أية معارك برية بين التاريخين».

وفي اليوم الثاني أخرج بلدوين الاسرى جميعاً خارج المدينة وضرب أعناقهم كافة وسار بجيوشه براً وبحراً ونازل صيدا وكان فيها الامير مجد الدولة كما مرّ وشدّد عليها الحصار. ولما يئس الامير ومن فيها من السلامة عقدوا مع الملك صلحاً ودفعوا له عشرين ألف درهم. فخرج الامير مجد الدولة سالماً وتسلم بلدوين البلدة. وأتى الامير الى الغرب فوجده قاعاً صفصفاً لا يُسمع فيه الا البكاء والعويل. ثم أخذ الامير بترميم البلاد وإرجاع سكانه واستقلَّ بالإمارة».

حقيقة مُغْفَلَةْ

«قد تثير الحقيقة الجهلة ولكن الحكماء يستمدون منها العبرة والحكمة»

المؤلف

صدّرتُ كتابي بعنوان كتاب ابن خلدون وهو أب علم الاجتماع وأب «علم التاريخ»: «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» وقد يكون من دواعي الأسف أن يتردد باحث في دراسة بعض الحقائق خشية اتهامه بالطائفية وأثارة النعرات، ولكن ما سنورده فيما يلي له أهمية بالغة بموضوع البحث وغايته، وهي فهم الحاضر من خلال جذوره التاريخية، بغية إدراك أخطاء هذاالماضي لإصلاحها من أجل بناء مستقبل مشرق يأخذ العبرة من أخطاء الماضي لتجاوزها. وكي نتعظ من الانقسامات الوطنية التي لا تجرّ الا المآسي والويلات، وكي نتجاوز أمراضنا الطائفية والعشائرية والمناطقية.

كل كتب التاريخ تذكر أن احتلال القدس هو الحدث الأول الكبير الذي أعقب مباشرة الاستيلاء على معرة النعمان وحصن الأكراد. والتوجه الى القدس أمر طبيعي ولا يدعو للتساؤل، ولكن علامة استفهام كبيرة تطرح نفسها للممحّص بالأحداث التاريخية تتعلق بالطريق التي سلكتها هذه الحملة لتقطع هذه المسافة من دون معارك تذكر ودون الاصطدام بقوات أو اجتياح حواضر؟. وسنتوقف عند هذه النقطة لسببين: الأول ستراتيجي وهو من صلب هذا البحث ولا يجب إهماله تحت أيّ ذريعة، والثاني لفهم الذيول التي خلفتها الحرب الصليبية سيما منها تهجير أهل كسروان على يد آقوش الافرم.

فلم تذكر أيٌّ من المراجع التاريخية العامّة كيف تم سقوط القدس بعد سقوط المعرة وحصن الاكراد مباشرة، رغم وجود مدن كثيرة وحاميات كثيرة ومسافة تبلغ مئات الكيلومترات بين الموقعين، بالإضافة الى الحواجز الطبيعية الصعبة، سيما حاجز نهر الكلب على الساحل، والجبال الوعرة، في الطرق الجبلية، وبغياب وضوح

هذه النقطة في المصادر التاريخية العامّة، لا بد من العودة الى المصادر المحلية لسبر غور هذا اللغز.

من المؤكد أن الحملة الصليبية الاولى لم تعتمد على الأساطيل البحرية، ولا يوجد ما يشير الى أيّ معركة بحرية أو أي سقوط لمدينة على ساحل الشام بين الحدثين؛ إذًا، الاحتلال تم عن طريق البر، ولتقصي هذه الحقيقة لا بد من العودة الى دراسة المناطق الامنية في ذلك الزمن وما قاله المؤرخون المحليون عن هذا الأمر.

بين عامي ٦٤٣ ـ ٧٥٨ كان البيزنطيون يتسللون (من جبال العلويين) جبال اللكام عبر السلسلة الجبلية[1] الممتدة على مقربة من الساحل الى جبال لبنان، وسهل انطاكية هو المضيق الفاصل بين هذه السلاسل الجبلية، وبعد استقرار التنوخيين في أواسط جنوب لبنان، كانت مسؤوليات هؤلاء الأمنية محددة على الوجه التالي:

١ ـ لم يكن التنوخيون دوماً مسؤولين عن أمن الساحل، إنما كانت مهمتهم، كما أوضحنا سابقاً مساندة هذا الساحل في حال تعرضه، لأي خطر، سيما وانه يشكل خطراً مباشراً على أماكنهم السكنية القريبة منه. وكانت مساندة هذا الساحل درءاً للخطر على مصالح الدولة وممراتها التجارية بين بيروت ودمشق، وذوداً عن أهلهم وقراهم. وهذه المسؤولية، وإن لم تكن دوماً مباشرة فهي مساندة هذا الأمن، حينما لا تكون الإمرة لهم، من نهر الكلب وحتى صيدا، وسوف نرى في أحداث لاحقة اشتراكهم في الحروب ضد الصليبيين، ولم ترد أيّ اشارة لدى صالح بن يحيى (مؤرخ التنوخيين) الى معارك خاضوها لصد الحملة الآتية من الشمال أو ما يشير الى مثل هذا المرور، وكذلك فإن مسؤوليتهم الامنية وحدود امارتهم (أو امارتيهم، امارة الجرد وإمارة الغرب منذ عام ٩٧٥)[2] تشمل الحدود من جنوب كسروان الى جبل عاملة، جنوباً، والشريط السهلي في شرق البقاع شرقاً، ورغم ذلك لم ترد لدى صالح بن يحيى أيّ اشارة الى صدام بين هاتين الامارتين والحملة الصليبية الاولى قبل احتلال القدس، وذلك يعني ان الحملة لم تخترق هذه الأراضي في طريقها من الشمال نحو الجنوب؛ فلنرَ ما قاله صالح بن يحيى عن هذه الحملة وعن بيروت[3]:

(١) تناولت هذا الموضوع بإسهاب في كتابي «تاريخ الاقطاع في لبنان» وهذا هو محور موضوع ذاك الكتاب.

(٢) انظر كتابنا تاريخ الاقطاع في لبنان.

(٣) صالح بن يحيى ـ تاريخ بيروت ـ طبعة دار المشرق، ١٩٦٩ ـ بيروت. ص ١٥ ـ ١٧.

«... ومما ذكره المؤرخون انه في سنة خمس وأربعماية اقطع الحاكم بأمر الله خليفة مصر، صور وصيدا وبيروت للفتح عوض (عوضاً) عن حلب ولقبه مبارك الدولة وسعدها (...) وفي شهر القعدة ٤٤٣ أقطع المستنصر بالله خليفة مصر عكا وبيروت وجبيل لمعز الدولة محمود صاحب حلب عوضاً عن حلب وأخذ حلب منه (...) فاستعاد المستنصر الثلاث أماكن من محمود، وكان الذي يملك على دمشق تملك بعض السواحل حسب بعض ما ذكره المؤرخون، ولولا خوف الاطالة لذكرت ذلك، فلم تزل بيروت في أيدي المسلمين من الفتوح الأول المذكور تنتقل من دولة الى دولة، والمسلمين بها على أحسن حال وأسر بال حتى نزل عليها بغدوي (بدوين) الفرنجي، الذي ملك القدس وكثير من مدن الساحل في جموعه وحشوده وحاصرها حصاراً شديداً حتى فتحها عنوة بالسيف في يوم الجمعة الحادي والعشرين شوال سنة ثلاث وخمسين وخمسماية واستولى عليها قتلاً وأسراً...

«فصل وموجب استيلاء الفرنج» على البلاد التي أخذوها من المسلمين

وهو لما قوت (قويت) دولة بني سلجوق ضعف حال الخلافة ببغداد، فلما مات ملكشاه السلجوقي وقع الخلاف بين ولديه محمد وبركياروق، ودام الحرب بينهما قرب من اثني عشر سنة فاضطربت ممالك الشرق لذلك ووف (ووافق) ذلك خلافة الآمر بأحكام الله بمصر وكان صغيراً وفي كبره مستهتراً بالمملكة فبهذا الحالين صار الوقت للفرنج كما يقال خلي لك البر بيضي واصفري، ثم وصلت جموع الفرنج الى انطاكية فملكوها في جمادي الاول سنة احدى وتسعين وأربعماية ثم أخذوا القدس في شعبان سنة اثنين وتسعين وأربعماية واستولوا في طريقهم من انطاكية الى القدس على أماكن كثيرة بعد قتال شديد وقتل من المسلمين على انطاكية وفي معرة النعمان وبالقدس ما يزيد على مايتي ألف مسلم ثم بعد ذلك تزايد مدد من البحر الى السواحل (...) واستولوا على مدينة بعد أخرى حتى أتوا على ساحل الشام وغيره من البلاد ومن جملة ما أخذوه بيروت (...)» إذًا لم ترد أيٌّ اشارة الى الطريق التي سلكتها الحملة، وان يكن من المؤكد انها لم تطأ أرض التنوخيين في جبل لبنان، وأن استيلاءهم على ساحل بلاد الشام جاء بعد استيلائهم على القدس، حسب رواية صالح بن يحيى.

أمّا المصادر التي أرّخت لكسروان والتي ينقلها لنا الحتوني في «المقاطعة الكسروانية»[1] فيشير لنا في ما ذكره الى بعض المعالم التي يمكن الاستدلال منها على هذا الموضوع، فقد ورد لديه:

---

(١) الحتوني، مرجع مذكور آنفاً ص ٢٦.

«وفي سنة ١٠٩٩ وصلت الجيوش الصليبيون الى لبنان ولوائح الانتصار لائحة على جباههم وكثرة فرسانهم وجيوشهم دالة على عظمة اقتدارهم. فالتقتهم رجال المردة[١] مظهرين لهم الإخاء فتصافحوا وتصافوا وأنس كل واحد منهم بصاحبه وتعاهدوا على التناصر فكان ذلك راحة للكسروانيين بل لكامل المردة اللبنانيين.

«بيان ان الصليبيين أبقوا امارة (المردة) في لبنان على ما كانت عليها ولم تنثلم منهم أبداً في كل مدة اقامتهم في فلسطين ولبنان لأن الخوري يوسف مارون الذي سبق ذكره قد عدد الامراء الذين كانوا في أيام الصليبيين (...) ثم أتى الامير سمعان الذي لما قدم لويس التاسع ملك فرنسا القديس بجيوشه الى عكا سنة ١٢٤٩ حضر اليه هذا الامير ومعه خيل بخمسة عشر ألف مقاتل نجدة للملك. فلما أقبل عليه رفع شأنه وتلقاه بالترحاب وكتب الى امير الموارنة وبطريركها وأسقافتها كتاباً مضمونه أولاً إظهار محبته لهذه الطائفة من قبل. ثانياً: يمدح امانتهم واتحادهم دائماً مع خلفاء بطرس الرسول. ثالثاً: ان لهم حق الحماية منه ومن خلفائه كشعب فرنسا»[٢].

وينقل الحتوني عن البطريرك اسطفانيوس الدويهي[٣] من كتابه أصل الموارنة الفصل السابع ما نصه: «... عند قدوم الافرنج الصليبيين ودخولهم جبل لبنان وانحياز الموارنة اليهم واتحادهم معهم (...) ان الصليبيين لما تملكوا انطاكية وهموا على السفر لجهة بيت المقدس فلما وصلوا الى عرقا فانحدر اليهم النصارى المؤمنون من جبل لبنان فترحبوا بهم وما زالوا ينجدونهم بالذخيرة ويرشدونهم في الطرق حتى بلغوا القدس الشريف، وقوله هذا منقول عن غوليلموس اسقف صور المؤرخ لأعمال الصليبيين في كتابه السابع: (ص ٢٧).

« ... كانوا (الموارنة) يمدونهم بآرائهم الحسنة وإرشاداتهم الهادئة في الطرق الآمنة حتى تملّكهم القدس الشريف» ويقول الحتوني «وقد أبان عن ذلك مكسيموس موروند الفرنسوي في تاريخه عن الحروب الصليبية في الفصل السابع من كتابه الاول ما نصه: انه لما وصلت العساكر الصليبيون الى لبنان كان الرهبان والحبساء يخرجون من مناسكهم التي في الجبال القريبة ويأتون اليهم ببهجة، مسلمين عليهم ومقدمين لهم من المأكولات (...) وأحياناً كانوا يدلونهم على الطرقات في تيههم عنها مرافقينهم الى المسالك الحقيقية»[٤]، وهذا ما يؤكد سلوكهم طريق كسروان،

---

(١) حول عدم صحة هذه التسمية انظر حاشية سابقة.

(٢) الحتوني ص ٢٦.

(٣ - ٤) نفسه ص ٢٨.

كما يقول في مكان آخر إنهم شاهدوا أثناء مرورهم وادي قنوبين والمناسك الموجودة فيه»(١).

ويتابع الحتوني باستشهادات مشابهة عن مواقع الكسروانيين مع التوخيين والجيوش الاسلامية، ويمكن من هاتين الروايتين ان نستنتج ما يلي:

١) ان الصليبيين لم يسلكوا الطريق الساحلية من انطاكية الى فلسطين، وانهم لم يجتازوا حاجز نهر الكلب.

٢) ان استيلاءهم على معرة النعمان وبعد ذلك على عرقا وإيقاعهم المجازر الرهيبة في المعرة هو ضرب لآخر قاعدة في شمال سوريا تركز حولها حقد تاريخي لصدقها في الدفاع عن الارض العربية (خلافاً للسلاجقة الذين لم تكن الارض والناس الذين يعيشون عليها تعني لهم شيئاً سوى مردودها المادي).

٣) ان ملاقاة الكسروانيين لهم وانضمامهم اليهم سيما مسألة ارشادهم للطرق الجبلية الآمنة، تعني ان الحملة قد مرت من كسروان ثم نزلت منها الى البقاع، ومرت حتى جنوب البقاع خارج نطاق الاراضي التابعة للامارة التنوخية(٢)، وبمنأى عن الصدام المباشر بها، ثم سلكت مجدداً الطرق الجبلية وصولاً حتى الجليل الى القدس ثم تتجه الحملة جنوباً فتحتل الرملة وعسقلان (حيث تجري معركة) فتُفتَحُ الطريق الى البتراء فخليج العقبة (وهذا ما يفسر كون مملكة القدس أغنى الممالك الصليبية وأقواها) فقد استولت على أهم الطرق التجارية بموانئها على المتوسط والعقبة، وهذا ما فعلته اسرائيل بإقفالها لقناة السويس بعد ١٩٦٧. وباستمرار استيلائها على الطريق البري بين عكا والعقبة.

٤) ان احتلال القدس (أي الموقع الستراتيجي فوق معبر سهل بيسان) بعد احتلال ممر انطاكية، وتطويق الامارة التنوخية، وتلا ذلك معركة عسقلان والسيطرة عليها وعلى الرملة، ما فصل ساحل بلاد الشام عن عمقه فسقط الساحل ستراتيجياً، ما أدى لسقوط مدنه واحدة بعد الأخرى. وسوف نرى في آخر الحملات الصليبية تخلّيهم عن صيدا وصور وبيروت من دون قتال بعد سقوط عكا وانطاكية.

٥) ان التعصبات الدينية (بين المسلمين والمسيحيين) والتعصبات المذهبية

---

(١) كتاب الحتوني مليء بما ينضح به من تعصب ليس دينياً وحسب وإنما مذهبي كذلك، ومن المؤسف ان في الاكليروس الماروني حتى يومنا هذا من ينفخ بالعصبية المذهبية بوجه كل ما هو وطني وقومي.

(٢) سيما وان المراجع المختلفة تقول انه لم يبق من البقاع بعد الحملة الصليبية الاولى الا مدينة بعلبك خارج الاحتلال الصليبي، انظر تاريخ صيدا، مرجع مذكور آنفاً، وكذلك تاريخ بيروت لصالح بن يحيى، واللذين يعتمدان على مصادر قديمة أخرى.

(بين السلاجقة «السنة» والفاطميين «الشيعة») وكون أبناء البلاد أصبحوا مغلوبين على أمرهم، وحكم الأتراك وغير العرب ألغى دور الخليفتين العباسي والفاطمي، وبغياب التوحد العربي حول هدف ديني أو قومي، والمجتمع العربي فسيفسائي في أديانه ومذاهبه، كل ذلك كان في أساس الضعف الستراتيجي الذي فتت أمن المنطقة وجعلها بأسرها وبكل مجموعاتها الدينية فريسة سهلة للمحتل أو قل المحتلين الأجانب (السلاجقة والصليبيين) وفقدان شعب المنطقة التحكم بمصيره. وغالباً ما كان الحكام السلاجقة اضافة لصراعاتهم المستمرة، يتركون المدن العربية حينما يحيق بهم الخطر العسكري، ويتركون المدن بأطفالها وشيوخها ونسائها طعمة للسيف والنار ويفرّون بعسكرهم، فتأخذ السيوف الناس من كل الملل والطوائف، حتى المسيحيين منهم والكنائس لا تسلم من الحرق والمذابح لقد سقطت كل المحرّمات باسم الدين.

٦) كانت تلك المرة الثانية (بعد أحداث ٦٣٨ ـ ٧٥٨)، فإن خروج كسروان عن سلطة الدولة أسقط أمن بلاد الشام، وهذا ما ستكون له ذيوله.

٧) ان كسروان عاشت تحت الاحتلال، وان تكن تمتعت بنوع من الحكم الذاتي، وقد بقيت امارة الجرد والغرب (التنوخيتان) بمنأى عن هذا الاحتلال، وذلك ما أبقاهما محاصرتين على مدى قرنين، وان تكونا قد بقيتا بجهدهما المستمر ضد الصليبيين نقطة ضعف يعاني منها الاحتلال، وهو ما ساعد على بقاء دمشق قادرة بتعاونها معهما ووقوفهما الى جانبها على ما ابقى خاصرتها محمية، بعد فشل المحاولات للوصول اليها من الشمال. وهذا ما جعل الجرد والغرب التنوخيين يستهدفان بحملات مباشرة عليهما في محاولة لإزالة العوائق التي تقف بطريق الوصول الى دمشق، وبقاء دمشق صامدة ساعد فيما بعد على تحرير الساحل.

٨) احتلال الساحل وبعض الجبال الستراتيجية المحيطة (ومنها عداء كسروان للداخل) جعل أمن بلاد الشام مهدداً من انطاكية وحتى العقبة، بالإضافة الى حرمانها أهمّ مواردها الاقتصادية.

٩) طول الجبهة (من الاسكندرونة حتى العقبة) والضعف الاقتصادي بالاضافة للانقسامات الداخلية، هو الذي أبقى هذا الاحتلال ما ينوف على القرنين وتسبّب بتردي أحوال بلاد الشام الاقتصادية والاجتماعية.

وبإسقاط تاريخي على الكيان الصهيوني (في وضعنا الراهن) يمكن فهم أهمية توحّد المنطقة في مواجهة هذا الخطر، وكذلك فهم أهمية ارتباط المسارين السوري واللبناني وفهم أهمية دعم الجيش السوري للجيش اللبناني، طالما ان خطر

الصدام مع الصهيونية ما زال قائماً، وان وجود الجيش السوري في لبنان لا يجب ان يكون مرتبطاً بمدة زمنية بل بالضرورة الأمنية الموجبة له.

وسنعود لاستخلاص النتائج بعد وصولنا الى نتائج الحرب العالمية الثانية، والدروس التي يمكن استخلاصها من الأحداث بين القرنين الرابع عشر والعشرين (في الكتاب الثاني).

مصادر شرعية الحكم

عندما يسقط التزام القيادات بقدسية الارض والشعب، والوطن أرض وشعب، تسقط شرعية هؤلاء الحكام وشرعية أحكامهم، مهما كانت ادعاءات شرعية المبادىء التي يحملونها أو مصدر هذه الشرعية وقدسيّتها، وهذا ما كان عليه وضع المنطقة إبان الحملات الافرنجية، فكلاهما يدعي شرعية، السلاجقة باسم الاسلام والفرنجة باسم المسيحية، فالطرفان يحكمان أرضاً ليست أرضهما وشعباً ليس شعبهما، وبذلك سقطت كل المبررات الاخلاقية للسلطة، فبات كل شيء مباحاً. فالسلاجقة في صراعهم فيما بينهم يستعينون بالافرنج، ولا يختلف الافرنج عنهم في ذلك، والشعب العربي يدفع الثمن الكبير فيتم مراراً التخلي عنه وتركه طعمة للسيوف والنار. والمدقق بتفاصيل أحداث تلك المرحلة، يجد ان المسلمين كانوا يقتلون بأيدي السلاجقة لتحقيق مصالحهم، وبالتخلي عنهم وتركهم لمصيرهم من قبل هؤلاء الحكام لتحقيق مصالحهم كذلك، وللفرار بأرواحهم وثرواتهم، ولم يكن حال المسيحيين أفضل، فكم لقيت أعداد منهم الذبح على يد الفرنجة، وكم ترك الفرنجة المسيحيين لمصيرهم لينفذوا بأرواحهم ويتركوهم لمصيرهم مع جيوش السلاجقة غير العرب. ومن يقرأ كتاب «الحروب الصليبية كما رآها العرب» لأمين معلوف، تتبيّن له هذه الحقيقة بوضوح، فالمدن العربية كانت تنعم بتعايش بين الناس (حتى في ظل الدولة الدينية) ولكن الاجتياحات والمذابح لم ترحم أحداً، ولعل ذلك لم يكن لجهل المجتاحين بهوية ضحاياهم، وإنما لأن الايديولوجيا التعصبية التي تنافي أقدس تعاليم الديانتين لدى الفريقين، جعلهما يُدينان باسم الدين هذا التعايش وهؤلاء المتعايشين، ويعتبران هذا التسامح سبباً لإدانة أصحابه ويستأهل العقاب، ولعل سيادة هذا المنطق الغيبي التعصبي واللاعقلاني هو ما دفع فيلسوف المعرة ليصف مجتمعه، وقبل هذا التاريخ بنصف قرن بقوله (حسب ملاحظة أمين المعلوف):

اثنان أهلُ الارض ذو عقل بلا دين، وآخر ديِّنٌ لا عقل له

وكذلك يعبر أبو العلاء عن تفكك المجتمع العربي، الذي لم نبرأ منه بعد ألف سنة، والذي تسبب به احتضار الحضارة العربية الاسلامية إذ يقول:

يحطمنا ريبُ الزمان كأننا زجاجٌ ولكن لن يعادَ له سبكُ

لقد كان الناس بضيق شديد من أزمة الحضارة وما تعكسه على الواقع المعاش، وفي نهاية الألفية الأولى وتبعاً لمقولات أغلب المذاهب والأديان، وكمظهر من مظاهر الفكر الغيبي الجامد والستاتيكي خلافاً لدينامية الحياة كانت كل العقائد تنتظر المخلص الذي سترسله السماء، ويتصدى أبو العلاء لهذا الاعتقاد بقوله:

يرتجي الناس ان يقوم إمامٌ ناطقٌ بالكتيبة الخرساءِ
كذب الظنُّ لا إمام سوى العقلِ مشيراً في صبحه والمساءِ
إنما الأديانُ أسبابٌ لجلبِ الدنيا الى الرؤساءِ

ويهوله صدام طائفي حصل باللاذقية تسبّب به انقسام من الموقف حول هجوم بيزنطي على شمال ساحل الشام فيندد برجال الدين ويجهل أتباعهم وخروجهم على الدين والعقلانية فيقول:

في اللاذقيةِ ضجةٌ ما بين احمدَ والمسيحْ
فذا بناقوس يدقُّ وذا بمئذنةٍ يصيحْ
كل يمجِّدُ دينهُ يا ليت شعري ما الصحيحْ

انها حضارة في آخر دورتها الحضارية، تعاني سكرات الموت، ولعل محاولة التوفيق بين هذين النقيضين وانتظار المخلص في آخر الألفية الأولى، والعقلانية التي تحاول ان تعيد النظر في هذه الحضارة وتعطي للعقل الأولوية، هو ما تجلى في الدعوة الفاطمية الباطنية، ولكن هذه المحاولة لم تفلح، كما لم تفلح محاولتا أبي العلاء وابن رشد. وما زالت مجتمعاتنا حتى اليوم تعاني حالة من العطالة والجمود نتيجة استمرار سيادة الايديولوجية الغيبية.

انها الحضارة التي استنفدت مفاعيلها الايجابية ليقضي عليها تآكلها الذاتي[1].

وما عبّر عنه فكر العصر وأدبه، أظهر وجهه الآخر الواقع المعاش، فسقوط

---

(١) أنظر: كتابنا «الانسان والحضارة» مرجع مشار اليه آنفاً.

ايديولوجية التقوى أمام مغريات الحياة، أي أزمة الايمان في الايديولوجية الاجتماعية، تمظهر في حياة الترف التي لم يصمد الايمان بوجهها حتى في مراكز أقدس مقدسات العقيدة. سيما القدس ومكة كما يشير المؤرخون.

ويصفُ العلاّمةُ ابن خلدون الحالَ بقوله «(...) لما طرّقَ الخلافةَ من انتزاء ممالك العجم على سدّتها، وامتطائهم صهوةَ التغلُّب عليها وتصريفهمُ أحكامها طوعَ أغراضهِم في رجالِها وجُباتها وأهلِ خِطَطِها وسائر نقائضها وابرامِها كما قال شاعرهم.

خليفةٌ في قفص بين وصيفٍ وبغا
يقولُ ما قالا له كما تقول البَبغا»[1]

يصف كتاب «تاريخ العرب»[2] الوضع في مكة والقدس بقوله: «وهكذا فقد كان لازدياد الثروة في المدينتين المقدستين[3] اثر في ازدياد الترف، فانصرف الناس فيهما الى المجون والعبث، وأصبحت كل منهما مركزاً للغناء واللهو وموئلاً للقيان والعابثين»، ولم تكن الحواضر الاسلامية الأخرى أفضل حالاً، ولعل حال القاهرة في ذلك الزمن وما ساد فيها من ترف ومجون هو ما دفع الحاكم بأمر الله لاتخاذ اجراءات بالغة الشدة، ووضع تشريعات وفرض مسالكَ على نفسه وعلى المجتمع، نحو التقشف الشديد، ومحاولة تطبيق ذلك بالعنف البالغ في محاولة لإصلاح المجتمع[4] ولكن ذلك كله لم يودّ الا الى قيام مذهب جديد لدى قلة من الأتباع.

أمّا حال الفرنجة

وعلى أيّ حال، فلم يتورع الفرنجة الذين وصفهم المؤرخ أسامة بن منقذ بقوله «إذا خبر الانسان أمور الافرنج (...) رأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل». لم يتورع هؤلاء، بالتخلف الذي كانوا عليه، عن شيٍّ الأطفال بعد ذبحهم، فقد نقل أمين معلوف عن المؤرخ الافرنجي «راول دي كين» اعترافه: «كان جماعتنا في المعرة يغلون وثنيين بالغين بالقدور، ويشكون الأولاد بالسفافيد ويلتهمونهم مشويين»[1]- هكذا وصف المؤرخ الافرنجي ما

---

(١) ابن خلدون «المقدمة» طبعة المطبعة الأدبية - بيروت ١٨٧٩ ص ٢٠.

(٢) حتي، فيليب، مرجع مشار اليه آنفاً، الطبعة الخامسة ١٩٧٤ ص ٣٠١، عن الأغاني ج ٤ ص ٥٢.

(٣) أشرنا سابقاً للأهمية التجارية للمدينتين وعلاقتهما بالأيديولوجيا.

(٤) أنظر: د. عبد المنعم ماجد - «الحاكم بأمر الله الفاطمي - الخليفة المفترى عليه» - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة.

(١) «الحروب الصليبية كما رآها العرب» مرجع مذكور - آنفاً ص ٦٣.

حصل في معرة النعمان وللأسف، فإن ما نراه من الاستعمار والصهاينة في نهاية الألفية الثانية لا يعبّر عن ارتقاء كبير في ضمير بعض مسؤولي الغرب، وان اختلفت أساليبهم، والمصالح الاستعمارية هي التي تسبب هذا الموقف الفصامي الغربي في مسألة حقوق الانسان، وقد بلغت حصيلة المذبحة في معرة النعمان مئة ألف قتيل حسب رواية ابن الاثير، ومايتي ألف في المعرة والقدس حسب رواية صالح بن علي، وإن يكن في هذه الأرقام، على ما يبدو، مبالغة المصدوم من الكارثة.

وأمّا أخبار الخيانات وبيع مصائر الناس، مقابل اغراءات مادية أو لتحقيق مصلحة، أو للنجاة بالنفس، فتملأ أخبار ذلك العصر، وفي الجانبين، السلاجقة والصليبيين، ولذا سنقصر اهتمامنا في هذه الحروب على الأحداث والمعارك ذات الأهمية الاستراتيجية وحسب.

لقد غدت انطاكية والقدس، بعد هذه الحملة الأولى مقرّين للبطريركية. وعلى الرغم من ان الوجود الافرنجي استمر ما يقارب المئة وعشرين سنة بعد هذاالحدث وبالرغم من ان الافرنج استعادوا القدس فيما بعد، فإن معركة حطين بقيادة صلاح الدين اعتبرت نقطة التحول في الحروب الصليبية ففضلاً عن كونها الانتصار الكبير الأول، مايدل على ان التعليل الديني للحروب الصليبية، كان سبباً ظاهرياً، فليس مصير القدس ما غيَّر مجرى هذه الحرب، إنما طريق العقبة التجاري، فلم يبذل الغرب بعد فشله في السيطرة على طريق الشرق التجاري، جهداً يذكر للحفاظ على القدس. فتوقفت بعد لويس التاسع الحملات الصليبية.

الحملة الصليبية الثانية

١١٤٧ ـ ١١٤٩

يقول مثل عربي قديم بقي متداولاً حتى بدايات وعيي:
«وقعت مئذنة في مصر وقانا الله من
طراطيشها (شظاياها)»

المؤلف

١١٢٧ ـ تولى عماد الدين زنكي الموصل وبلاد الجزيرة[1].

سنقتصر في عرضنا للحملات الصليبية على أهم الأحداث التي، تمثل أهمية استراتيجية، حيث ان تأريخ هذه الحقبة (١٠٩٩ ـ ١٣٠٢) مليء بالأحداث، والتحالفات بين (الاصدقاء والاعداء) ويمثل حال انحطاط سياسي لدى الطرفين المتنازعين كما أسلفنا، وسردها لا يفيد موضوعنا بشيء، لذا سنقتصر على ذكر التواريخ التي تمثل تحولاً مفصلياً أو أهمية استراتيجية.

كانت الحملة الثانية بقيادة كونراد الثالث (هوهنستاوفن) ولويس السابع (ملك فرنسا) اللذين حملا الصليب بتأثير من القديس برنار، ولكن مشاركة القوات الفرنسية والالمانية توقفت على أثر التحالف بين لويس السابع وروجر الثاني (سيسيليا) سياسة (القوى المناهضة لبيزنطة) وكونراد الثالث مع صهره ميشيل كومنين، وبعد فشل هذه القوات في معركتي دوريلي واتاليا، خاض لويس وكونراد معركتين فاشلتين على دمشق وعسقلان.

١١٥١ ـ كانت واقعة رأس التينة عند نهر الغدير بين الامير أبي العشائر (التنوخي) والافرنج وهي واقعة شهيرة قُتل فيها من الافرنج خلق كثير وانهزم من بقي الى بيروت وتحصنوا فيها. ومن ثم ترادفت غزواته عليهم حتى بلغ الشهرة العظيمة.

١١٦٩ ـ قامت ثورة في مصر، وأخمدها صلاح الدين بعنف، وأرسل الصليبيون

---

(١) د. عبد المنعم ماجد «الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي» ط ٢ ـ مكتبة الجامعة العربية ـ بيروت ١٩٦٧ ص ٥٨٠.

والبيزنطيون اسطولاً الى دمياط للاستفادة من الموقف، لكن صلاح الدين هزمهم.

١١٧١ ـ توفي العاضد وسقطت الخلافة الفاطمية في مصر.

١١٧٤ ـ استولى صلاح الدين الايوبي على الحكم في مصر، ورأى ألاّ سبيل لطرد الصليبيين الا بتوحيد مصر وبلاد الشام[1].

١١٨٧ ـ استولى صلاح الدين الأيوبي على القدس بانتصاره على الفرنجة في معركة حطين (سهل بيسان) التي استولى بعدها على مدن الشام من جبيل الى قيصرية.

وتكمن أهمية هذا الحدث بإسقاط صلاح الدين لمملكة القدس أي باستيلائه على جنوب فلسطين حتى العقبة، والسقوط النهائي لهذه المنطقة أسقط من ناحية المشروع الصليبي بالاستيلاء الجزئي على تجارة الشرق، إذ خسرت ميناءها على البحر الاحمر، ما جعل مشروع الفرنجة برمته من دون جدوى، وأسقط كذلك ميناء عكا، والذي لم تفد استعادته فيما بعد إلا جزئياً لفقدانه شريان التجارة البري، ما جعل لويس التاسع فيما بعد يهاجم مصر طمعاً بالاستيلاء على طريق آخر الى الشرق، من ناحية، ولإسقاط القوة الرئيسية للمسلمين في الجنوب في محاولة لإعادة ترميم مملكة القدس من ناحية أخرى ولكن فشل حملته دقّ الاسفين الأخير في نعش الوجود الافرنجي الصليبي في الشرق.

ونعود للسرد التاريخي المتسلسل للأحداث:

حملة ثالثة

١١٨٧ ـ استولى صلاح الدين الأيوبي على عكا تمهيداً لمعركة القدس.

١١٨٩ ـ ١١٩٢ ـ حاول فردريك بربروسا (امبراطور المانيا) وبحماس جدي تفادي نكبة سقوط مملكة القدس وتأثيرها على المشروع الافرنجي، وطمعاً بإقامة امبراطورية عالمية على رأس العالم المسيحي فأقسم في ١٠ حزيران ١١٩٠ بعد نصره الباهر في ايقونية على استعادة مملكة القدس، فأرسل ابنه الدوق فردريك قسماً من الجيش حتى مشارف عكا، ومات هناك.

١١٩١ ـ احتل رتشارد قلب الأسد (ملك انجلترا) وفيليب أوغست (ملك فرنسا) عكا.

---

(١) نفسه ص ٦٠.

ووقع رتشارد هدنة مع صلاح الدين الأيوبي، استعاد بموجبها شريطاً ساحلياً بين صور ويافا، وحصل على حق الحج للافرنج الى اورشليم، وتخلى بالمقابل لصلاح الدين عن قبرص التي كان قد احتلها في العام نفسه.

اذاً، فشلت حملته باستعادة طريق بيسان ـ العقبة التجاري.

حملة رابعة

١١٩٧ ـ قادها الامبراطور هنري السادس، وعلى الرغم من حرصه على هدف مهاجمة الأراضي المقدسة، فقد سخّرَ حملته لخدمة أهداف النورمانيين في صقلية القاضية بالقضاء على الدولة البيزنطية، ولكن الحملة لم تفلح إلا بالاستيلاء على بعض أطرافها.

حملة خامسة

١٢٠٢ ـ ١٢٠٤ ـ دعا البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ ـ ١٢١٦) نبلاء اوروبا الى حملة جديدة تتوجه الى مصر، وانضم اليه عدد كبير من نبلاء فرنسا، وتكفلت البندقية بنقل الحملة بحراً على نفقتها، ولكن البندقية اشترطت ان تستولي الحملة أولاً على زارا Zara ودلماسيا، لتحقيق أطماعها التجارية وحسم صراعات نفوذ في اوروبا، فتحولت الحملة الى القسطنطينية واستولت عليها عنوة.

١٢٠٤ ـ الاستيلاء الثاني على القسطنطينية، وبعنف بالغ، فقضي على دولة بيزنطية (الارثوذكسية) وقامت الامبراطورية اللاتينية (١٢٠٤ ـ ١٢٦١) التي شملت البلقان وغرب هضبة الاناضول، أما باقي الأناضول فكان قد وقع بيد «سلطنة الروم وهي دولة تركية دعيت كذلك لوقوعها على ارض الروم السلجوقية» وعاصمتها ايقونية.

١٢١٢ ـ (حملة الأطفال) أبحر آلاف من الشبان والشابات من مرسيليا، وتوجه بهم (محتالون) الى الاسكندرية حيث باعوهم كعبيد.

١٢١٩ ـ ١٢٢٥ ـ استولى المغول على خوارزم، فَشُلَّتْ طرق التجارة البرية، وتحولت التجارة الى الموانيء والطرق البحرية العربية على المتوسط.

الحملات الصليبية الأخيرة

١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ ـ توجه فردريك الثاني، بعد صدور حرم كنسي ضده، الى عكا، وبعد ان

وصل اليها عقد معاهدة سلام مع سلطان مصر الكامل (الايوبي) فحصل بموجبها على بيت لحم والقدس والناصرة.

١٢٤٤ ـ استولى المسلمون على القدس فخسرها الصليبيون نهائياً.

بعد هذه الانتصارات التي حققتها مصر أدرك الفرنجة ان إسقاط مصر، يحقق هدفين رئيسين بدونهما لا مستقبل لمشروعهم في الشرق، وهما: ١ ـ إسقاط الوحدة بين مصر وسوريا[1]، يمكن إعادة ما خسروه في بلاد الشام، سيما العقبة، وان تكن القدس الهدف المعلن، وبذلك تدبّ الحياة من جديد بالامارة الصليبية في بلاد الشام. ٢ ـ في حال الاستيلاء على مصر واستعادة الطريق والميناء التجاري في ساحل الشام والعقبة تتحقق الأسس المتينة لإقامة امبراطورية في الشرق، وتملك القوة للاستيلاء على العراق من امارة الرها، فتستكمل شروط الامبراطوريات القديمة. لذا قرر لويس التاسع ان يجرّد حملة على مصر.

١٢٤٨ ـ جرّد لويس التاسع (ملك فرنسا) حملة على مصر فاستولى على دمياط، ولكنه هزم في المنصورة، وتم أسره مع كل جيشه فافتدى نفسه وجيشه بفدية عالية، وعاد الى عكا[2] (لأهمية موقعها االاستراتيجي) وأعاد تحصينها بعد الدمار الذي كان ألحقه بها صلاح الدين، وغادر الى فرنسا خائباً سنة ١٢٥٤.

١٢٥٠ ـ سقطت دولة الايوبيين في مصر. وقامت دولة المماليك في مصر ثم اليمن ١٢٥٢، فالاردن ١٢٦٠، ثم فلسطين ولبنان. ويذكر بعض المؤرخين عن

---

(١) وبإسقاط تاريخي يمكن ان ندرك أهمية مشروع البعث ـ عبد الناصر بالوحدة سنة ١٩٥٨ وآثار نكسة سقوطها ١٩٦١ ـ التي ما نزال نعاني آثارها في عصر الردة، ومن آثارها المباشرة نكسة ٦٧، وقد اصطدمتُ مع الانقلابيين في دمشق حتى شهر علي (وفي اجتماع عام) اللواء عبد الغني قنوت المسدس، وربما كان أطلق النار لولا تدخل أكرم الحوراني، لأنني توقعت هول كارثة ستلحق بالأمة لعقود قادمة فتركت الحزب، حتى عدت للقيام بمسؤوليات من خارج التنظيم تأييداً لشعار «حرب التحرير الشعبية، الذي كنت أول من أطلقه عام ١٩٥٦، على اثر تطوعنا للقتال الفدائي خلف خطوط العدو في سيناء إبان العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦، ولكن سفرنا للقتال توقف «الانذار الاميركي ـ الروسي العربي أدى الى انسحاب اسرائيل من سيناء، وكان أول من ناضل معي من أجل هذا الشعار، أقرب (تلاميذي) المقربين اليّ الشهيد أمين سعد (الاخضر العربي)، الذي عاد ومارس هذا القتال واستشهد فيه، وقد حالت ظروفي دون الانضمام اليه اذ ذاك. وكنت قبلها من أشد معارضي الوحدة سنة ٥٨، لأن وحدة تقوم على حل الحزب (أي على إسقاط دور الجماهير في حمايتها لن تدوم).

(٢) يتساءل د. جوزيف نسيم يوسف عن تحصين عكا قائلاً «ماذا كان يرمي من ورائها»؟ وهذا دليل عجز فكرنا التاريخي العربي بعامة عن الفهم العلمي للتاريخ ـ د. جوزيف نسيم يوسف «لويس التاسع في الشرق ١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ ـ قضية فلسطين في عصر الحروب الصليبية» ـ مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة ١٩٥٩. ص ٧٠. ويقول الحتوني (ص ٢٦) ان الكسروانيين أمدوه الى عكا ١٥,٠٠٠ مقاتل.

سفارة صليبية اتصلت بالمغول تُطْمِعُهمْ بالشرق لإسقاط بغداد من المعادلة بعد فشل حملة لويس التاسع.

١٢٥٨ - استولى المغول بقيادة هولاكو على بغداد ودمروها وأحرقوا مكتبتها (وكانت أكبر مكتبة في العالم) وقتلوا مليوناً من سكانها، وهدف هذا التدمير اسقاط العراق نهائياً من ميزان القوى قبل الوصول الى مصر، وسقطت الخلافة العباسية في بغداد واستولى المغول على حلب ودمشق، فخسرت بذلك الحضارة العربية الكثير من نتاجها، حيث نرى العدد الكبير من أسماء الكتب لكبار المبدعين العرب والتي ما زالت مفقودة حتى اليوم، رغم ان بعضاً منها تظهر نسخ عنه في مكتبات اوروبا، وقد اعتنى مستشرقون بإعادة نشر بعضها[1].

١٢٦٠ - انتصر المماليك، في معركة عين جالوت، وساهم معهم التنوخيون في هذا النصر على المغول، الأمر الذي جعل المغول يتراجعون الى الفرات، حيث دام استعمارهم للعراق حوالى قرنين.

١٢٦١ - أ - بدأت الامبراطورية البيزنطية اللاتينية تتعرض لضغط الأتراك العثمانيين، بعد إسقاطهم سلطنة الروم السلجوقية. ١٢٤٣، وكانت قد بدأت حملاتهم على انطاكية ١٢٥٩ - ١٢٦٠.

ب - استولى ميشيل باليولوج على القسطنطينية بمساندة جنوه، انطلاقاً من نيقية.

١٢٩١ - سقطت عكا بيد المماليك، فأخلى الصليبيون صور وصيدا وبيروت من دون قتال، إذ وقعوا بين فكّي المماليك والامارة التنوخية في جبال لبنان.

وكانت طرابلس وإنطاكية قد سقطتا على يد السلطان قلاوون عامي ١٢٨٩، و١٢٩٠[2]، ما قطع الطريق على الحملات البرية، الأمر الذي أدى الى سقوط آخر معاقلهم عام ١٢٩١.

---

(١) من مكتبات ليدن وباريس ولندن والفاتيكان وغيرها، كما يوجد في مكتبة موسكو وغيرها مخطوطات عربية ما زال الكثير منها طي النسيان، أو لم ينشر.

(٢) ارنست باركر - الحروب الصليبية - نقله الى العربية د. السيد الباز العريني - الطبعة الثانية - دار النهضة - بيروت - دون تاريخ ص ١٢١.

انعكاس الحملات الصليبية وتداعياتها

«سادت الحضارة العربية بنصرها في فلسطين وسقطت الحضارة العربية في فلسطين ولن تقوم مجدداً إلا من فلسطين»

المؤلف

في الأثر الحضاري

تبيّن لنا من استعراض تاريخ القرون الثلاثة العاشر والحادي عشر والثاني عشر، أن الحملات الفرنجية لم تبدأ مع بداية الحملات الصليبية، كما ان ما سنعرضه فيما يلي يبين ان هذه الحروب لم تنته معها، مايسوغ التسمية التي أطلقها بعضهم على تاريخ هذه الحقبة أي «العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى». فالحقيقة ان النزاع على السيطرة على طرق التجارة العالمية لم يحمل شعار الصليب الا في حملات محدّدة، وأن هذه الحملات اتخذت هذه التسمية خلال مرحلة تحولية في تاريخ الحضارة في كل من اوروبا والشرق اتسمت بطغيان ايديولوجية دينية متشددة لدى الطرفين، لتدخل في سياق النزاعات على النفوذ في غرب المتوسط وشرقه وفي اوراسيا، من أجل السيطرة على شرايين التجارة بين الشرق والغرب.

وعلى الرغم من ان سمة مشتركة حكمت ايديولوجية هذين العالمين، أي التعصب الديني، الذي غلّف هذا الصراع في هذه الحقبة، الا ان فارقاً كبيراً بين الاثنين كَمَنَ في هذا التقاطع، وهو ما حَفَزَهُ وأعطاه شكله، ففي اوروبا حضارة تحتضر فتكتسب من هذا الصراع احتكاكاً حضارياً يحفزها الى منحى جديد يتسم بالعقلانية والتحول من الفكر الغيبي الى الفكر العلماني العلمي، وسينبثق عنه عصر التنوير سيما بعد عام ١٤٩٢ أي بعد سقوط غرناطة، وحضارة في الشرق ينشئها شعب، تحمل كل خبرات الحضارة القديمة العريقة (الشعب العربي) فتنبثق من إرث ثقافي تشبّع به على امتداد أرضه، ووجد نهضته، أو قل مرحلة ثورة تجديده، بالدين

الاسلامي الذي أوجد تسوية بين المنجز المادي للحضارة والوضع الانساني، أي نقل الوضع الإنساني بعامّة، سيما في مجال تحرير الإنسان من عصر العبودية، وحقق نقلة في المفهوم الإنساني انعكس على التنظيم الاقتصادي ـ الاجتماعي، كما على الصعيدين الفكري البحت والاجتماعي بتغيير في نمط العلاقات الانسانية ونمط انتاج الحياة والتحرر من الاستعمار وكبح نظام العبودية وتهديمه. ولكن هذا الدين الجديد، انتشر وتوسع لجهة الشرق حيث كان ثمة فراغٌ روحيٌ وأزمات اجتماعية خانقة تسود مجتمعات الشرق (كما هو الحال في بلاد فارس) وتحتاج الى الثورة، أو الى شعوب بدائية لا تتمتع بإرث ثقافي يذكر (مجتمعات وسط آسيا) فسدّ لها فراغاً روحياً كبيراً ونقل اليها حضارته وثقافته فنقلها من مرحلة بدائية الى مرحلة حضارية عليا سادت ذلك العصر، ولكنه اصطدم في الشرق بحدود حضارات قديمة لاتعاني أزمة كبيرة (الهند والصين) ولا تعاني من فراغ كبير، فتوقف زحفه، وكذلك الحال في الغرب (الا في شرقي اوروبا). ولكن الاتساع الهائل للامبراطورية العربية الاسلامية (وهي أكبر امبراطورية حتى ذلك العصر، أذاب العنصر العربي المشبع بالتراث الثقافي فيها، وأدى بطبيعته الانسانية الجديدة «لا فرق لعربي على أعجمي الا بالتقوى» الى غلبة العنصر غير العربي على الدولة المركزية، فأدى ذلك الى نتيجتين حضاريتين حاسمتين:

أولاً: فقدان العنصر العربي في السلطة، ما أفقد هذه السلطة إرثها القومي الثقافي الحافز للتقدم.

ثانياً: سيطرة العنصر غير العربي، ذي الخلفيات الحضارية اللاقومية والمتخلّفة التي جمّدت الاسلام التقدمي وأفقدته روحه الحافزة لتطوره.

هذا ما أدى الى سقوط الحضارة العربية ـ الإسلامية الدينامية لمصلحة الحضارة الاسلامية الآسيوية الجامدة، وبرأيي فإن العامل الأهم لهذا الجمود، هو ان مذهب الدولة العربية السني، الذي أوقف الاجتهاد حيث تكمن دينامية حركة التطور (ولعل ذلك طبيعي، فالاجتهاد في السنة اقتصر على العرب، وحينما سقطت السلطة من يدهم لتقع في أيدي سلطة لا تحمل ارثاً ثقافياً يمكّنها من السير قدماً فيه، تجمّدت أو أنحرفت).

أمّا على أطراف الدولة، وحيث قامت سلطة شيعية، فقد استطاعت هذه الدول ان تحمل الهمّ القومي فتجددت النهضة الى حين (الدولة الفاطمية ـ العربية، والامارة التنوخية، والامارة الحمدانية) بترتيب عكسي، ولكن العوامل التي جمّدت

الدولة السنية ما لبثت ان تسلّلت الى الدولة الفاطمية، بالإضافة لعامل أن مركز الثروة الأساسي (خط الشرق الأقصى التجاري على ساحل الشام ووسط آسيا) لم يكن بيدها، فما لبثت ان سقطت كذلك، بالإضافة الى عامل القوة الشعوبي السني وضغط الحروب الافرنجية عليها.

والخلاصة، ان هذه الحروب بالاحتكاك الحضاري من جهة العرب، مهّدت لنهضة الغرب، وبالضغط العسكري الغربي أدت الى السقوط النهائي لحضارة الشرق وتحنيطها[١].

وطبيعة الهزائم العسكرية (الاجتياح الصليبي) ان تقضي على حضارة تميل الى السقوط، أو تحدث مداً ثورياً يؤدي الى نهوض حضاري جديد بكشفها عن عيوب المجتمع المنهزم[٢]. (نكبة فلسطين).

التداعيات السياسية على ساحل بلاد الشام ومصر

«اذا أسقطت هزيمة حضارة ما،
فذلك لا يكون الا فعل القشة التي
تقصم ظهر البعير»

المؤلف

كانت الحروب الصليبية هزيمة للحضارة العربية ونصراً للحضارة الاسلامية، فتوحد المجتمع الاسلامي وسادت دولة المماليك، ثم الأتراك العثمانيين بأفكارهما المتزمتة، وتفتت المجتمع العربي وسادت فيه المنازعات الدينية والطائفية: التي ما زلنا نعاني من ذيولها، ونعيش محن تفتتها، مفتقدين روح التسامح.

١٢٩٣ ـ كتب الملك الناصر محمد بن قلاوون من مصر كتاباً الى الأمير زين الدين ابي الجيش والأمير جمال الدين حجي التنوخي يقول انه متى توجه سنقر المنصوري بالعساكر لقتال الجرديين (مسيحيين ومسلمين ـ المؤلف) يذهبان معه (لخلاف بين تنوخيّي الجرد وتنوخيي الغرب ـ المؤلف) وأنه من أسر أسيراً فهو له رقيق ومن أحضر رأساً فله دينار فسارا فاندفعت عليهم المردة[٣] (الكسروانيون) وهزموهم.

---

(١) أنظر مقالنا «مطارحات علمانية» لمكرم سعيد حنوش ـ مجلة المنابر ـ العدد ٩٦ سنة ١٩٩٩.

(٢) أنظر (الايديولوجية الانقلابية) د. نديم البيطار وكذلك «الفعالية الثورية في النكبة» للمؤلف نفسه وكذلك: مقالنا «المسألة اللبنانية والتدخلات الاجنبية ـ مرجع مذكور آنفاً، ومقالنا: محنتي مع الفكر الديني (لم ينشر).

(٣) نذكّر هنا بخطأ هذه التسمية (فالكسروانيون عرب مسيحيون) ـ أنظر كتابنا «تاريخ الاقطاع في لبنان ٧٥٨ ـ ١٨٦٤) ص ٢٧ ـ ٢٨ (حاشية) وكذلك مقالنا («تاريخ الاقطاع في لبنان...» رد وإيضاح لما التبس) ملحق نهار الشباب العدد ٤٠٢ ـ ٢٣ ـ ٢٠٠١/١/٢٩.

١٣٠٠ ـ هاجم الكسروانيون امارة الجرد التنوخية وحاولوا الاستيلاء على ظهر البيدر ليعزلوا السواحل عن بر الشام ليصبح الساحل فريسة سهلة للصليبيين، فهاجموا عين صوفر ودمروا شارون وشمليخ وقرى أخرى، ولكن التنوخيين هزموهم وردّوهم على أعقابهم.

١٣٠٤ ـ أ ـ أرسل أقوش الافرم، زين الدين بن عدنان الى الكسروانيين لإقناعهم بالقبول بسلطة الدولة فأبوا.

ب ـ ثم أرسل اليهم تقي الدين ابن تيمية ورافقه بهاء الدين قراقوش للصلح مع التنوخيين والخضوع للدولة فرفضوا عرضه كذلك وخلعوا طاعة جمال الدين المذكور»[1] أفتى علماء الاسلام في دمشق بقتلهم وسبيهم لفتكهم في جيوش االاسلام[2].

١٣٠٧ ـ أ ـ هاجمت شوان (سفن حربية) ساحل الدامور فقتلت وأسرت مجموعة منهم فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التنوخي وأسروا أخاه شمس الدين،

ب) ـ «أيام الناصر محمد بن المنصور توجه عسكر الشام الى كسروان فأخربوها لأنهم سنة ٦٩٩ هـ وعند انكسار العسكر أمام التتار آذاه الكسروانيون وتحصنوا في جبالهم وعصوا على الدولة المنيعة وفي سنة ٧٠٤ هـ. أرسل اليهم جمال الدين اقش الافرم عسكراً من كل الممالك الشامية وانضم اليهم الجرديون، وصعد اسندمر من طرابلس بعد ان كان قد اتُهِمَ بالانحياز اليهم من أصعب الطرق الجبلية، فخربوا زرعهم وقراهم وشردوهم في البلاد، ثم عاد في نفس السنة بهاء الدين قراقوش نائب الشام فأخلى من تبقى منهم وقتل جماعة من أعيانهم، ثم أعطى أماناً لمن استقر بغير كسروان، ثم أقطع لعلاء الدين بن معبد البعلبكي، وعز الدين خطاب، وسيف الدين بن بكتمر الحسامي وابن صبح كسروان، ثم أبطلوا ذلك سنة ٧٠٦ هـ. وأقطعوه للتركمان بثلاثماية فارس من شمالي بيروت[3] (من نهر الكلب) حتى طرابلس (واستمروا الى أيامنا هذا وعرفوا بتركمان كسروان»[4].

«واستمرت اغارات الفرنجة بعد ذلك من قبرص فهاجموا بيروت ٧٨٤ هـ. وعام ٨٠٦ هـ. هاجموا بيروت وصيدا وصدّوا في جميع هذه الغزوات البحرية»[5].

(١ و ٢) الشدياق ص ٥٠٦. والنويري، والحتوني ص ٤٢.
(٣ و ٤ و ٥) الحتوني ص ٤٣.

ومن خلال مواقف الكسروانيين من الدخول الصليبي ١٠٩٩ م وحتى عام ١٣٠٧م. ومن خلال الخطر الاستراتيجي الذي تبدى في العبور الصليبي الى القدس (كما سلف وأوضحنا) والخطر الدائم بمساندة كل اعداء الدولة (الصليبيين والتتار) في غزواتهم ضد الدولة، ومن خلال تهديدهم الدائم للتنوخيين (كمسؤولين بالاقطاع العسكري عن حماية طريق الشام وثغور بيروت) ومساندتهم البرية للأساطيل البحرية في تعدياتها، من خلال ذلك كله، يمكن فهم حملة اقوش الافرم على كسروان، رغم فظاظتها، ليصلح خللاً استراتيجياً تبدّى ابان الحروب الصليبية، وبغير الوعي التاريخي لمثل هذه الحقيقة لا يمكن إصلاح الواقع، وبناء مستقبل سليم.

خلاصات وعبر

كي لا ننسى

لقد حاولت في هذه الدراسة ـ الهيكلية العودة الى جذور الظواهر الجيوبوليتيكية والجيوستراتيجية للمنطقة المدروسة، بدافع قومي ووطني لأتبيّن ما في كوامن لا وعينا السياسي والثقافي من تجارب ومكبوتات تتحكم من لا وعينا الجماعي في تصرفنا في المجالات السياسية الوطنية والقومية وخصائص تشكيلاتنا الاجتماعية، وجذورنا الثقافية كأمة وكمجموعات، ولنتبين مواضع الخلل الراهنة، وسبل معالجة المخلّفات السلبية من شخصيتنا الثقافية من ناحية، ولإدراك القواعد الجيوبوليتيكية والجيوستراتيجية التي يفرضها الموقع الجغرافي والمستفادة من تجارب التاريخ، في محاولة لكشف السيرورة التاريخية، لأن أي تصرف خارج عاملي الجغرافية والقواعد التاريخية في مجال السياسة، هو كإبحار من دون بوصلة، سيما في هذه المنطقة البالغة الحساسية التي تتلاطم فيها الأمواج من كل حدب وصوب.

والتاريخ الحضاري والسياسي للشعوب هو الناتج الطبيعي لموقعها الجغرافي، ولبيئتها الجغرافية الطبيعية، وأثر الاثنين معاً على العمران urbanisation، وعلى المسالك، وعلى احتكاك الحضارات بعضها، وعلى تجربتها الحضارية.

وهذه العوامل مجتمعة تنتج ايديولوجيات الشعوب.

وإذا كانت ايجابيات العراقة الحضارية، تأصل الثقافة وعمق انطباعها في شخصية الشعوب، فسلبية هذه العراقة تراكم العقد النفسية ـ الاجتماعية، وكذلك عمق تأثيرها اللاواعي على التصرف ككل الأمراض النفسية المزمنة. وبمقدار

أهمية المنطقة ستراتيجياً. تزداد التدخلات وحدة الصراعات الناتجة عن تضارب المصالح الدولية، وفي المسائل التي يواجهها ساحل بلاد الشام على مدى القرون الأخيرة، تتجلى هذه الأمور الثلاثة معاً.

فبدأ من خليج الاسكندرونة في الشمال، وحتى رفح في الجنوب، تقوم أعوص مشكلات هذه الأمة، والتي تأتي كانعكاس لأهمية محيطها اضافة الى أهمية موقعها، فهل يمكننا ان نفصل مشاكل هذا الساحل اليوم عن مسائل ثلاث: ١) الطرق التجارية الدولية على أنواعها سيما قناة السويس في الجنوب، وطرق أسيا الوسطى في الشمال؟ ٢) وهل يمكن فصل ما يصيبنا هنا عن وجود البترول سيما في شبه الجزيرة العربية والعراق؟ ٣) هل يمكننا فصل مشكلاتنا الراهنة عن التكوين الايديولوجي لسكان هذا الساحل بكليته أو بمجموعاته المختلفة، وانعكاسها على علاقاته بمحيطه؟

وتالياً هل يمكننا وفقاً لما يستفاد من هذه الدراسة ان نفصل أمننا عن أمن هذه المنطقة بكونها ظهيرة لنا، وبكوننا مدخلاً اليها؟.

هذا الكتاب الأول لا يلقي ضوءاً على الموضوع بأسره وبين نهاية أحداثه وبيننا سبعة قرون، ولكنه يسعى لأن يلقي ضوءاً على القواعد العلمية للإجابة عنها.

وهل يجوز ان نلقي كل اللوم على الصراعات الدولية فيما نعاني منه؟ أي هل يمكن ان نرمي بمسؤولية كل مشاكلنا على التدخلات الأجنبية؟. الجسم الذي يصاب بكل الأمراض والفيروسات التي يتعرض لها، هو جسد فاقدُ المناعة وبالتالي عديم القدرة على رد الأمراض، والضعيف دوماً يغري الاقوياء، كما يجلب النقص في الضغط الجوي الرياح والعواصف.

وإذا كان التاريخ السياسي لهذا الساحل منذ نشوء المجتمعات السياسية وحتى اليوم يثبت هشاشة أمنه وعدم قدرته على حفظ استقلاله، فلا اظننا اليوم في خضم الصراع الذي لا مثيل تاريخياً لحدته نستطيع ان نخالف هذه القاعدة، ويبقى خيارنا الوحيد أي فريق نختار، وإذا اختلفت كمجموعات خياراتنا، فذلك يعني ان نختار من دون ان ندري، أن تكون ساحة المعركة بين ظهيرنا والطامعين به وبنا، فلا يبقى لنا على ذلك الا خيار واحد وهو ان نختار ظهيرنا العربي. صحيح ان قدرنا ان نكون خط الدفاع الأول، ولكنه يبقى أفضل من الخيار الآخر، أي أن نكون ملعباً وساحة لمعركة نكون نحن أدواتها وضحاياها.

أمّا عدم اتفاقنا على موقف، ذي اطار واحد على الأقل، فهو أحد أخطر مظاهر مرض فقدان المناعة.

لقد مر لبنان في الربع الأخير من القرن العشرين بتجربة بالغة القسوة ١٩٧٦ ـ ١٩٩١ حرب أهلية وحتى عام ٢٠٠٠حرب تحرير الجنوب مع اسرائيل، ولا أظن ان لبنانيين يمكن ان يختلفا على أن المرحلة الثانية على صعوباتها، كانت أقل قسوة بما لا يقاس من المرحلة الأولى. ومن هذه المسألة يمكن ان تستفاد قاعدة تاريخية أخرى: الحروب الأهلية هي اسوأ أنواع الحروب، وإذا كان الخيار ينحصر ما بين اثنين أحلاهما مرّ، فإن الخيار الثاني هو الأقل مرارة.

وإذا كان فصل مصيرنا عن مصير هذه المنطقة، كما يستفاد من هذا الكتاب مستحيلاً، وفصل أمننا عن أمن هذه المنطقة كذلك مستحيلاً، فيصبح خيار الحرب الخارجية أهون الشرين من دون جدال. وبهذا الخيار فقط نقضي على أول عامل من عوامل فقدان المناعة.

أما العامل الثاني وهو الأهم ظرفياً ومستقبلياً، وهو في أصل مرض عدم المناعة، فهو الانقسام السياسي ـ الطائفي.

فعجز مجتمعاتنا عن مواجهة التحديات يعود الى تذرّرها وعدم تماسكها، بالرغم من طاقاتنا وإمكاناتنا وقدراتنا الفائقة كعرب، فمجتمعاتنا منقسمة عمودياً ليس بالطائفية وحسب، انما بالمذهبية كذلك وليس بالقطرية فحسب انما بالمناطقية كذلك ونجرّ ذلك كله على السياسة، ومجتمعاتنا منقسمة أفقياً كذلك بالطبقية والفروق الاقتصادية الاجتماعية، وبالسلطوية ومعارضة السلطة. فهذا الجسد الهائل الضخامة بتقسيمه العمودي والأفقي استحال الى مربعات صغيرة مغناطيسية متنافرة أفقياً وعمودياً، ما يحيلها الى ذرات يتنافر فيها السالب مع السالب، والموجب مع الموجب. اننا أشبه بمولد بالغ الضخامة قطعه مفككة ومتنافرة، وأيهما أكثر فاعلية محرك باخرة مفكك أم محرك مروحة يعمل بتناسق؟ بترجمة هذه التشابيه على الواقع يمكن أن تفهم لماذا هزمتنا اسرائيل على صغرها؟!! وبهذا التشبيه يمكن ان نفهم لماذا تستطيع ان تستعملنا الصراعات الدولية وقوداً في آتونها.

من على أرض هذه الأمة انبثقت الحضارة، ومنها بدأت انتشارها[1] وعلى أرضها، وبحكم موقعها تتفاعل الحضارات، وقد مهدت هذه الأمة في عملية جدلية بين المادة والوعي، بالابراهيمية والمسيحية، لثورة نقلت الحضارة الانسانية من عصور العبودية الى العصور الحديثة بالتسوية التي حققتها «ثورة الاسلام» بين

---

(١) أنظر: الفصل الأول من هذا الكتاب، وكتابنا «الانسان والحضارة جدلية المادة والوعي».

المنجز المادي للحضارة والوضع الانساني وحقق الاسلام ثورة على الصعيد القومي والانساني في مراحل تحققه وصعوده كما عرضنا في عجالة هذا الكتاب، ولكن ومع سقوط الحضارة العربية تحولت الدولة الدينية التي أقامها الاسلام، الى حركة تفتيت للمجتمع، وأورثتنا هذه الدولة كل ما نعاني منه اليوم من أمراض وعقد ما زلنا منذ عشرة قرون نتخبط بها، «فكل ايديولوجية تقيم حضارة ما هي نفسها التي تؤدي الى سقوطها بعد ان تستنفذ مفاعيلها الايجابية»[1]، ولقد سقطت في تنظيمنا السياسي الدولة الدينية، لتخلي مكانها كما في مجتمعنا للدولة المذهبية والطائفية. لقد سقطت الدولة الدينية ولم تسقط ايديولوجيتها، والايديولوجية هي غير العقيدة، هي تمظهرات العقيدة في النظام الفكري العام، لقد سقطت الدولة ولم تسقط الايديولوجية والعقد الناجمة عنها.

ولا يمكن إعادة عقارب الساعة الى الوراء، فمرحلة الدولة الدينية في مسار التطور الحضاري قد سقطت، ولا يمكن اعادة الروح اليها، والشرائع تختلف باختلاف الأزمان، فبالدولة العلمانية التي يتساوى فيها كل المواطنين في حق الاختلاف بالمعتقد والفكر والحقوق السياسية، بالدولة العادلة التي تزيل الفوارق تدريجاً بين الطبقات وتزيل هذا التقسيم العمودي والأفقي لمجتمعاتنا، بدولة ترفض ان يقع الظلم عليها كما ترفض ان توقع الظلم على من عداها من دول، تكمن حلول مشاكلنا الراهنة ورسالتنا في تخليص الحضارة الانسانية من أزماتها الراهنة، بتسوية جديدة بين المنجز المادي للحضارة والوضع الانساني، أي بتسخير المنجز المادي للحضارة لخدمة الانسان وليس على حسابه.

كي لا ننسى

ولا ننسى أخيراً أننا ندين لأخوتنا المسيحيين، ببعث نهضتنا القومية الثقافية، كما ندين لهم بإحيائهم للفكر العربي الذي يجعل الانتماء للقومية العربية بكونها رسالة انسانية فوق أي انتماء آخر. وان نسينا فهل ننسى ونحن نحب الشعر قول (الشاعر القَرَوي) رشيد سليم الخوري وهو يدعو لصحوة عربية اطلق نفيرها ابو العلاء المعري منذ ألف سنة ويردد صداها:

هبوني عيداً يجعلُ العربَ أمةً	وسيروا بجثماني على دين بَرْهَمِ
فقد مزَّقتْ هذي المذاهبُ شَملَنا	وقد حطمتنا بين نابٍ ومنسمِ

---

(١) أنظر كتابنا الانسان والحضارة ـ مرجع مذكور آنفاً أو «الثورة والثوري وشروطهما» مقال منشور في مجلة المنابر ـ بيروت العدد، ١٩٨٨.

سـلامٌ على كـفـرٍ يوحِّـد بيننا   وأهلاً وسـهـلاً بعـدَه بجـهنمِ

سيما وان الدولة الدينية، هي دورة حضارية يجب ان نتخلى عن جثتها المحنطة غير آسفين، وهي قد اضطهدت كل المذاهب الاسلامية أكثر مما اضطهدت المسيحيين، وان كانت قد اضطهدت المسيحيين من جملة من اضطهدتهم فلم تتعمد أهل كسروان عن عبث، فمقاتل الطالبيين والدروز مثلاً أشد عنفاً من اضطهادها للمسيحيين، فلنبنِ الدولة الحديثة بنفس سليمة خير من ان نبقى أسرى عقدنا النفسية ـ الاجتماعية وأجدى للبشر وأشد شفاعة لدى الله، فلم يكن الذين قال لهم السيد المسيح «أحبوا بعضكم بعضاً كما أحببتكم جميعاً» بَعدُ مسيحيين، ولجميع البشر وليس للمسلمين وحدهم جاء في الكتاب «إن أحبكم عند الله أتقاكم».

«والجنة والدين هما بغنى عن دفاعنا عنهما ويبقى الوطن الموحَّد هو الضمانة الوحيدة لجميع أبنائه».

المؤلف

وثيقة

اتفاقية سايكس ـ بيكو(*)

١٦ أيار ـ مايو ١٩١٦

نصّ الوثيقة

المادة الأولى ـ ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان ان تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) (داخلية سورية) و(ب) (داخلية العراق) المبينتين في الخريطة الملحقة بهذا ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولانكلترا في منطقة (ب) حق الاولوية في المشروعات والقروض المحلية، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وانكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثانية ـ يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء (شقة سورية الساحلية) ولانكلترا في المنطقة الحمراء (شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس)[1] انشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالواسطة أو من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية.

المادة الثالثة ـ تنشأ ادارة دولية في المنطقة السمراء (فلسطين) يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة.

المادة العاشرة ـ تتفق الحكومتان الانكليزية والفرنسوية بصفتهما حاميتين للدولة العربية على ان لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثانية ان تمتلك أقطاراً في شبه جزيرة العرب، او تنشىء قاعدة بحرية في الجزائر على ساحل البحر الأبيض

(١) (نقلاً عن جورج انطونيوس: يقظة العرب، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٥٧٩ ـ ٦٨٢).

الشرقي(٤). على ان هذا لا يمنع تصحيحاً في حدود عدن قد يصبح ضرورياً بسبب عداء الترك الاخير.

المادة الحادية عشر ـ تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعيين حدود الدولة أو حلف الدول العربية.

المادة الثانية عشرة ـ من المتفق عليه عدا ما ذكر ان تنظر الحكومتان في الوسائل اللازمة لمراقبة جلب السلاح الى البلاد العربية.

المادة الرابعة ـ تنال انكلترا ما يأتي:

(١) ميناء حيفا وعكا.

(٢) يضمن مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ) للمنطقة (ب) وتتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بأن لا تدخل في مفاوضات ما مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص الا بعد موافقة الحكومة الفرنسوية مقدماً.

المادة الخامسة ـ تكون الاسكندرية ميناء حراً لتجارة الامبراطورية البريطانية، ولا تنشأ معاملات مختلفة في رسوم الميناء، ولا ترفض تسهيلات خاصة للملاحة والبضائع البريطانية وتباح حرية النقل للبضائع الانكليزية عن طريق اسكندرونة وسكة الحديد في المنطقة الزرقاء سواء كانت واردة الى المنطقة الحمراء او الى المنطقتين (أ) و(ب) أو صادرة منهما. ولا تنشأ معاملات مختلفة (مباشرة أو غير مباشرة) على أي سكة من سكك الحديد أو في أي ميناء من موانىء المناطق المذكورة تمس البضائع والبواخر البريطانية.

وتكون حيفا ميناء حراً لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها ولا يقع اختلاف في المعاملات ولا يرفض اعطاء تسهيلات للملاحة والبضائع الفرنسوية ويكون نقل البضائع الفرنسوية حراً بطريق حيفا وعلى سكة الحديد الانكليزية في المنطقة السمراء، سواء كانت البضائع صادرة من المنطقة الزرقاء او الحمراء او المنطقة (أ) أو المنطقة (ب) أو واردة اليها ولا يجري أدنى اختلاف في المعاملات بالذات أو بالتبع يمس البضائع أو البواخر الفرنسوية في أي سكة من سكك الحديد ولا في ميناء من الموانىء في المناطق المذكورة.

المادة السادسة ـ لا تمد سكة حديد بغداد في المنطقة (أ) الى ما بعد الموصل جنوباً ولا في المنطقة (ب) الى ما بعد سامرا شمالاً الى أن يتم انشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب ماراً بوادي الفرات ويكون ذلك بمساعدة الحكومتين.

المادة السابعة ـ يحق لبريطانيا العظمى ان تنشىء وتدير وتكون المالكة

الوحيدة لخط حديدي يصل حيفا بالمنطقة (ب)، ويكون لها ما عدا ذلك حق دائم بنقل الجنود في آي وقت كان على طول هذا الخط. ويجب ان يكون معلوماً لدى الحكومتين، ان هذا الخط يجب ان يسهل اتصال حيفا ببغداد، وانه إذا حالت دون انشاء خط الاتصال في المنطقة السمراء مصاعب فنية ونفقات وافرة لإدارته تجعل انشاءه متعذراً فالحكومة الفرنسوية تكون مستعدة ان تسمح بمروره في طريق بربورة ـ أم قيس ـ ملقى ـ ايدار ـ غسطا ـ مغاير(١)، قبل ان يصل الى المنطقة (ب).

المادة الثامنة ـ تبقى تعريفة الجمارك التركية نافذة عشرين سنة في جميع جهات المنطقتين الزرقاء والحمراء والمنطقتين (أ) و(ب) فلا تضاف أي علاوة على الرسوم ولا تبدل قاعدة التثمين في الرسوم بقاعدة أخذ العين الا ان يكون اتفاق بين الحكومتين.

ولا تنشأ جمارك داخلية بين أية منطقة وأخرى من المناطق المذكورة أعلاه وما يفرض من رسوم الجمرك على البضائع المرسلة الى الداخل يدفع في الميناء ويعطى لادارة المنطقة المرسلة اليها البضائع.

المادة التاسعة ـ من المتفق عليه ان الحكومة الفرنسوية لا تجري مفاوضة في أي وقت كان للتنازل عن حقوقها، ولا تعطي ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء لدولة أخرى إلا للدولة او حلف الدول العربية بدون ان توافق على ذلك سلفاً حكومة جلالة الملك التي تتعهد للحكومة الفرنسوية بمثل هذا في ما يتعلق بالمنطقة الحمراء.

المصادر والمراجع

المراجع العربية

- ابن خلدون (المقدمة) ـ طبعة المطبعة الادبية في بيروت ـ ١٨٧٩.
- ابن شامة، «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» ـ ج١، قسم ٢. المؤسسة المصرية، القاهرة ١٩٦٢.
- أبو مصلح حافظ ـ التنوخيون، القرى الدارسة ـ المركز العربي للاعلام والتوثيق ـ بيروت ١٩٩٩.
- باركر ارنست ـ الحروب الصليبية، نقله الى العربية د. السيد الباز العريني ـ دار النهضة العربية ـ بيروت.
- حتي، فيليب ـ تاريخ العرب ـ طبعة دار الكشاف ١٩٦٥.
- ناصر، عارف ـ القرامطة ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
- الحتوني، الخوري منصور طنوس ـ «نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية ـ دار كنعان ـ بيروت.
- الخوري، رشيد سليم (الشاعر القروي) ـ الديوان ـ طبعة وزارة الاعلام ـ بغداد ١٩٧١.
- الشدياق، طنوس ـ تاريخ الاعيان في جبل لبنان.
- الناضوري، د. رشيد ـ جنوب غرب آسيا وشمال افريقيا ـ مكتبة الجامعة العربية ـ بيروت ١٩٦٧.
- الناضوري، د. رشيد ـ التطور التاريخي للفكر الديني ـ مكتبة الجامعة العربية ـ بيروت ١٩٦٧.

- بيطار، د. نديم - الفعالية الثورية في التكبة - دار الاتحاد - بيروت.

- بيطار، د. نديم - الايديولوجية الانقلابية.

- ديسو، رينيه: العرب في سوريا قبل الاسلام - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٥٩.

- دريان، المطران يوسف - البراهين الراهنة في أصل المردة والجراجمة والموارنة» - داركنعان - بيروت ١٩٨٤.

- «رسائل الحكمة».

- سالم، د. عبد العزيز - تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٦٩.

- سالم، د. عبد العزيز - دراسة في تاريخ مدينة صيدا - منشورات جامعة بيروت العربية.

- سويد، د. ياسين - معارك خالد بن الوليد - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٧٧.

- سويد، د.. ياسين. مؤامرة الغرب على العرب - المركز العربي للأبحاث والتوثيق - بيروت ١٩٩٢.

- السيوطي، تاريخ الخلفاء - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية - القاهرة ١٩٥٢.

- شمالي، نصر والفريق عفيف البزري «العرب انهاء عصر الرق وتوحيد العالم» - دار المستقبل - دمشق ١٩٨٩.

- د. السيد الباز العريني - الدولة البيزنطية - دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٦٥.

- صليبي، كمال - البحث عن يسوع - قراءة جديدة في الأناجيل - دار الشرق للنشر والتوزيع - رام الله - ١٩٩٩.

- ضو، الأب بطرس - تاريخ الموارنة - دار النهار للنشر - بيروت ١٩٧٠.

- فرويد، سيجموند - المسيح ليس مسيحياً - ترجمة جورج طرابيشي - دار الطليعة - بيروت.

- الكيالي، سامي - سيف الدولة وعصر الحمدانيين - دار المعارف بمصر - دون تاريخ.

- مكي، محمد علي - لبنان من الفتح العربي الى الفتح الاسلامي.
- القرآن الكريم.
- ارنست فيشر، هـ، أ.ل. - تاريخ اوروبا العصور الوسطى - ترجمة محمد مصطفى زيادة ود. الباز العريني دار المعارف، ١٩٥٤.
- صالح بن يحيى - تاريخ بيروت - طبعة دار المشرق - بيروت ١٩٦٩.
- عبد الملك، عبد المجيد، كتب:
  - الانسان والحضارة - جدلية المادة والوعي - مخطوطة ١٩٩٥.
  - «تاريخ الاقطاع في لبنان ٧٥٨ - ١٨٦٤» المركز العربي للأبحاث والتوثيق بيروت ٢٠٠٠.
- عبد الملك عبد المجيد مقالات:
  - «جبال لبنان وفلسطين وساحلهما» مجلة المنابر العدد ٢٠٠١.
  - الثورة والثوري وشروطهما - مجلة المنابر عدد ٢٤ - ١٩٨٨.
  - مطارحات علمانية لمكرم سعيد حنوش - مجلة المنابر - عدد ٩٦ حزيران ١٩٩٩.
  - المسألة اللبنانية والتدخلات الأجنبية - مجلة الرؤية - عدد ١ - السنة الأولى - ١٩٩٠.
  - رد وإيضاح لما التبس - ردنا على الاستاذ وضاح الحلو - ملحق نهار الشباب عدد ٤٠٢ ٢٠٠١/١/٢٩.
- عفيش، آن ماري - مقال كتاب تاريخ مفتوح - آثار نهر الكلب - مجلة الجيش (اللبناني) عدد ١٩٧ - ٢٠٠١.
- مرّاش، احسان - الحياة الجديدة - دار الطليعة - ١٩٧٢.
- ماجد، د. عبد المنعم - الناصر صلاح الدين يوسف الايوبي - مكتبة الجامعة العربية - بيروت ١٩٦٧.
- ماجد، د. عبد المنعم - الحاكم بأمر الله - الخليفة المفترى عليه - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة.
- ماجد، د. عبد المنعم - العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى - مكتبة الجامعة العربية - بيروت - ١٩٦٧.

- د. جوزيف نسيم يوسف - لويس التاسع في الشرق الاوسط - مؤسسة المطبوعات الحديثة - القاهرة.
- مسكويه - تجارب الامم ج ٢.
- معلوف، أمين - الحروب الصليبية كما رآها العرب - دار الفارابي - بيروت - ط ٢ -١٩٩٣.
- هيرودوت يتحدث عن مصر - دار القلم - القاهرة ١٩٦٦.
- النجوم الزاهرة - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨.
- ابن شامه - كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين الزنكية والايوبية - ج ١ قسم ٢ - طبعة المؤسسة المصرية العامة - القاهرة ١٩٦٢.
- عبد الغفار، الشيخ زين الدين، كتاب النقط والدوائر.
- الشدياق، طنوس - تاريخ الاعيان في جبل لبنان.

مراجع أجنبية

- Atlas historique - Librairie stock 1968.
- Ursula Hatjé - Trentes siècles d'art - Librairie Hachette 1963.
- Ph.H. Lammens l.j. la mecque à la veille de l'Hegire - Librarie catholique Beirouth (Syrie) 1924.
- Dictionnaire des personnages Historiques de tous les temps - Michel Mourse - Bourdas -1972.

وثائق

- وثيقة اتفاقية سايكس بيكو.

خرائط

١ - خريطة مراكز نشوء الحضارة (الهلال الخصيب).

٢ - خريطة مراكز نشوء الحضارة في مصر والحدود الجنوبية للعالم القديم.

٣ - خريطة تضاريسية لساحل بلاد الشام واقليمه ١٤٨٠ ق.م.

٤ - مصر وشعاع نفوذها من ٢٥٠٠ ق.م. ومعركتي مجدو/ وقادش ١٢٩٩ ق.م.

٥ - بلاد الشام والامبراطورية الاكدية في عهد سرجون (الالف الثالث ق.م.).

٦ ـ صراع الحثيين والفراعنة ومعركة قادش وخطر هدنة ١٢٧٥ ق.م.

٧ ـ خريطة اتفاقية سايكس ـ بيكو.

٨ ـ الهجرات العربية الى بلاد الشام مع الاحتلال اليوناني.

٩ ـ المدن التي نشات في العصر الهلينيستي.

١٠ ـ امبراطورية سرجون الثاني.

١١ ـ امبراطورية سرجون الثاني.

١٢ ـ الامبراطورية البابلية الجديدة.

١٣ ـ الامبراطورية الفارسية.

١٤ ـ امبراطورية الاسكندر المقدوني.

١٥ ـ اقتصاد وحضارة العصر الهليني.

١٦ ـ امبراطوريات خلفاء الاسكندر.

١٧ ـ زوال دولة انتيجونوس.

١٨ ـ دول خلفاء الاسكندر حوال ١٨٠ ق.م.

١٩ ـ الفتوحات الرومانية ايام تراجان.

٢٠ ـ روما الامبراطورية السفلى (٢٠٣ ـ ٣٠٥ م).

٢١ ـ الفتوحات العربية الاسلامية حتى عام ٧٥٠.

٢٢ ـ انتشار الاسلام في القرون ٨ و٩ و١٠ والامارة الحمدانية.

٢٣ ـ الدول الاسلامية حوالي سنة ١٠٠٠.

٢٤ ـ الدولة الايوبية والدولة الاسلامية.

٢٥ ـ الحملة الصليبية الاولى.

٢٦ ـ الحملة الصليبية الثانية.

٢٧ ـ الحملة الصليبية الثالثة.

٢٨ ـ الامارات الصليبية ومملكة القدس.

جداول

جدول تاريخي لبلاد الشام ومصر.

فهرس الأعلام والأماكن

فهرس الأعلام

ـ أ ـ

ـ ب ـ

- ز -

- س -

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

فهرس الأماكن

ـ أ ـ

- ب -

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

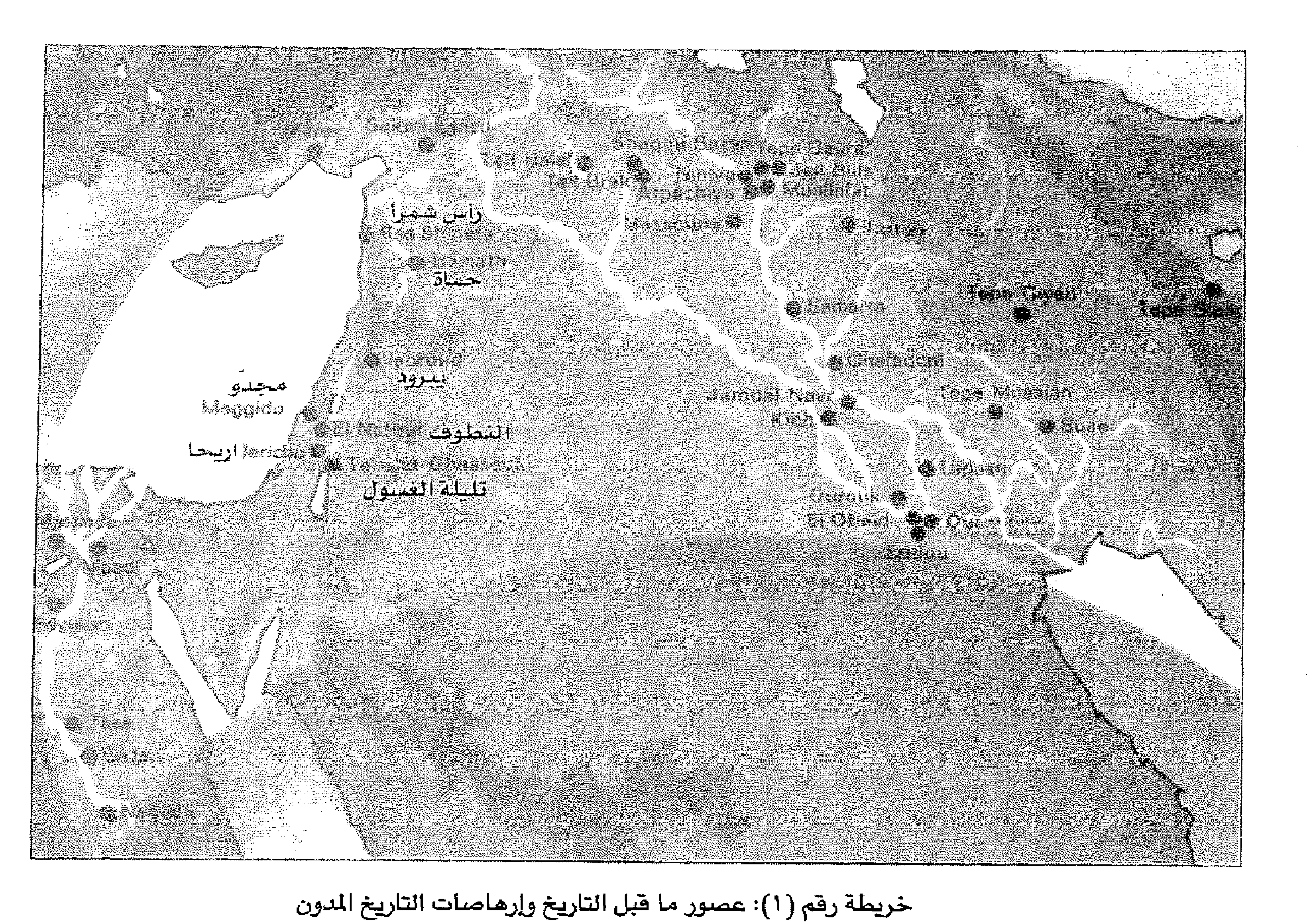
- ر -

- ز -

- س -

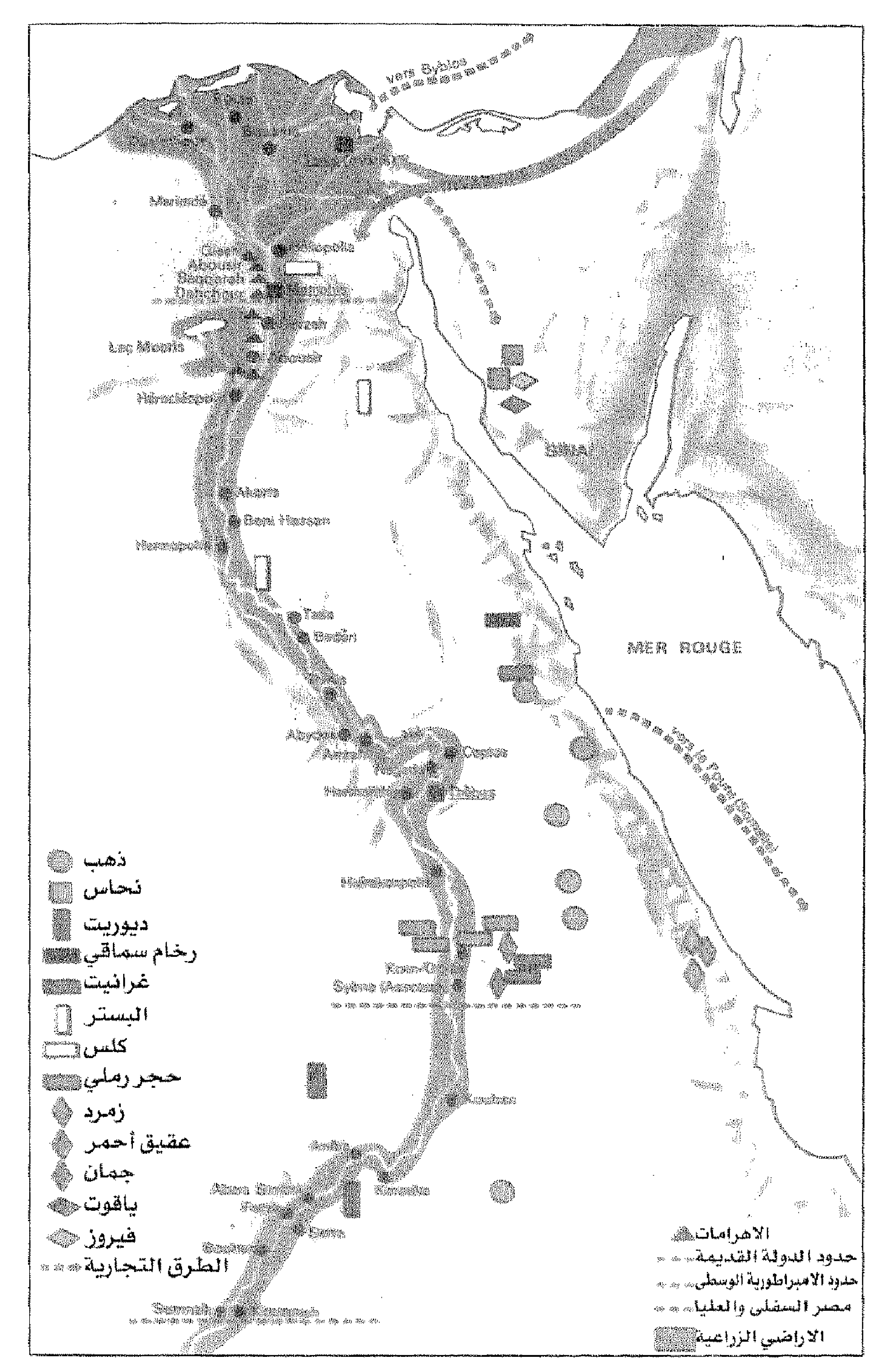
- ش -

فهرس المحتويات



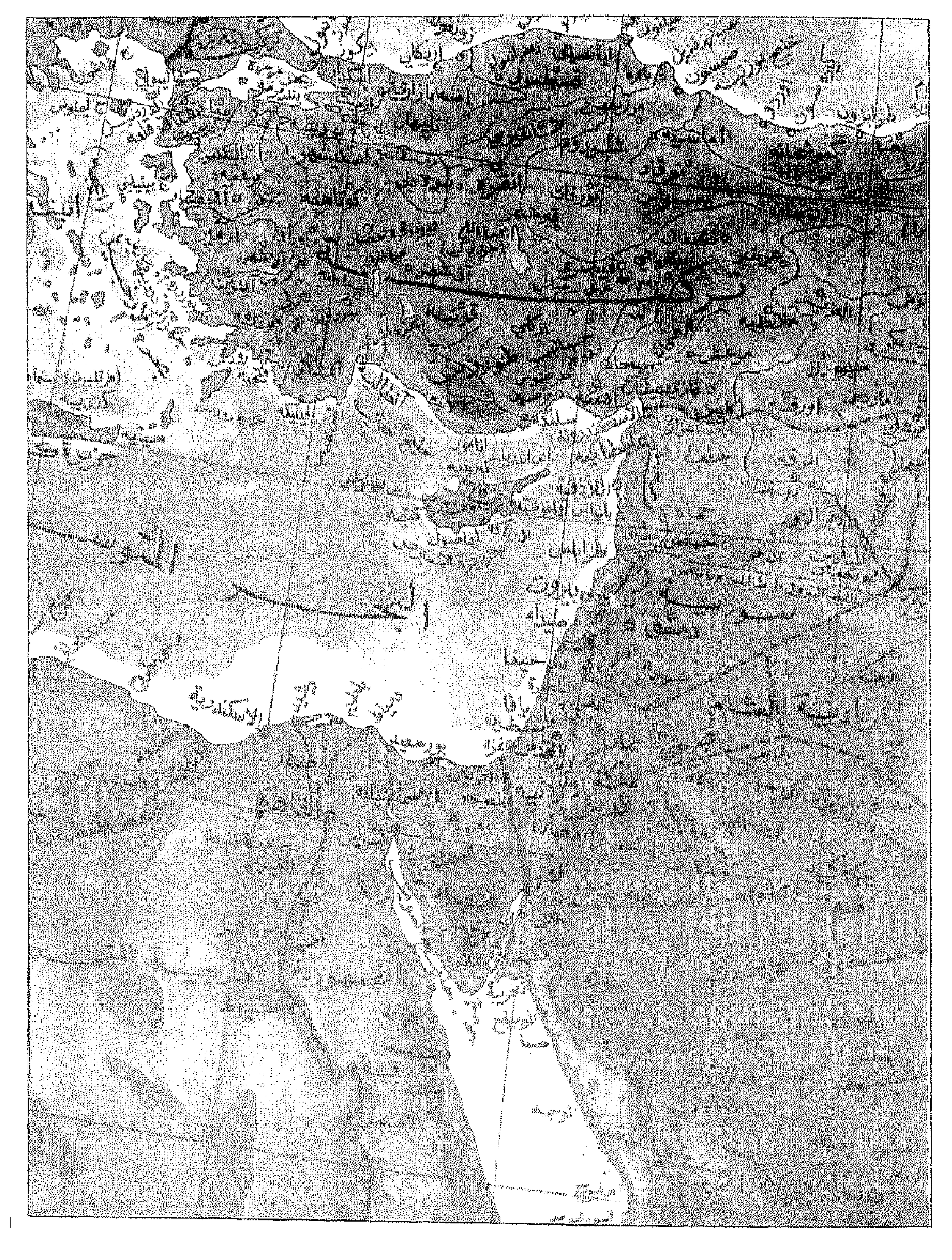
خريطة رقم (١): عصور ما قبل التاريخ وإرهاصات التاريخ المدون

الهلال الخصيب الذي شهد بداية انبثاق الحضارة، ويضم بالإضافة الى ساحل بلاد الشام مصر وبرّ الشام والعراق... التي سيوحد الثقافة والتاريخ السياسي مسارها ومصيرها (انظر كل الخرائط، والجداول التاريخية) والتي تشكل النواة لأمن الأمة وحضارتها، وتظهر فيها مراكز قيام المجتمعات السياسية الاولى.

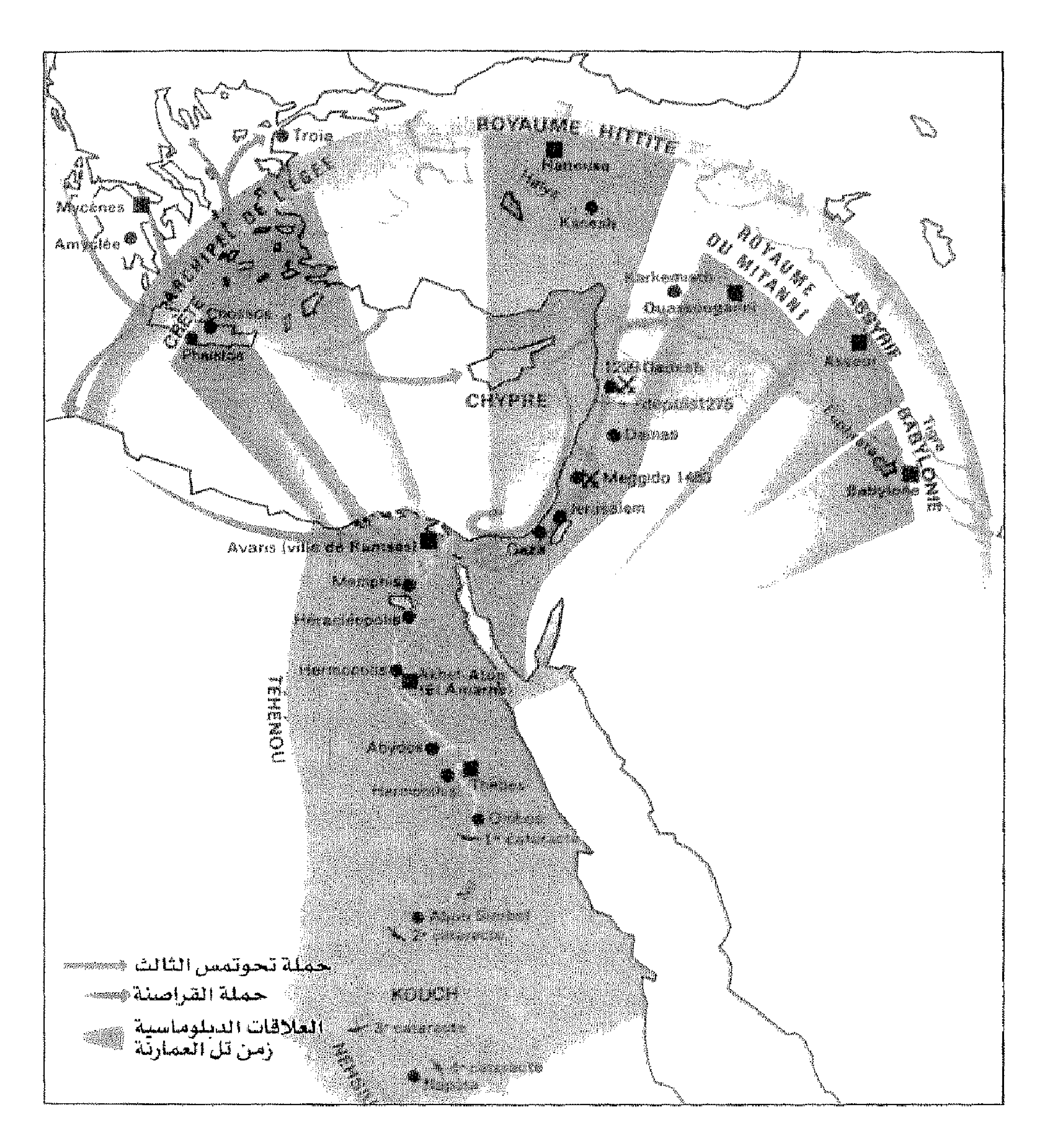


خريطة رقم (٢) مصر (٣٠٠٠ ـ ١٧٥٠ ق.م.) والحدود المعروفة للعالم القديم،

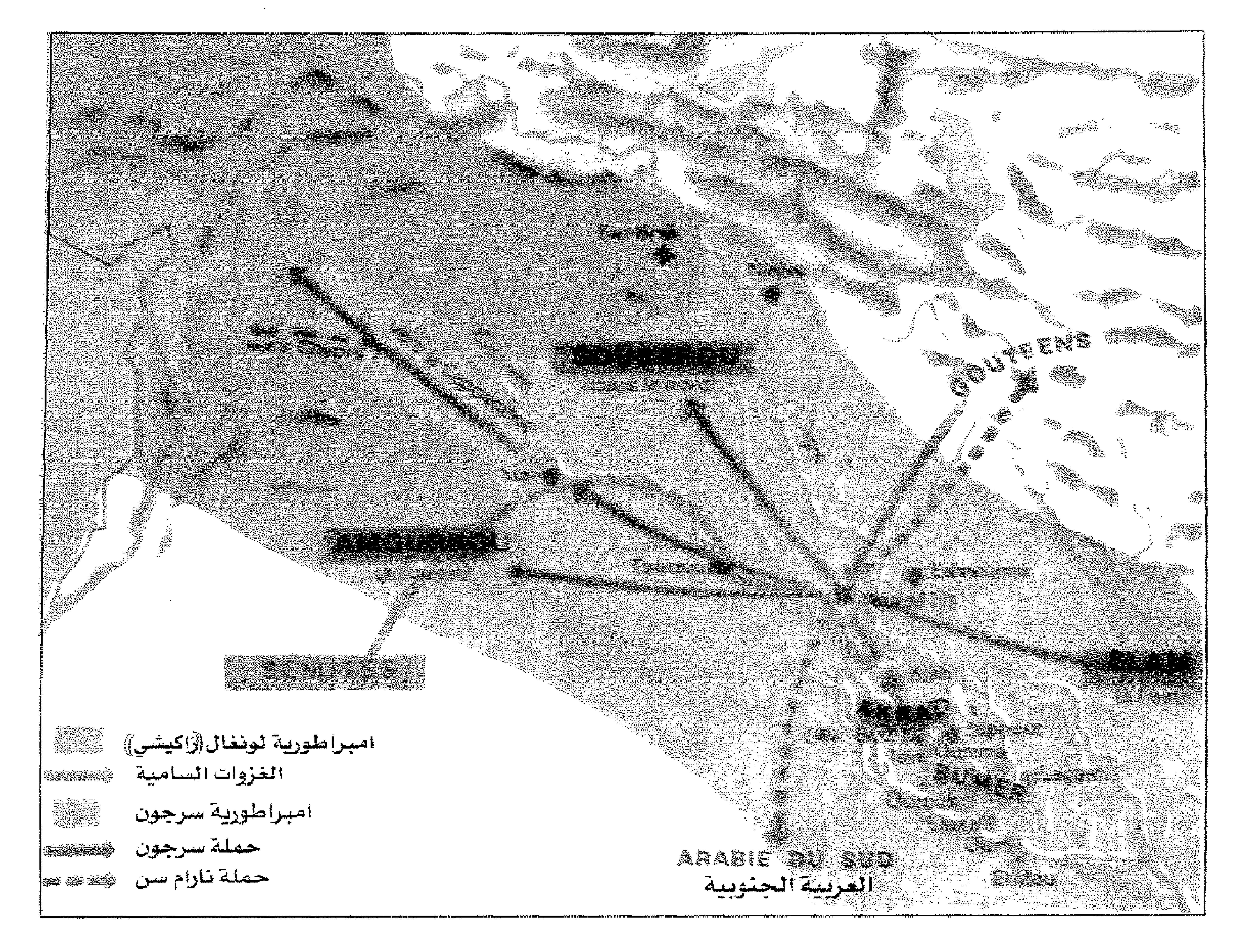
تظهر عليها المراكز الأولى لنشوء الحضارة وجبال شرقي وادي النيل، والمعروفة بشهادة هيرودوت باسم (جبال العرب)، وكذلك يشير السهم الى نقطة ضعف أمن مصر وارتباطه بفلسطين، وطريق الهجرات الى مصر.



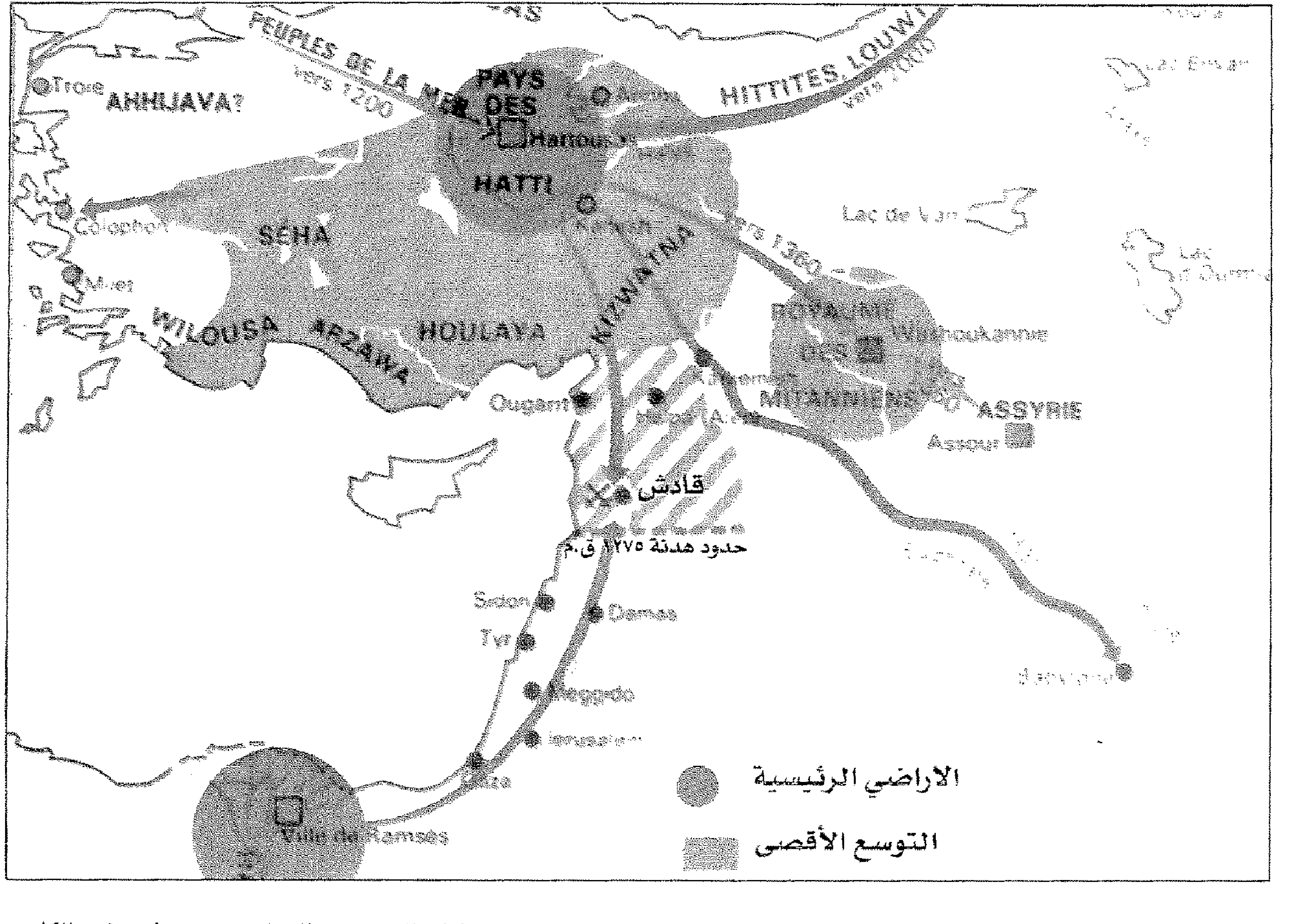
خريطة رقم (٣):
خريطة تضاريسية لساحل بلاد الشام وأقليمه.



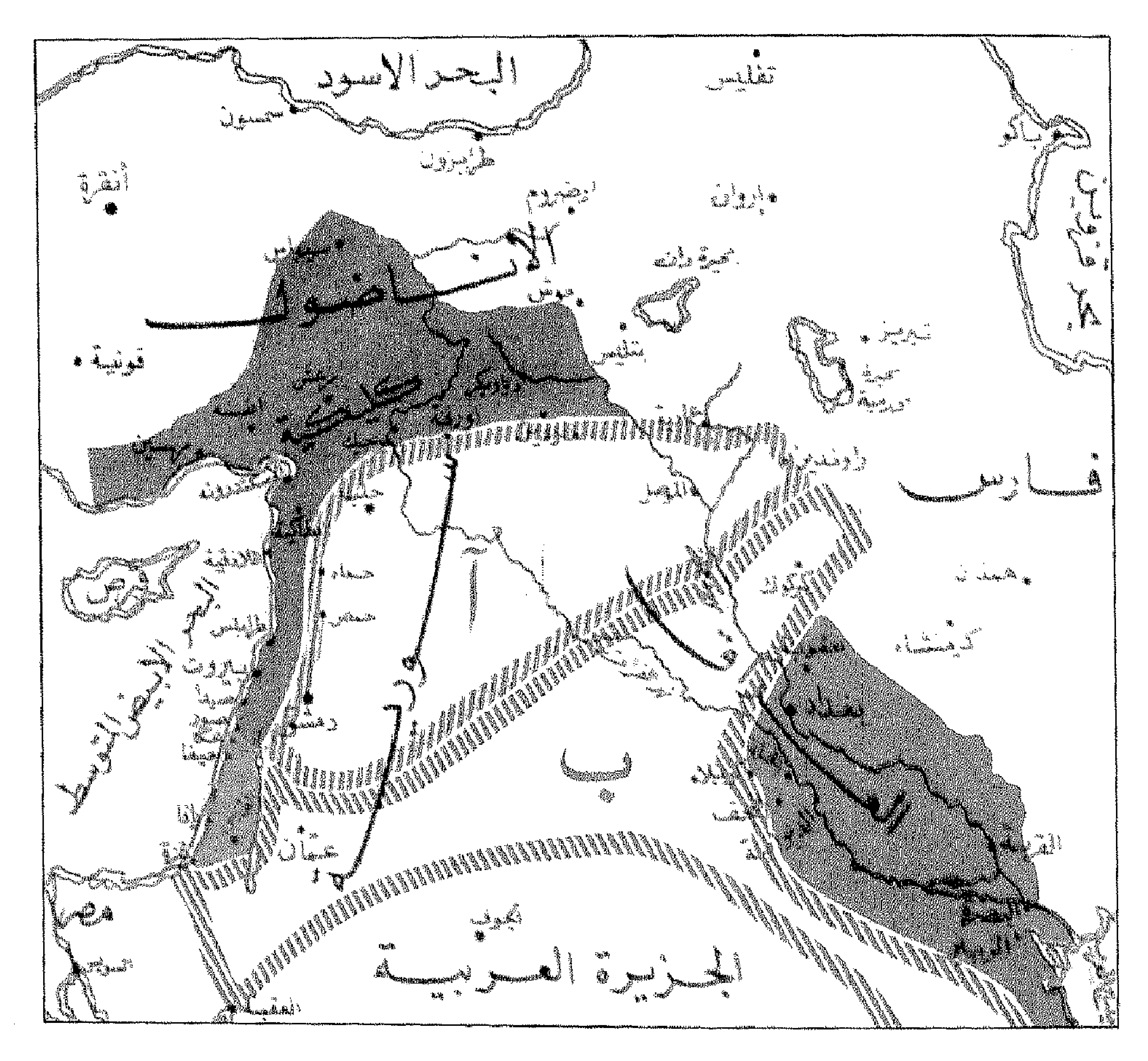
خريطة رقم (٤): مصر وشعاع نفوذها من منتصف الألف الثالث ق.م. حتى معركتي مجدو وقادش وفيها اشارة الى معركة مجدو ١٤٨٠ ق.م. ومعركة قادش ١٢٩٩ ق.م.



خريطة رقم (٥): الألف الثالث ق.م. ساحل بلاد الشام في ظل الامبراطورية الاكادية في عهد سرجون.

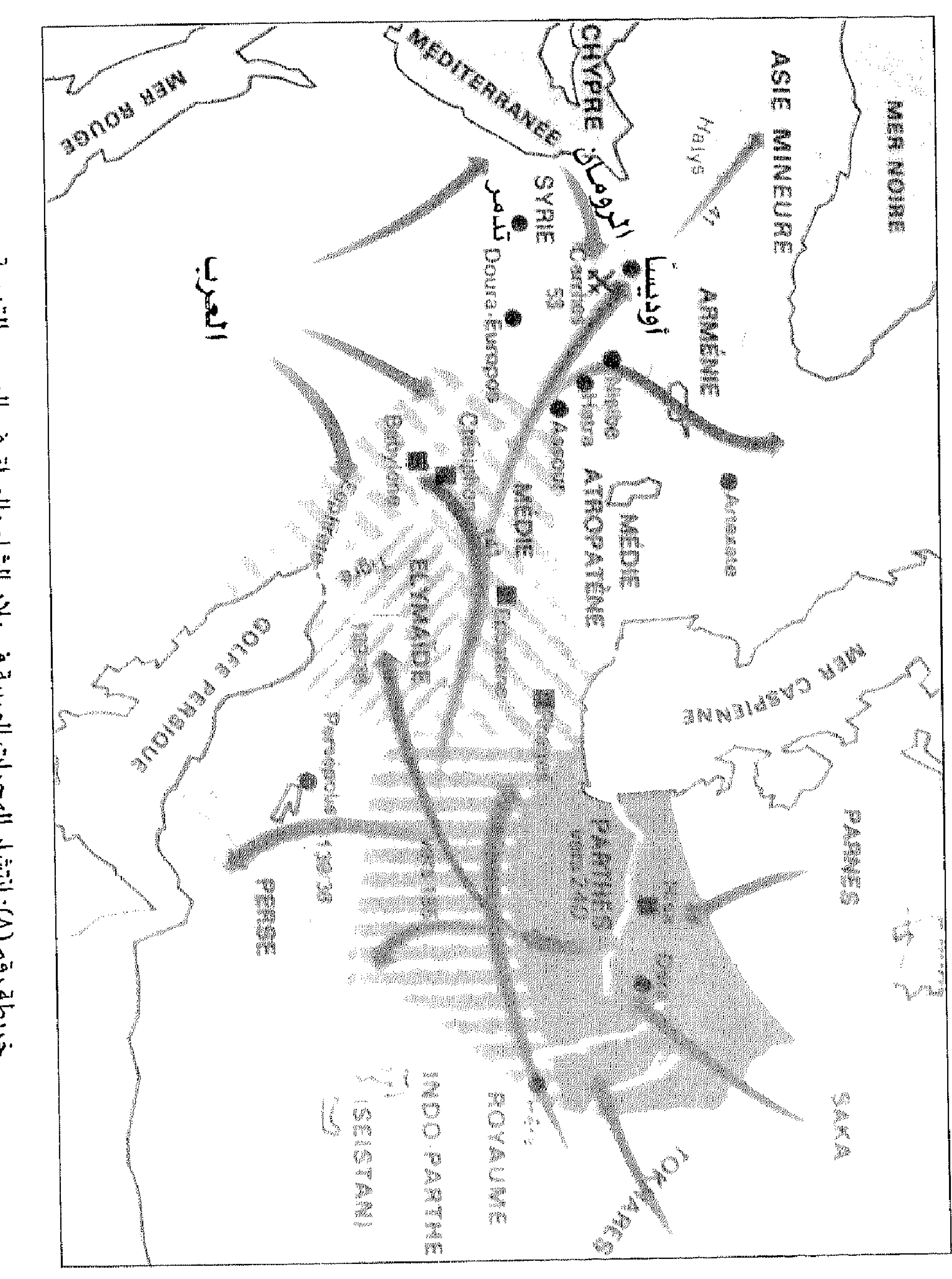


خريطة رقم (٦): صراع الحثيين والفراعنة ومعركة قادش ١٢٩٩ ق.م. وانقسام مناطق النفوذ بين الدولتين عند حاجز نهر الكلب.

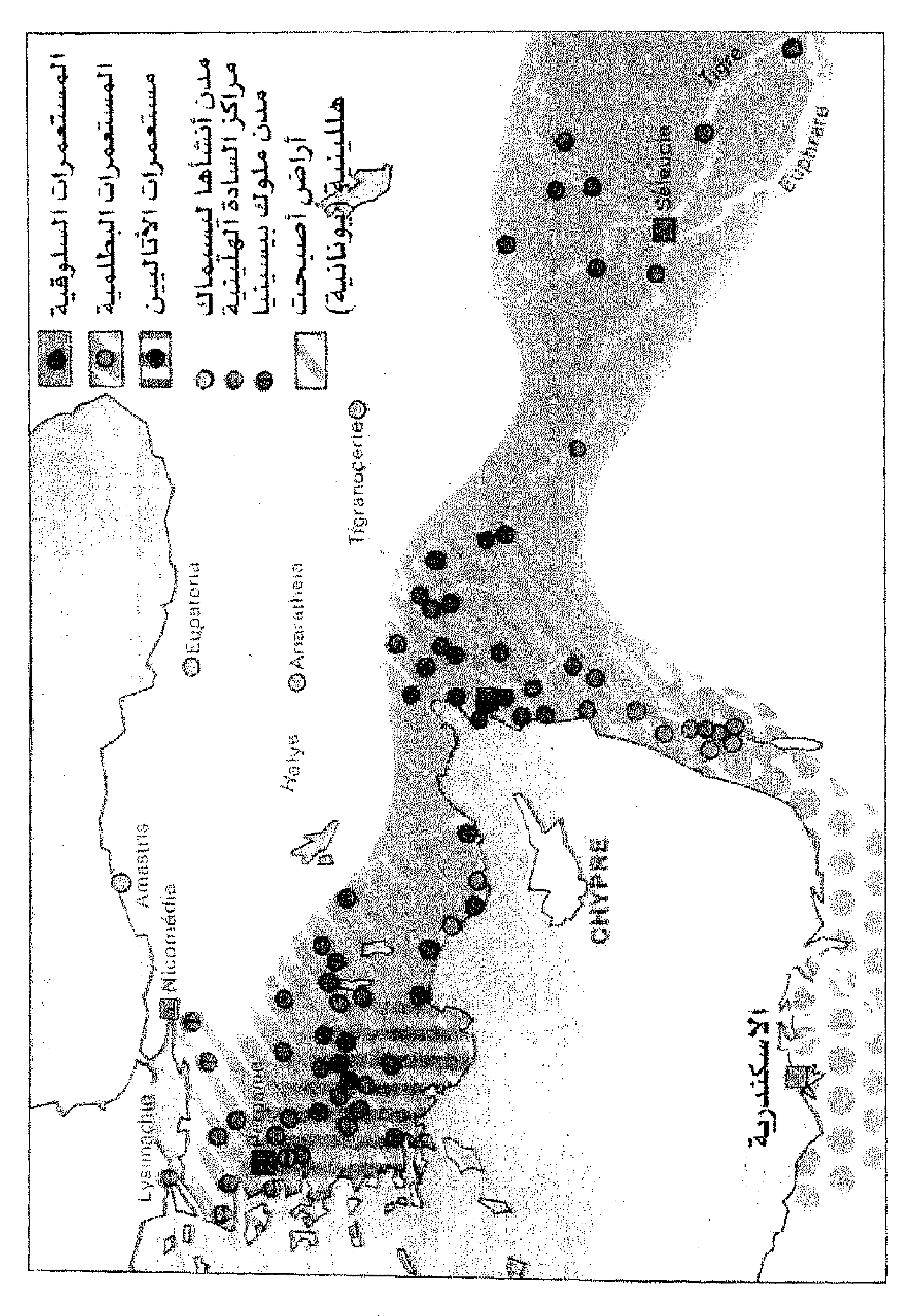


تقسيم سورية والعراق
حسب اتفاقية (سايكس - بيكو) سنة ١٩١٦

خريطة رقم (٧): اسقاط الأمن العربي ومؤامرة التغريب الثقافي.



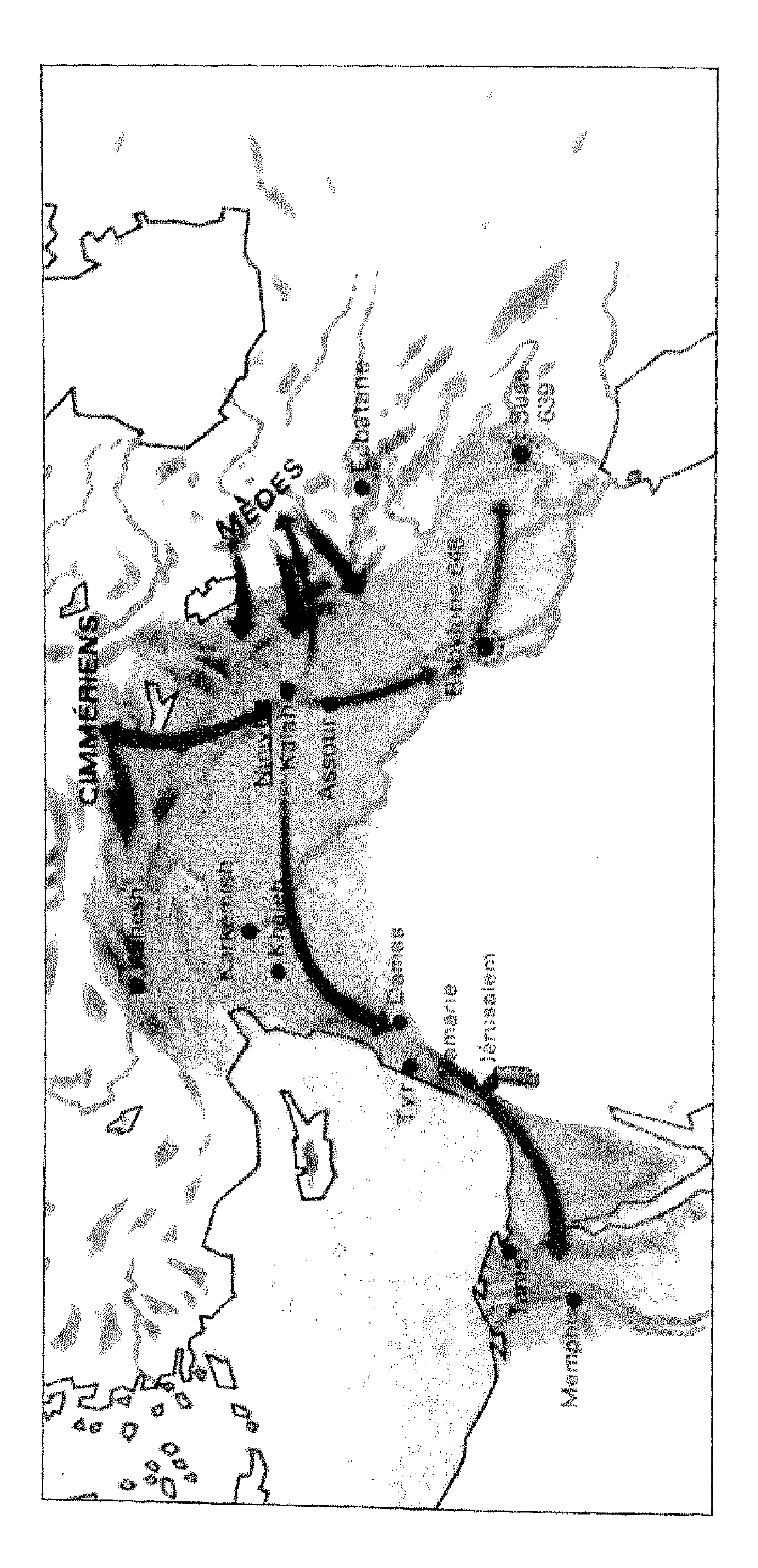
خريطة رقم (٨): انتشار الهجرات العربية في بلاد الشام والعراق في العصور القديمة.



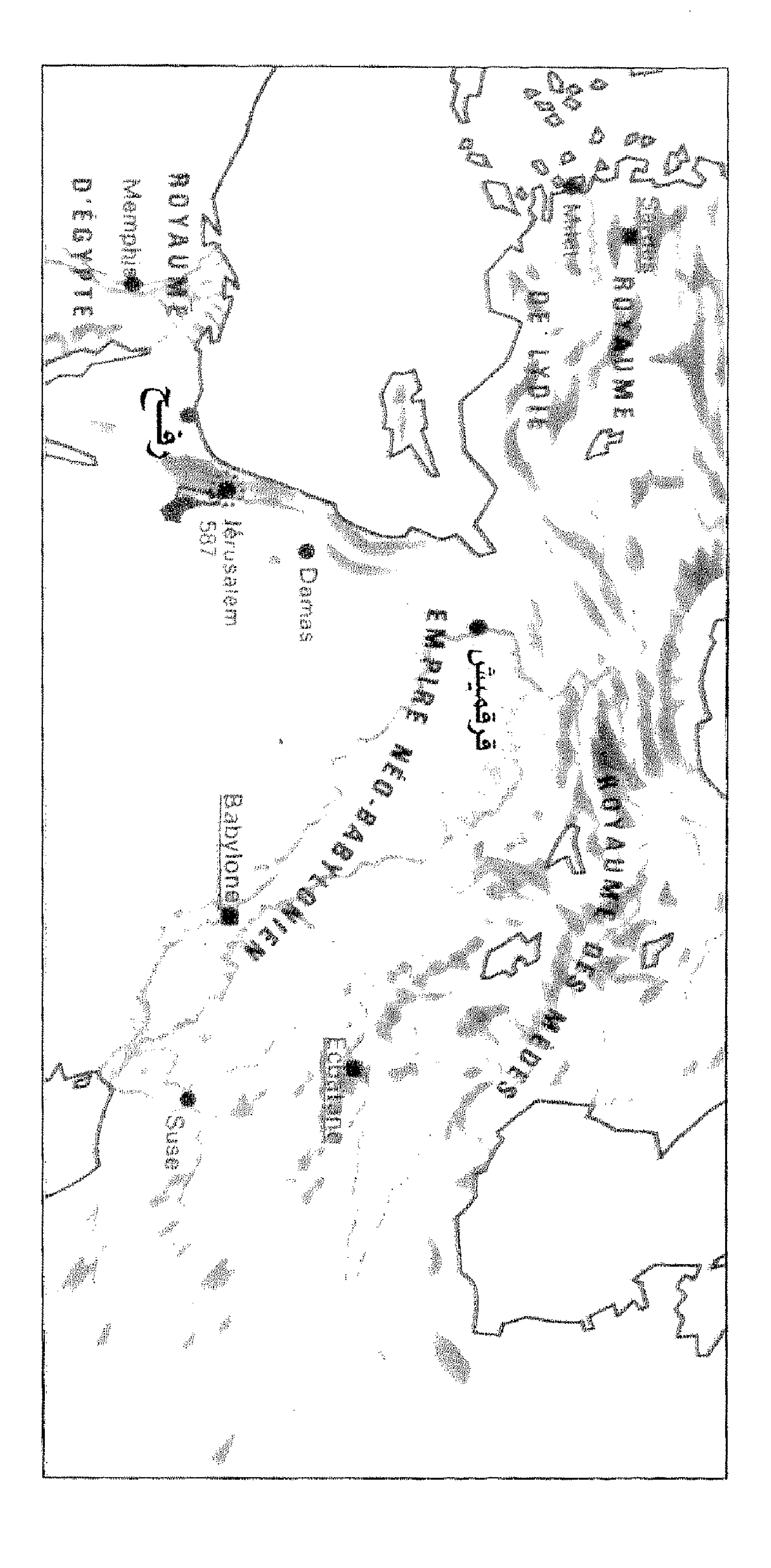
خريطة رقم (٩): المدن التي أنشأت في المرحلة الهلينيستية.



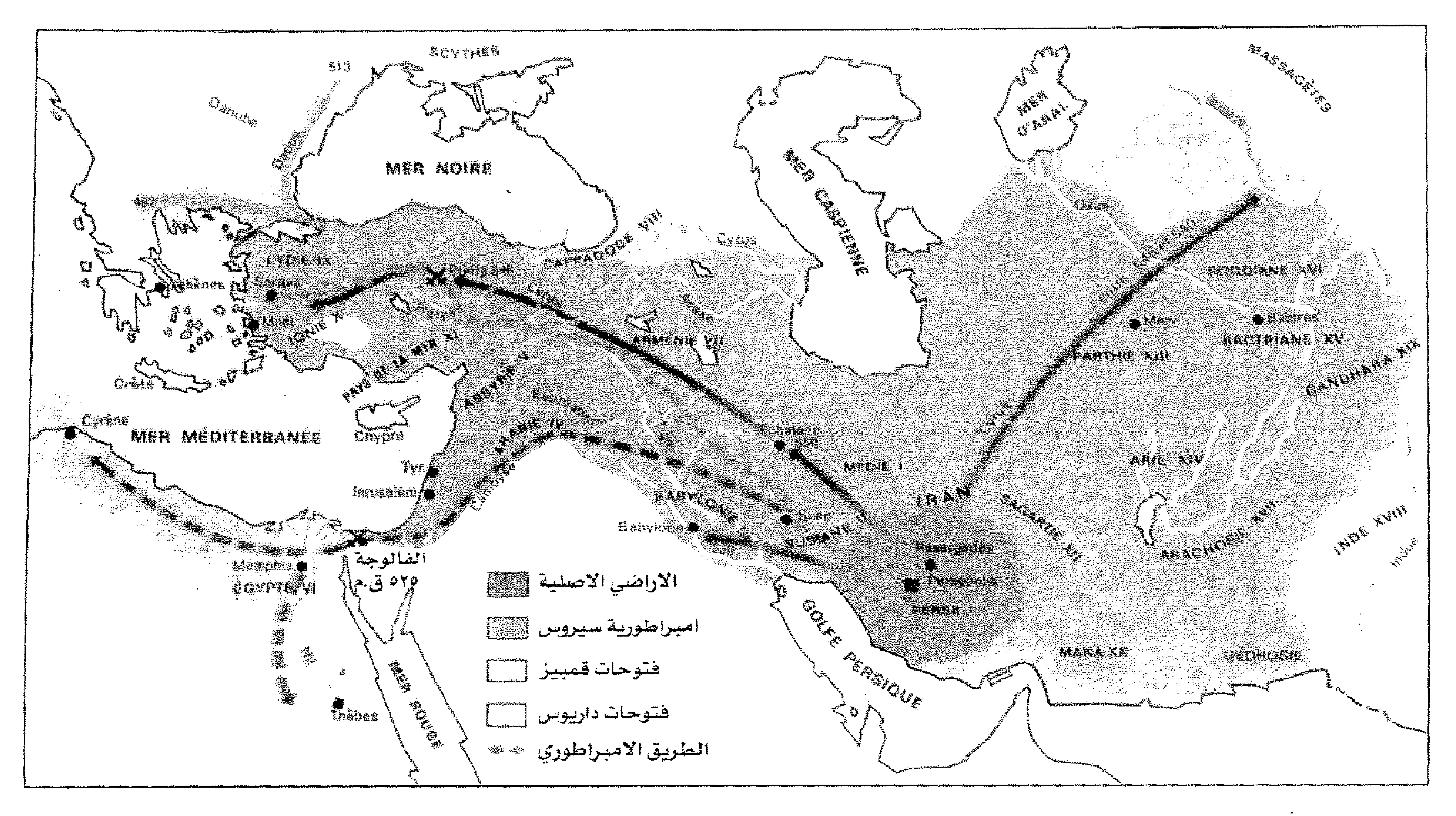
خريطة رقم (١٠): امبراطورية سرجون الثاني.



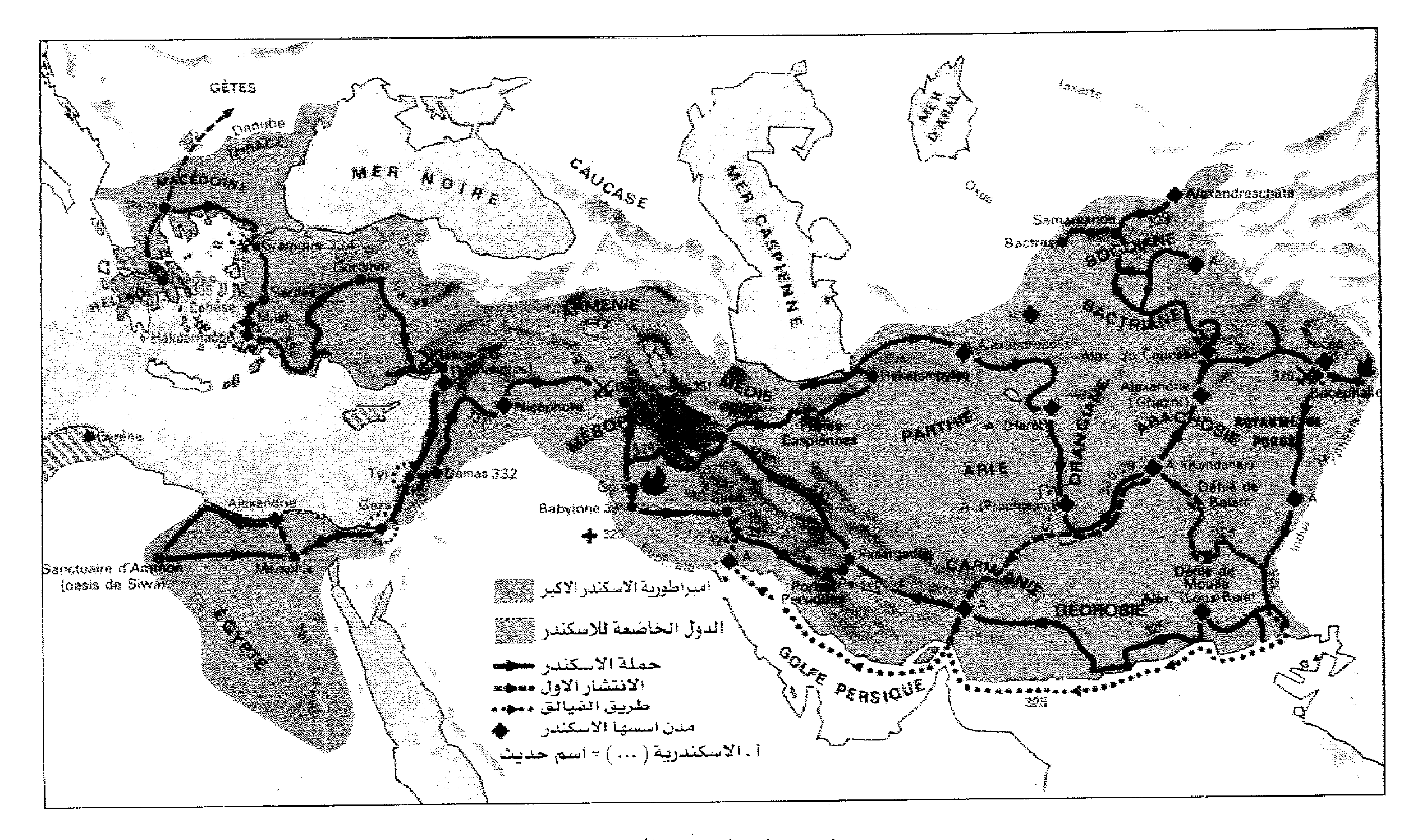
خريطة رقم (١١): امبراطورية آشور بانيبال.



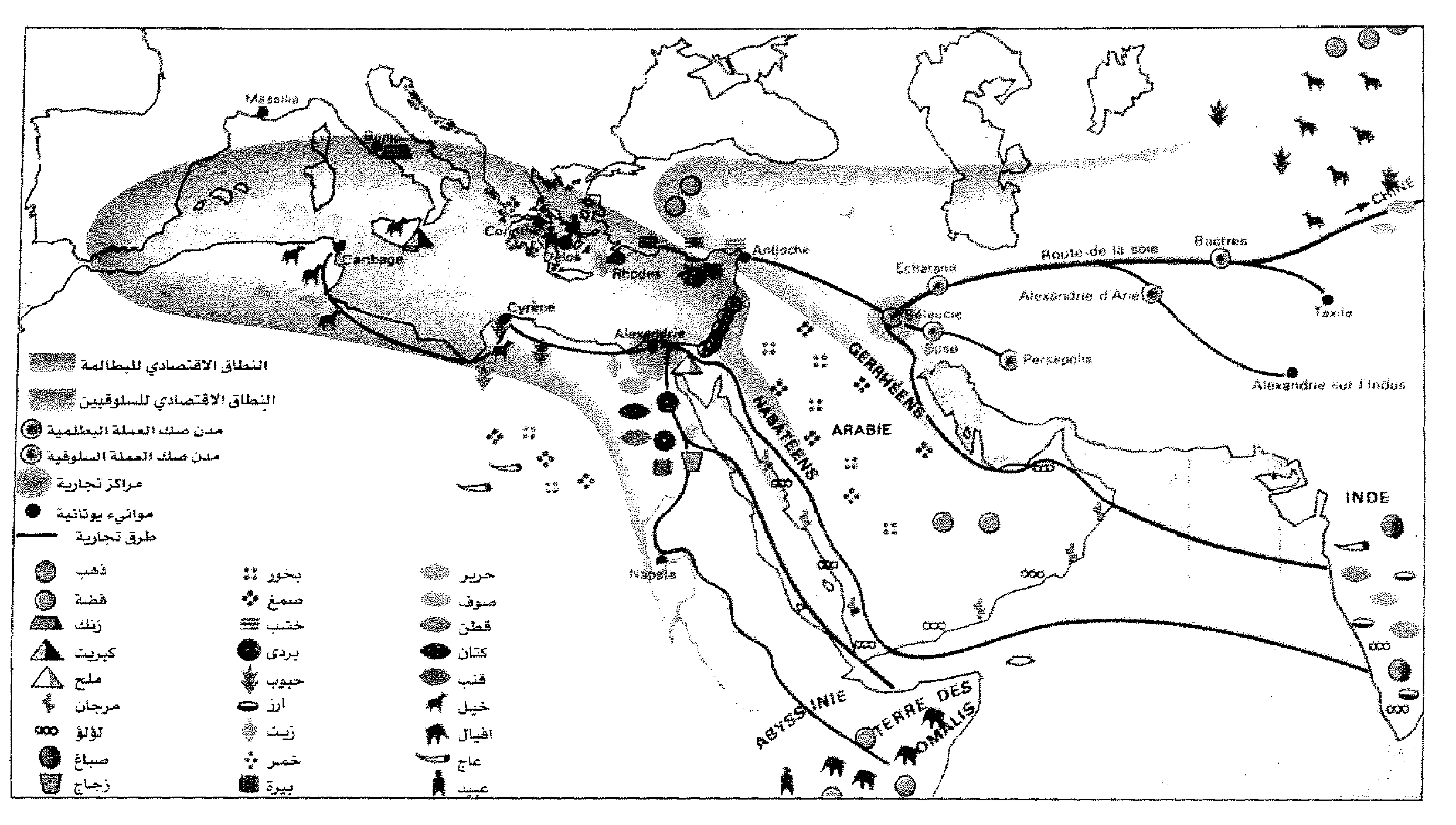
خريطة رقم (١٢): الامبراطورية البابلية الحديثة.



خريطة رقم (١٢): الامبراطورية الفارسية وموقعة الفالوجة ٥٢٥ ق.م.

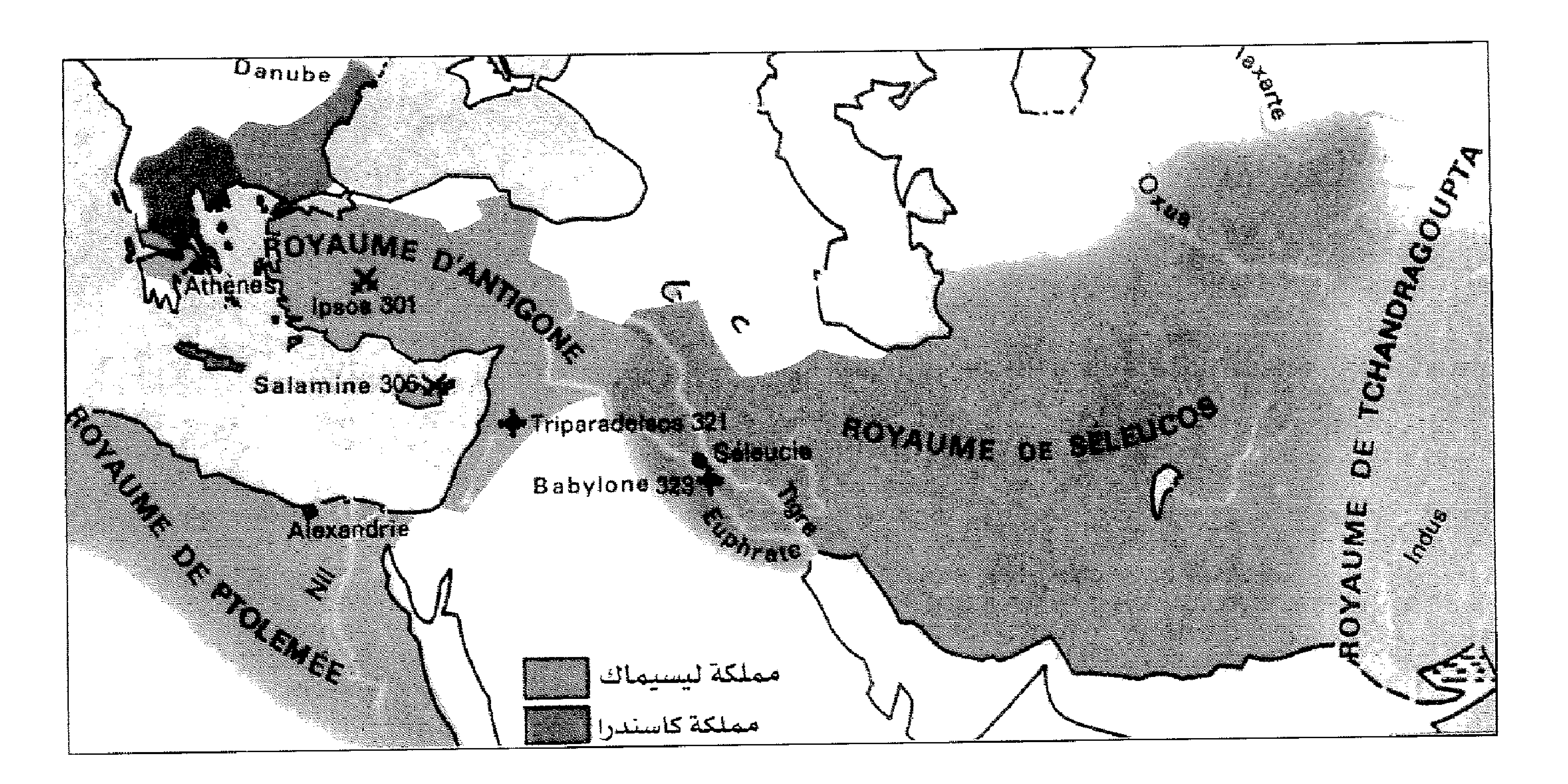


خريطة رقم (١٤): فتوحات الاسكندر الاكبر ٣٣٦-٣٢٣ ق.م.



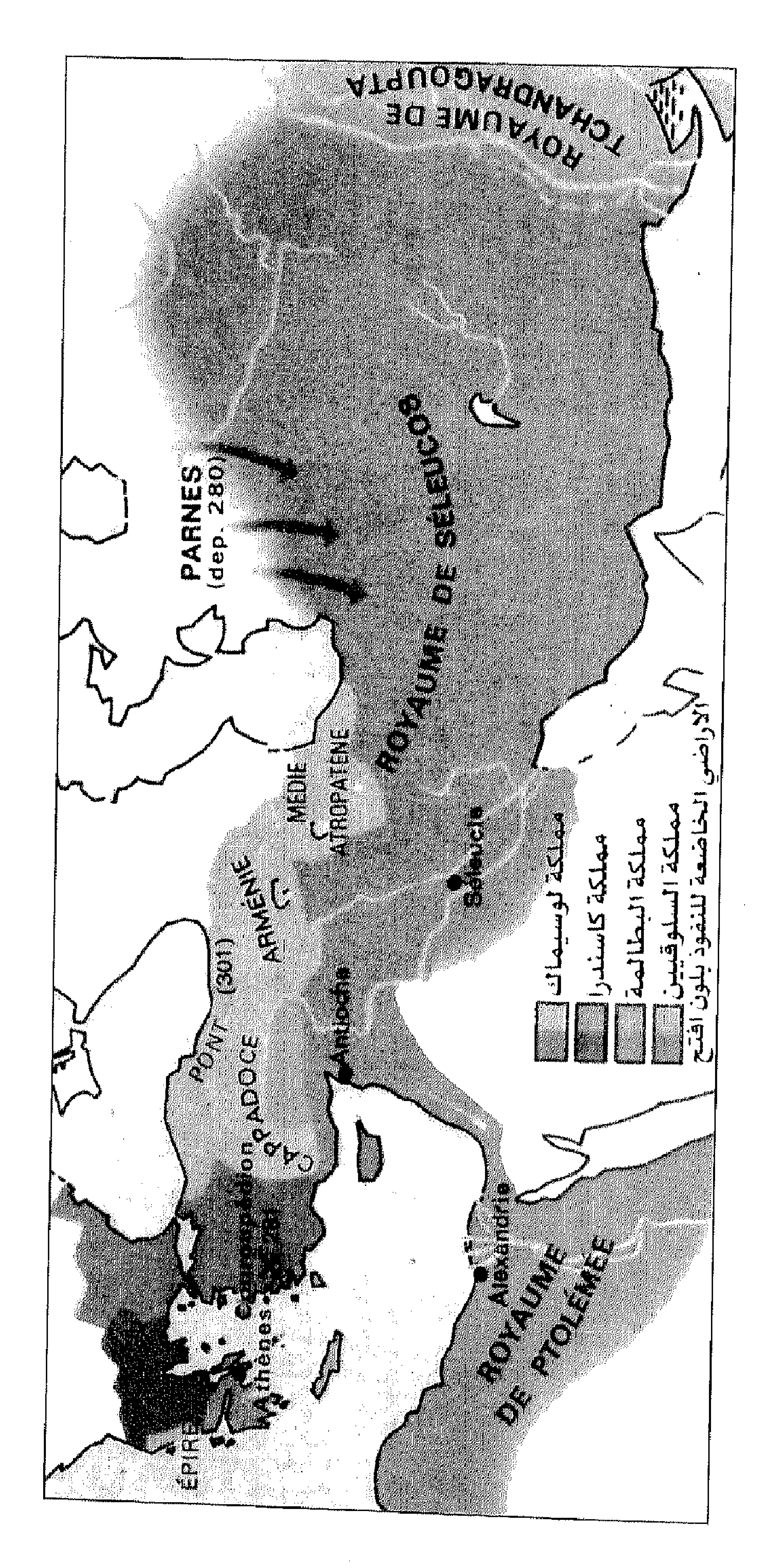
خريطة رقم (١٥): الطرق التجارية والمعادن والسلع.

تقسيم امبراطورية الاسكندر



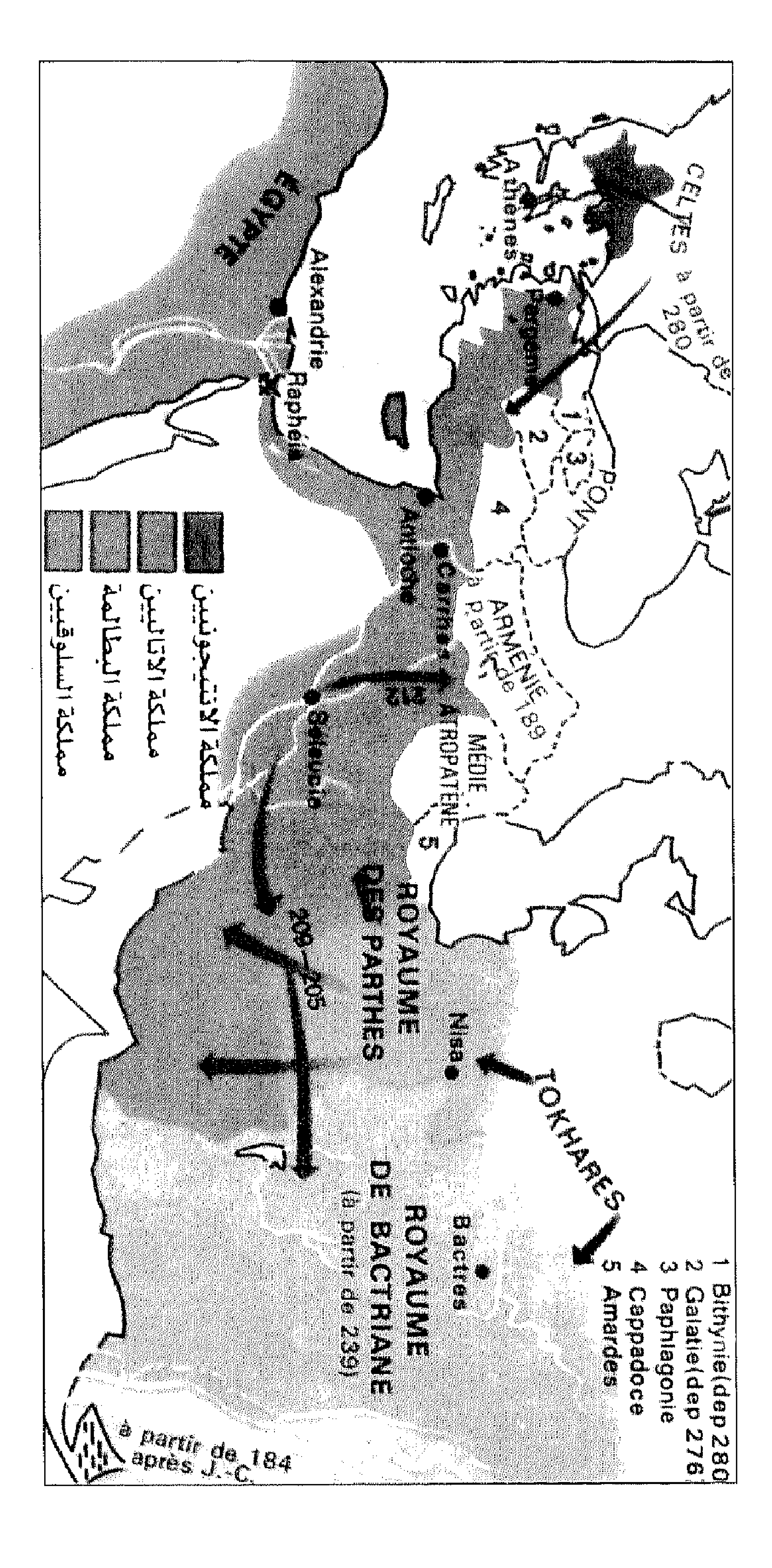
خريطة رقم (١٦):

١ ـ انقسامها بين المغتصبين Diadogues ٣٠٢ ق.م.

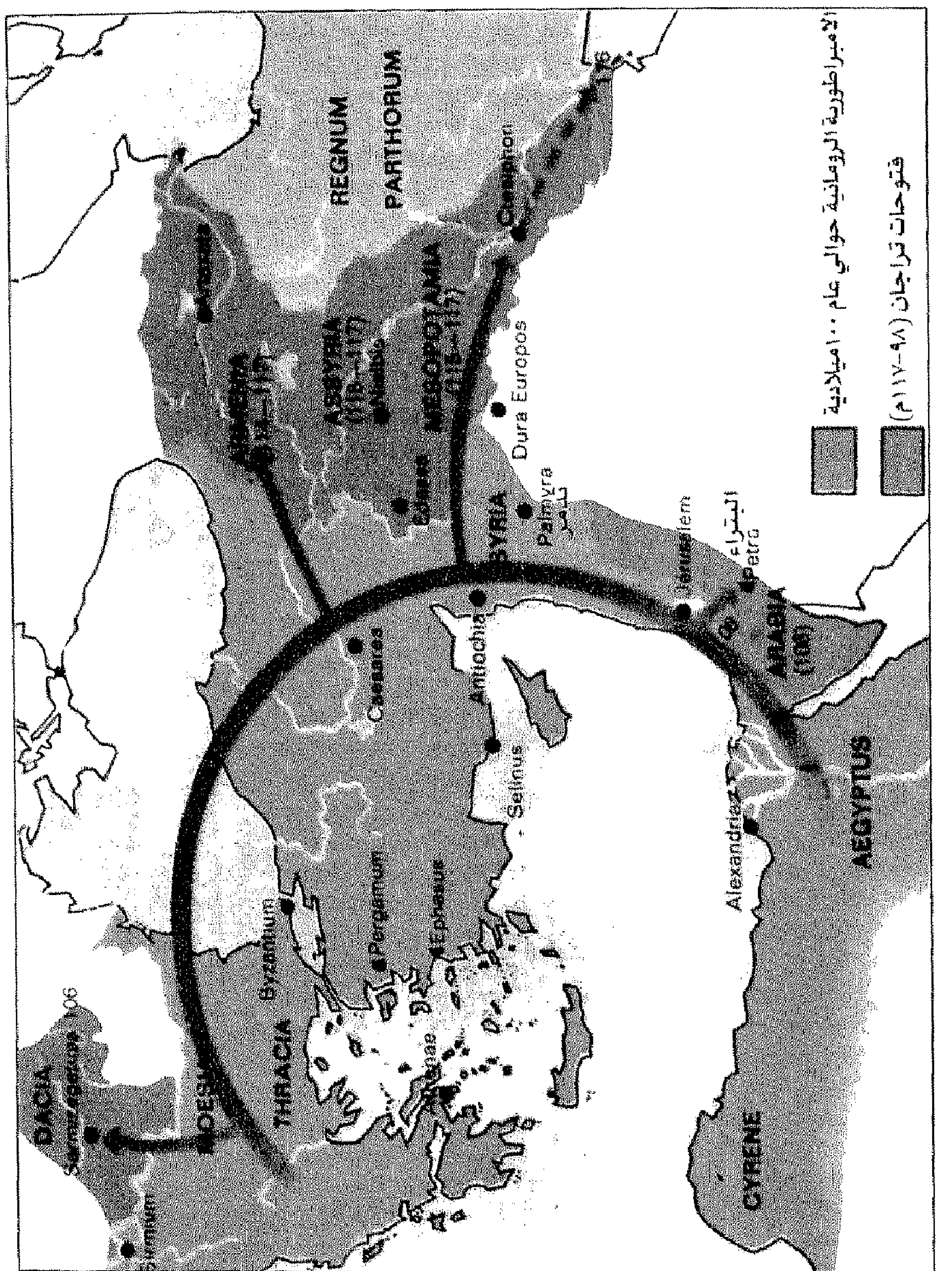


خريطة رقم (١٧):

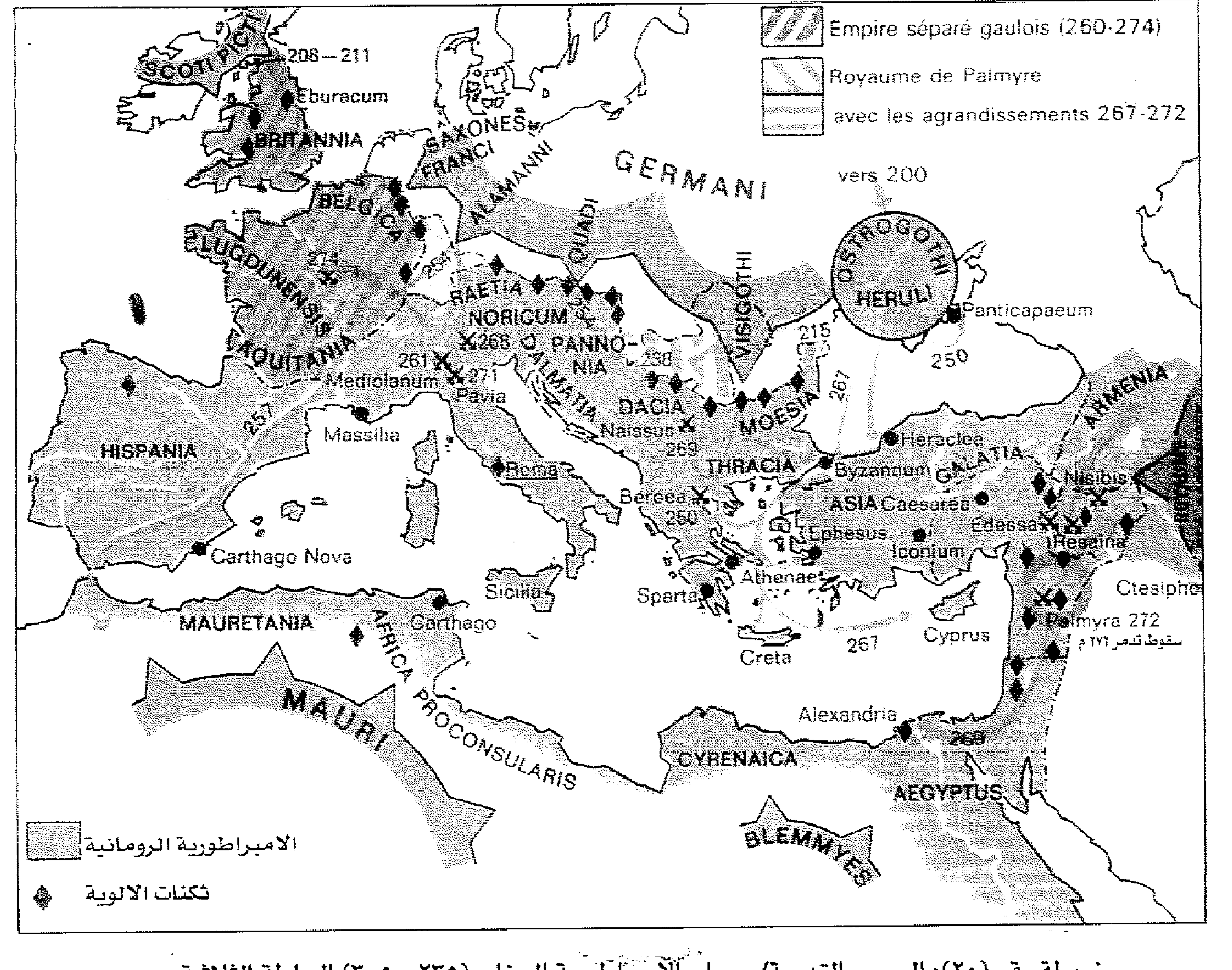
٢ - زوال دولة انتيجونوس ٣٠١ ق.م.



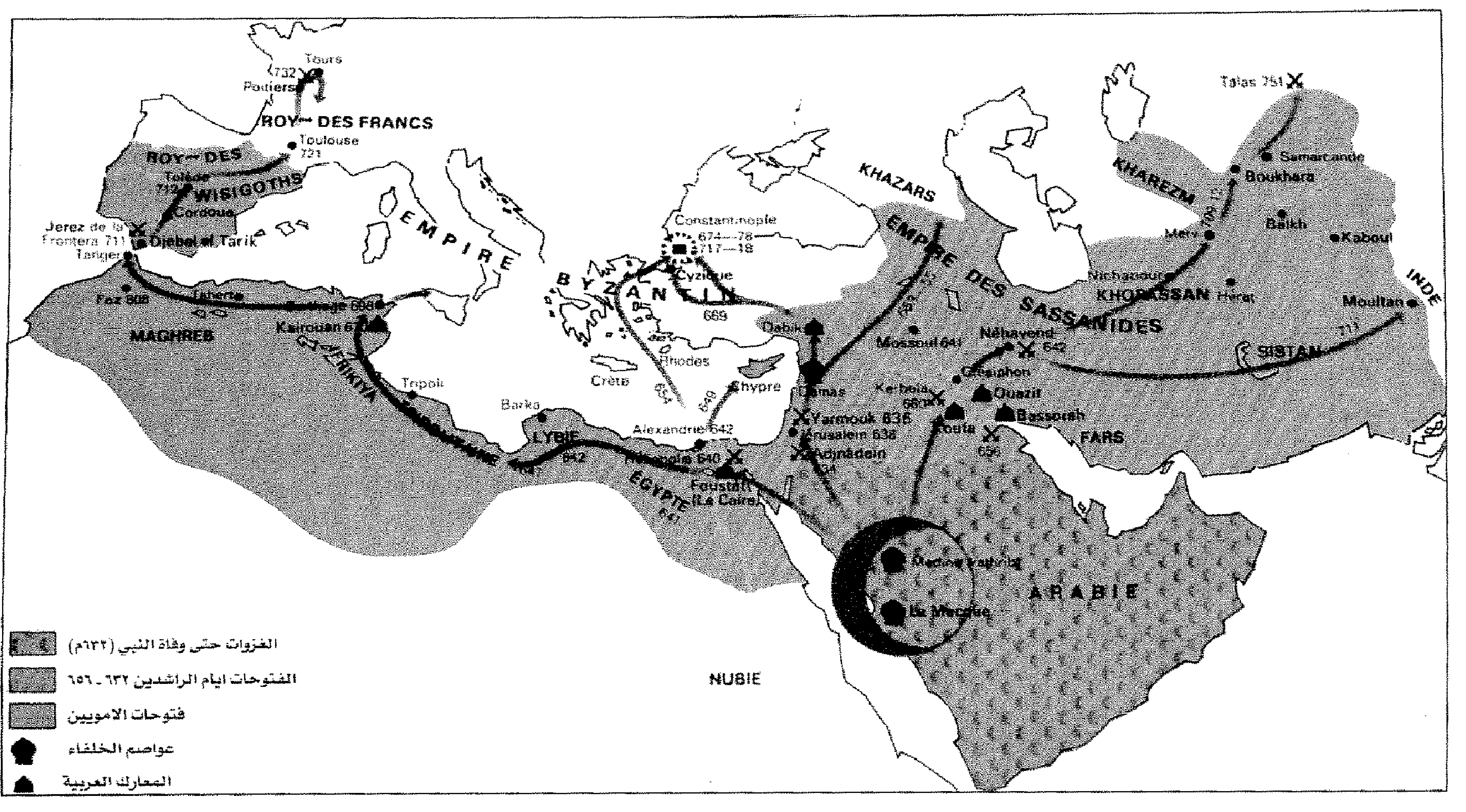
خريطة رقم (١٨): دول المقتسمين حوالي ١٨٠ ق.م.



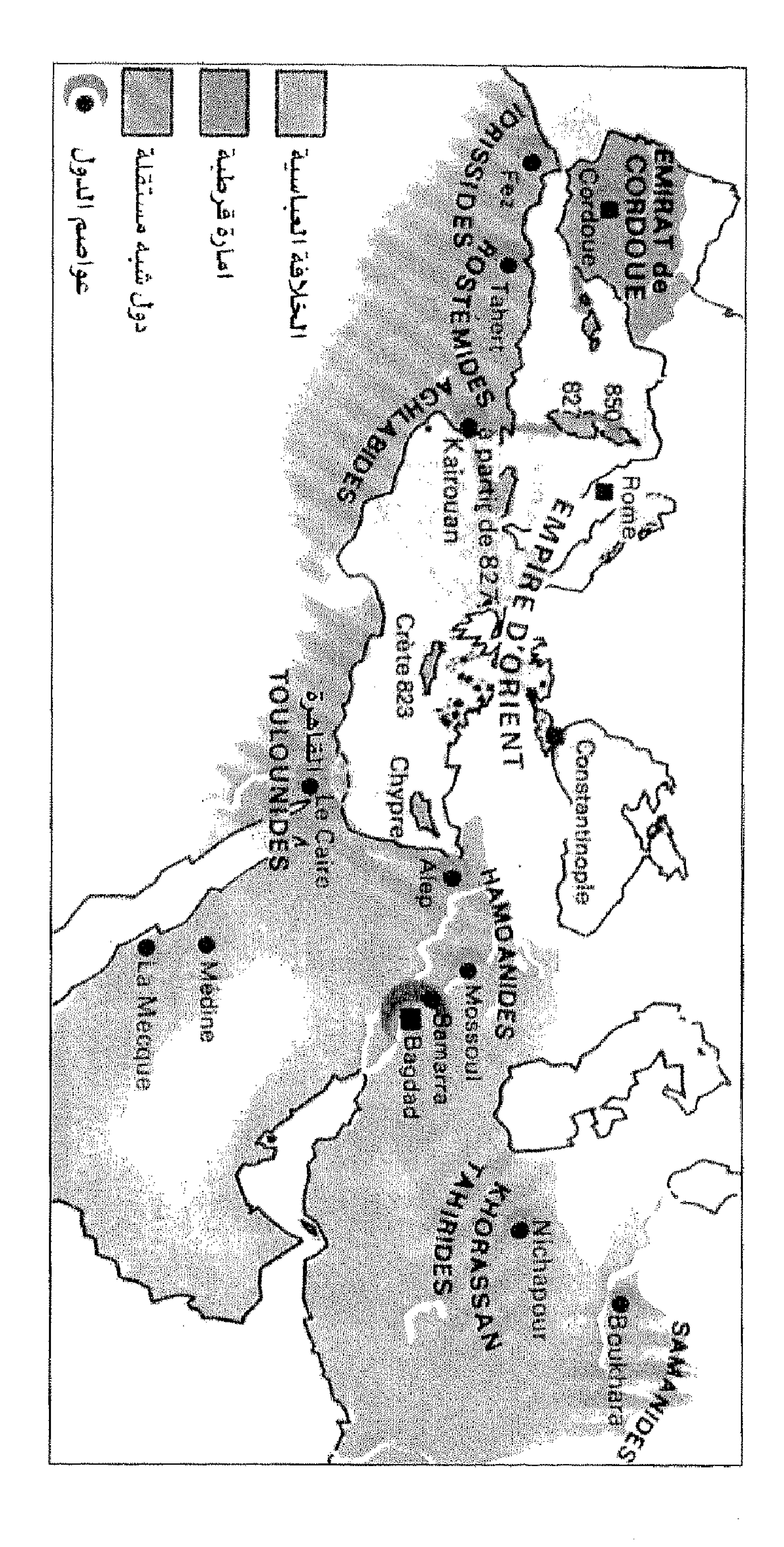
خريطة رقم (١٩): الامبراطورية الرومانية
فتوحات تراجان في الشرق.



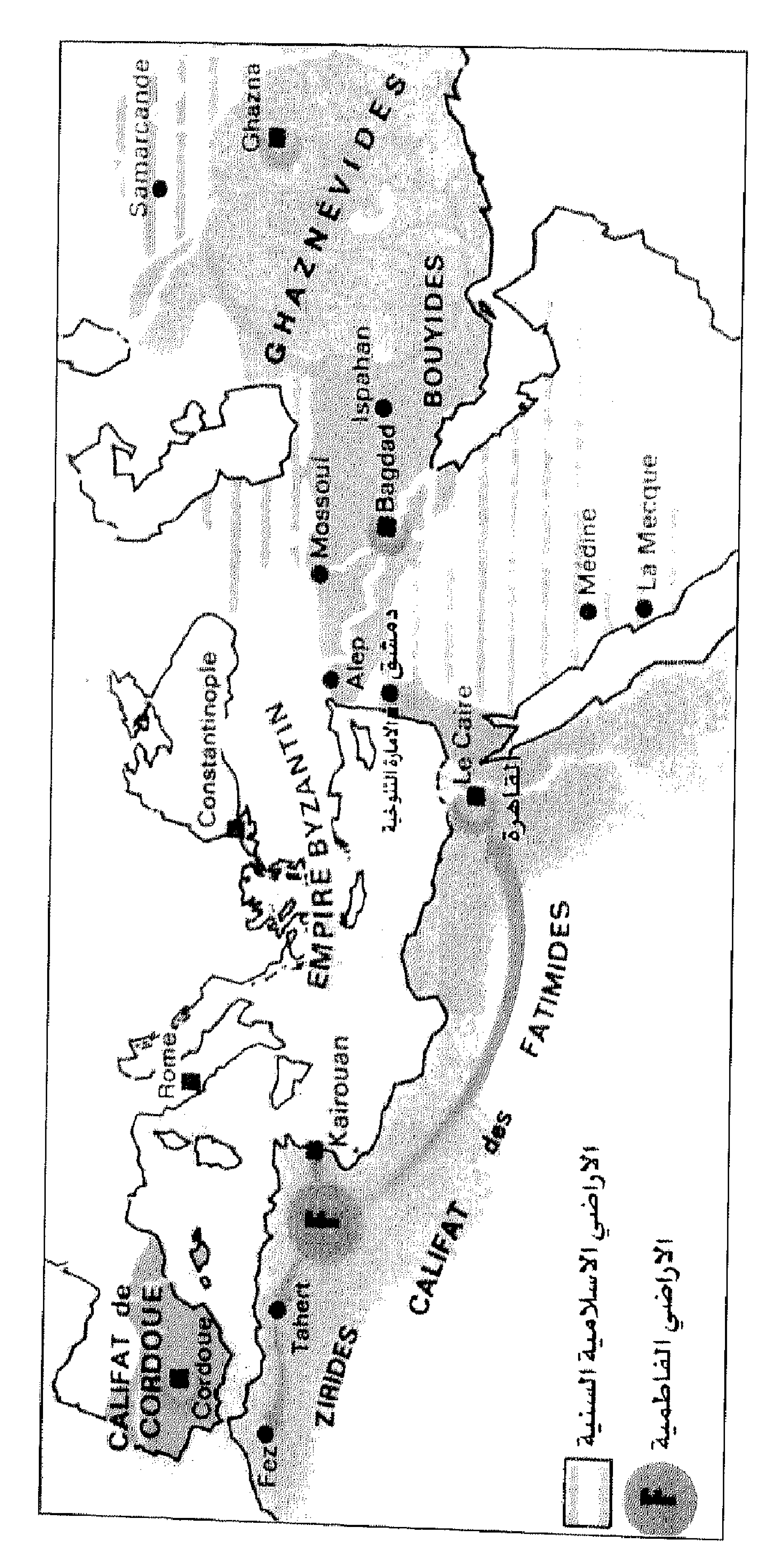
خريطة رقم (٢٠): العصور القديمة/ روما ـ الأمبراطورية السفلى (٢٣٥ ـ ٢٠٥) السلطة الثلاثية.
وتظهر فيها مملكة تدمر ومعركة اسقاطها عام ٢٧٢ م.



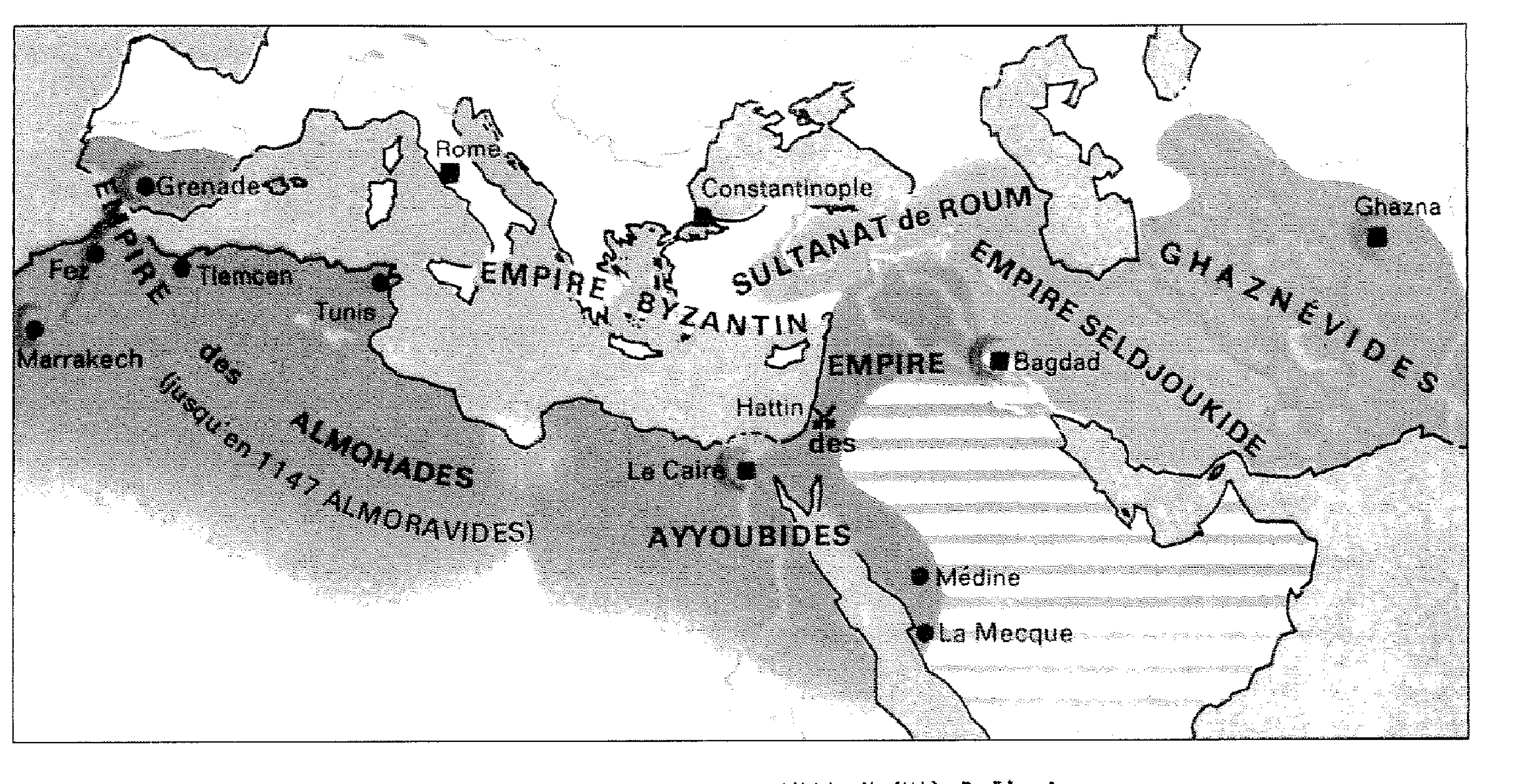
خريطة رقم (٢١): الامبراطورية العربية حتى عام ٧٥٠ ـ الدولة الاموية.



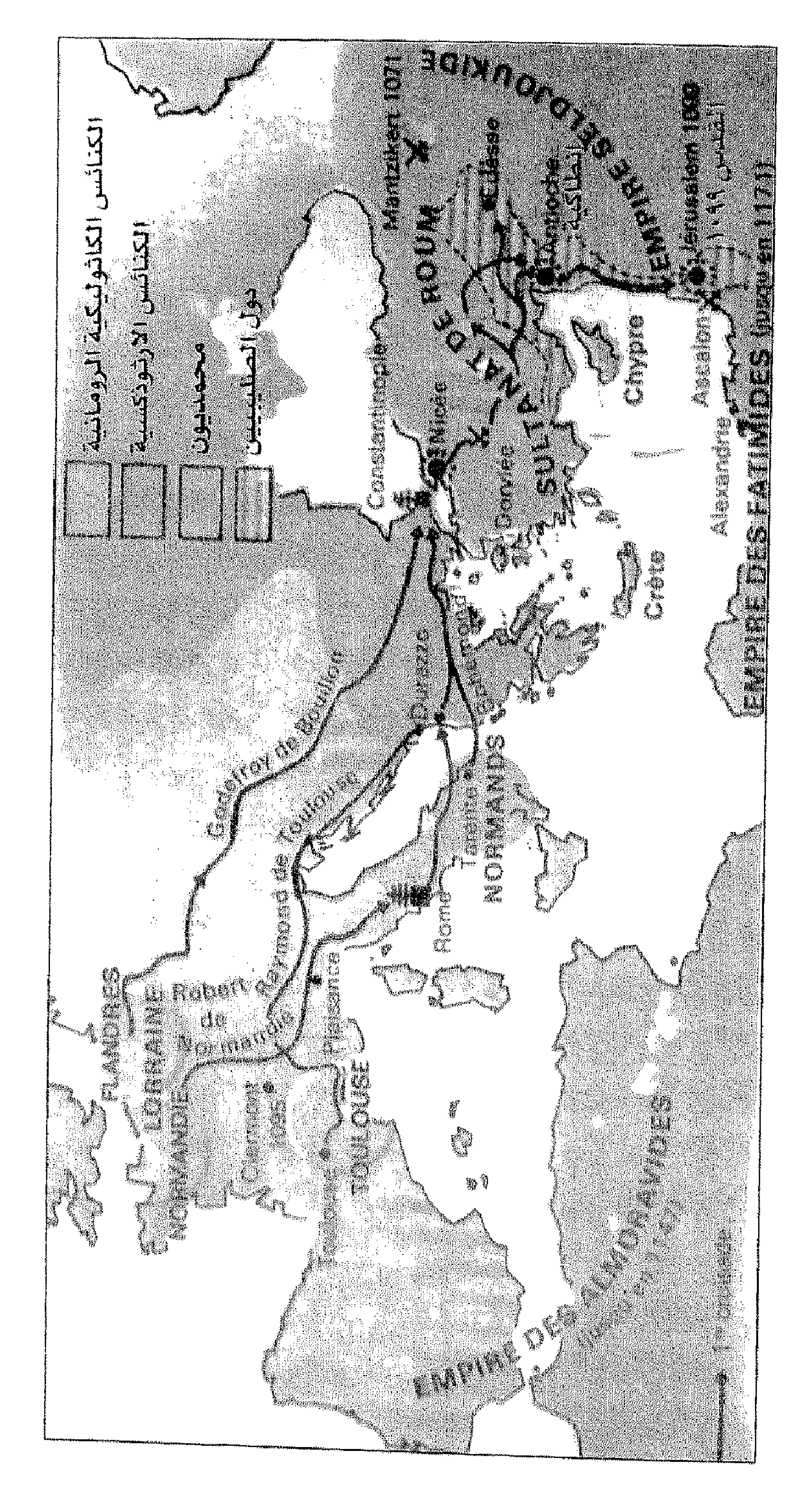
خريطة رقم (٢٢): انتشار الاسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والامارة الحمدانية.



خريطة رقم (٢٢): الدول الاسلامية حوالي سنة ١٠٠٠.

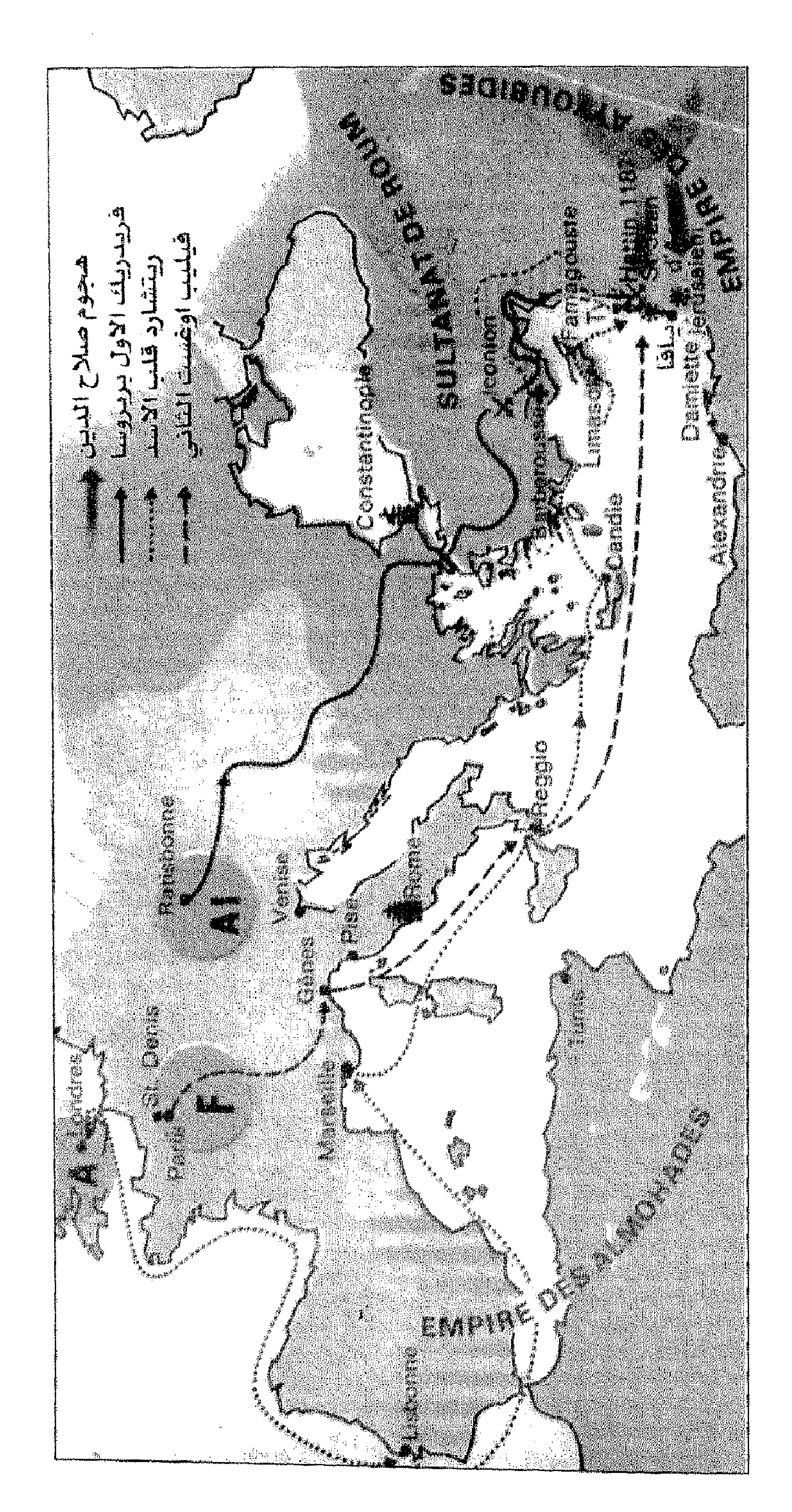


خريطة رقم (٢٤): الدولة الايوبية والدول الاسلامية عام ١١٨٠.

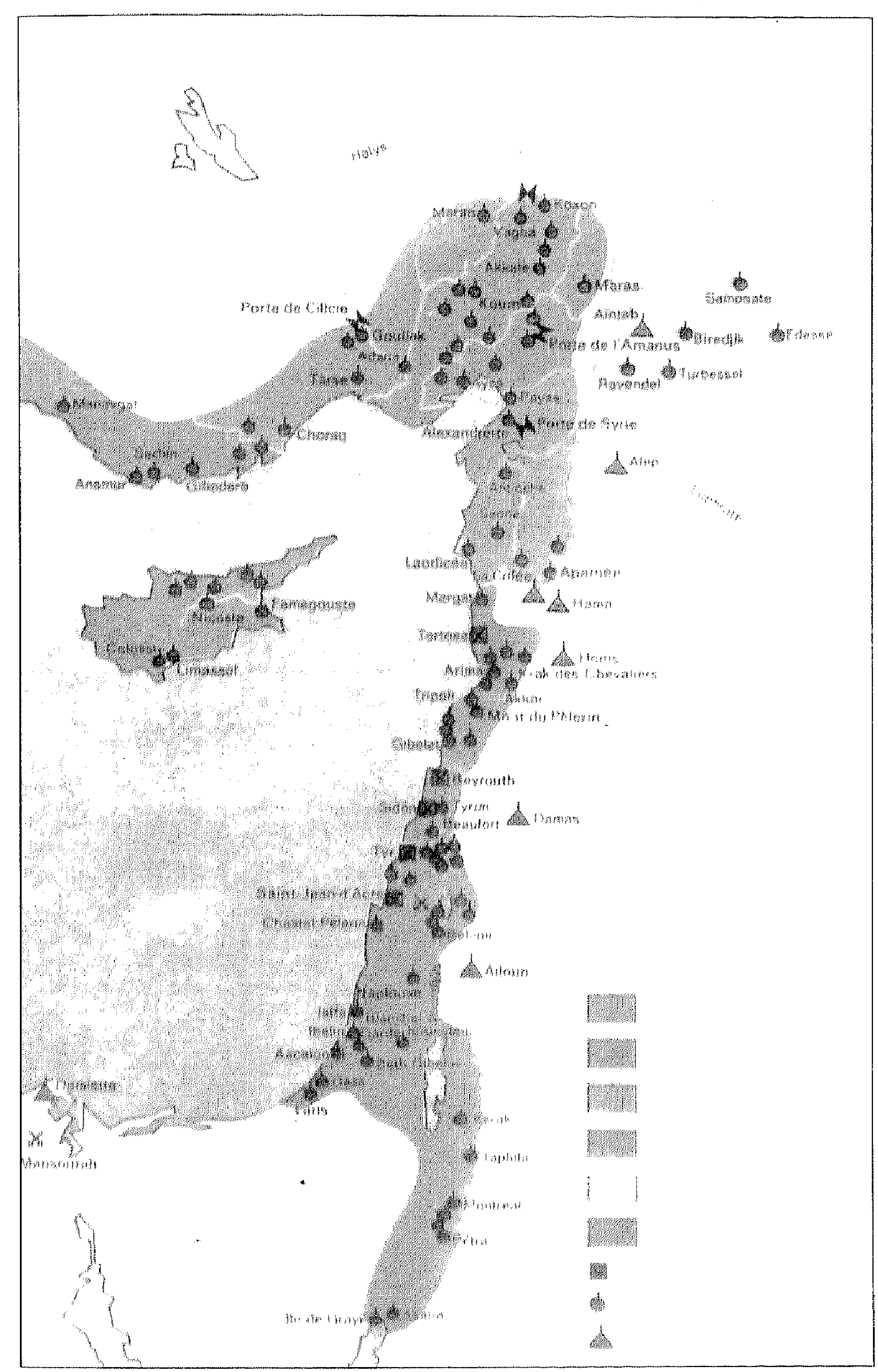


خريطة رقم (٣٥): الحملة الصليبية الأولى.

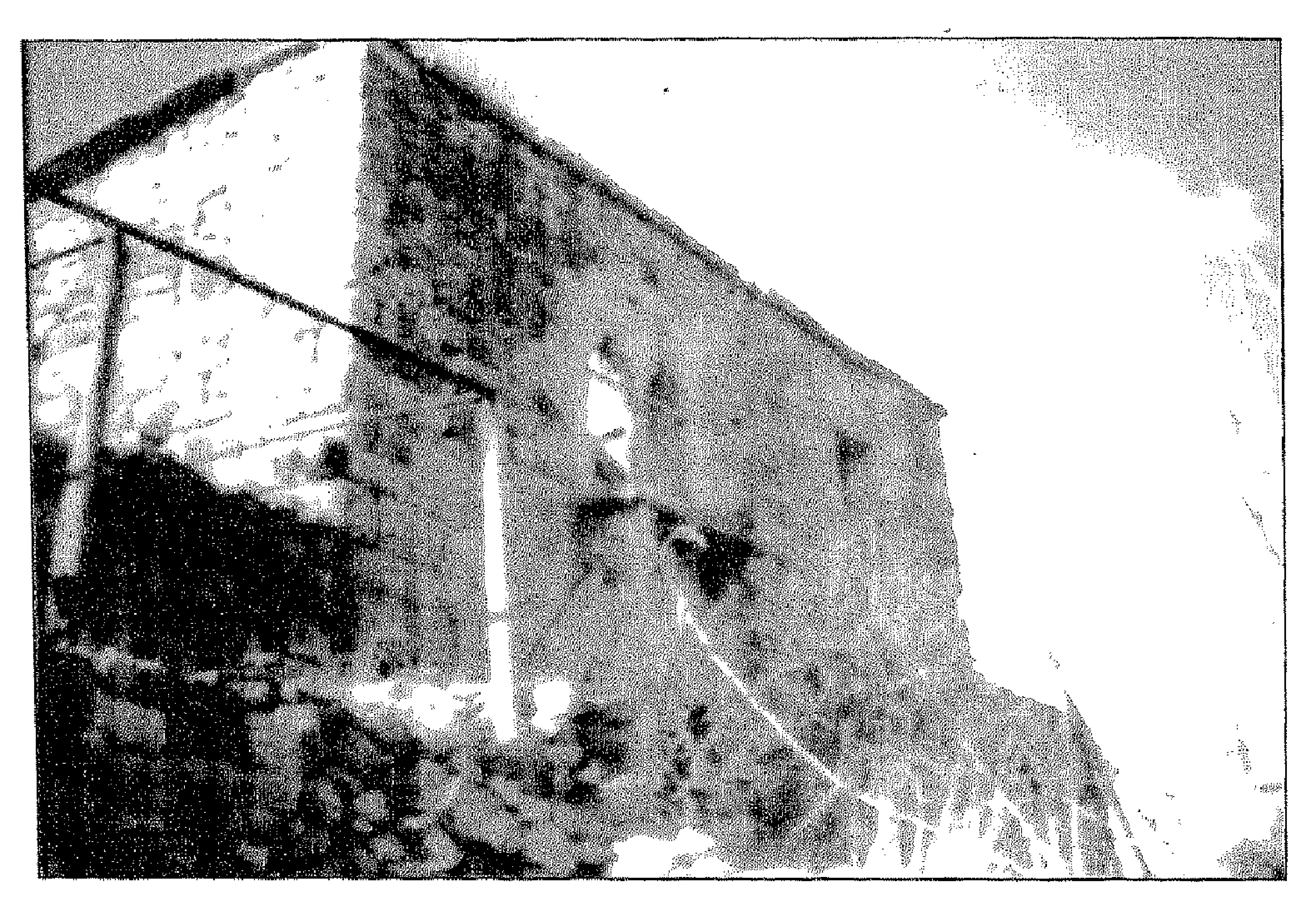
خريطة رقم (٢٦): الحملة الصليبية الثانية.



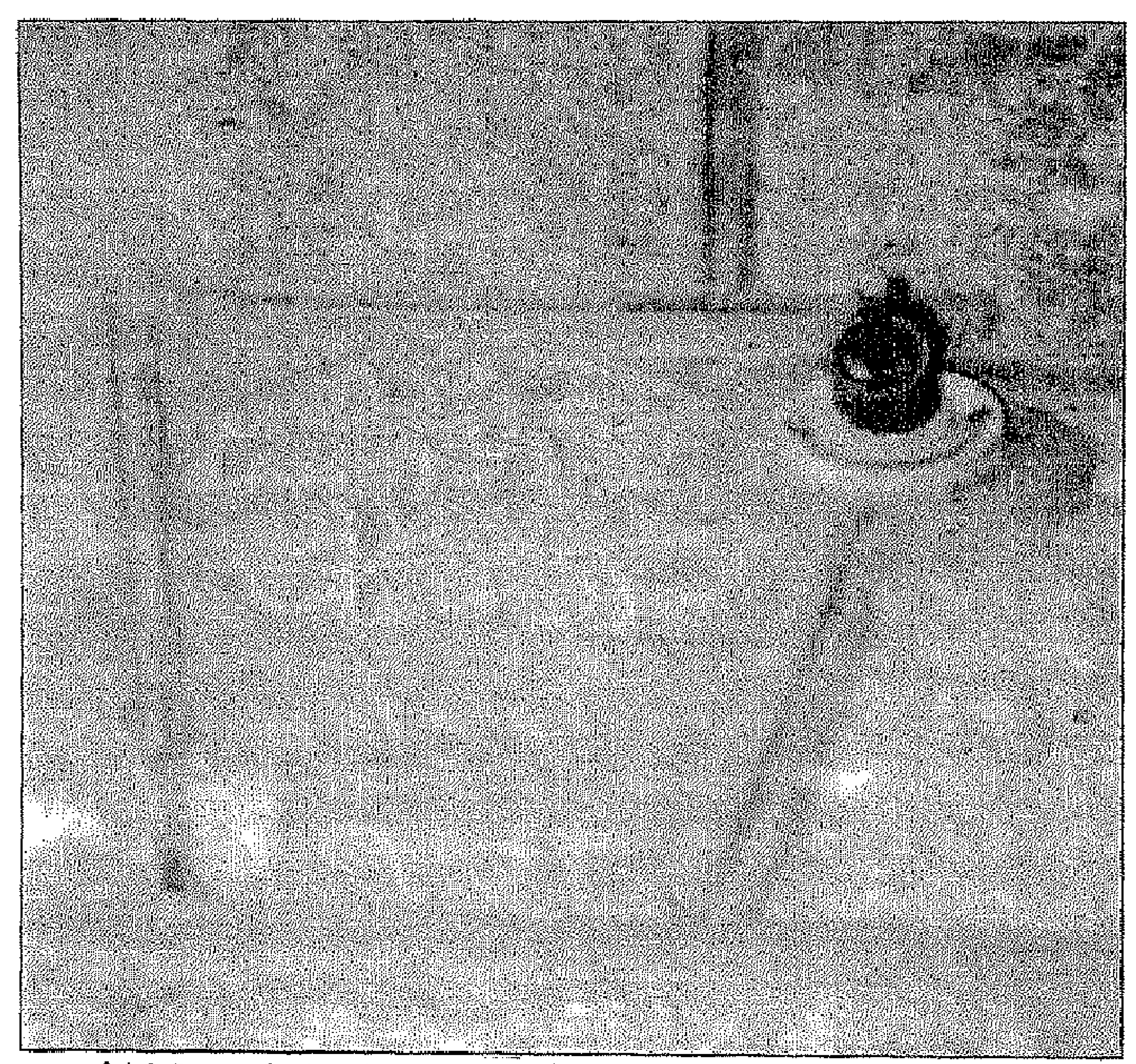
خريطة رقم (٢٧): الحملة الصليبية الثالثة.



خريطة رقم (٢٨): الامارات الصليبية ومملكة القدس
لاحظ ربط عكا بميناء العقبة.



من بقايا حصن آل عبد الملك (التنويخيين) في بتاتر
ويعود تاريخ بنائها لسنة ٩٤٤ م - ٢٧٥هـ - ١٢٥٥ اسكندرية.



حجر بتاتر «سلامة الانسان حفظ الالسان ١٢٥٥» اسكندرية ٩٤٤ م.
وهي تشير برموزها للحلف القومي الحمداني - التنوخي - الفاطمي.

جدول تاريخي للوضع السياسي في البلدان المذكورة [١]

٦٣٤ ـ ١٥١٦م

مصر	سوريا	لبنان	فلسطين	الأردن

مماليك

١٢٩١ ١٢٩١ ١٢٩١

ايوبيون ١١٧٤ ـ ١٢٥٠ | صليبيون | ايوبيون ١١٧٤ ـ ١٢٦٠ | صليبيون | ايوبيون ١١٨٧ ـ ١٢٦٥ | صليبيون | ايوبيون ١١٨٧ ـ ١٢٦٥ | ايوبيون ١١٧٣ ـ ١٢٦٠

١٠٩٩ ١٠٩٩ ١٠٩٩

١١٢٧ ٥ ١٠٧٠ ٤ ١٠٢٧

فاطميون

١٠٠٣ ٣ ٩٤٤

إخشيديون ٩٣٥ ٩٣٧ ٩٣٧ ٩٣٧ ٩٣٧

عباسيون ٩٠٥ ٩٠٥ ٩٠٥ ٩٠٥ ٩٠٥

طولونيون ٨٦٨ ٨٧٧ ٨٧٧ ٨٧٧ ٨٦٨

عباسيون

٧٥٠ ٧٥٠ ٧٥٩ ٧٥٠ ٧٥٠ ٧٥٠

أمويون ٢ ٦٨٥

٦٦٠ ٦٦٠ ٦٦٠ ٦٦٠ ٦٦٠

الفتح ... الراشدون ٦٤٣ ٦٣٤ ٦٣٤ ٦٣٤

(١) الجدول نقلاً عن خريطة الوطن العربي خلال ١٤ قرناً ـ النادي الثقافي العربي، كانون الأول ١٩٨٥ ـ بيروت (بتصرف). (٢) بيزنطيون ٦٣٤ ـ ٧٥٨ (إضافة) ـ أنظر تاريخ الإقطاع في لبنان. (٣) الحمدانيون ٩٤٤ ـ ١٠٠٣. (٤) بنو مرداس ١٠٢٧ ـ ١٠٧٠. (٥) سلاجقة ١٠٧٠ ـ ١١٢٧.

(٢) جدول تاريخي للوضع السياسي في البلدان المذكورة ١٥١٦ - ١٩١٤

مصر	سوريا	لبنان	فلسطين	الأردن
١٩١٤ احتلال بريطاني	يتبع	يتبع / متصرفية جبل لبنان ١٨٦٤	يتبع	يتبع
١٨٨٢ أسرة محمد علي	عثمانيون ١٨٤٠	عثمانيون ١٨٤١	عثمانيون ١٨٤٠	عثمانيون ١٨٤١
	أسرة محمد علي ١٨٣٢	أسرة محمد علي ١٨٣٢	أسرة محمد علي ١٨٣٢	أسرة محمد علي ١٨٣٢
مماليك				
الحملة الفرنسية ١٧٩٨				
عثمانيون ١٥١٧	عثمانيون ١٥١٦	عثمانيون ١٥١٦	عثمانيون ١٥١٧	عثمانيون ١٥١٦
مماليك	مماليك	مماليك	مماليك	مماليك

(٣) جدول تاريخي للوضع السياسي في البلدان المذكورة
١٩١٤ - ٢٠٠١

الأردن	فلسطين	لبنان	سوريا	مصر
٢٠٠١ المملكة الأردنية الهاشمية ١٩٤٦	٢٠٠١ الكيان الصهيوني ١٩٦٧ / الضفة الغربية / ١٩٤٨	٢٠٠١ الجمهورية اللبنانية ١٩٤٥ / ٢٠٠٠ احتلال صهيوني ١٩٧٨	٢٠٠١ جمهورية سوريا العربية ١٩٦١ / ٢٠٠١ احتلال صهيوني ١٩٦٧	٢٠٠١ جمهورية مصر العربية ١٩٦١ / احتلال صهيوني ١٩٦٧
			الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨	الجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨
			١٩٥٨ - ١٩٤٦	جمهورية مصرية ١٩٥٢
انتداب بريطاني ١٩٢٠-١٩٤٦ / ١٩٢٠	انتداب بريطاني / ١٩١٨-١٩٤٨	انتداب فرنسي ١٩٢٠-١٩٤٥ / ١٩٢٠ / ١٩٢٠	انتداب فرنسي ١٩٢٠-١٩٤٦ / ١٩٢٠	١٩٥٢ - ١٩١٤
دولة فيصل بن الحسين		احتلال فرنسي / دولة فيصل بن الحسين	دولة فيصل بن الحسين	
عثمانيون ١٩١٨	عثمانيون ١٩١٨	١٩١٨ متصرفية جبل لبنان / عثمانيون ١٩١٨	عثمانيون ١٩١٨	١٩١٤

هذا الكتاب

لا يعيد التاريخ نفسه، ولكن مسيرته ليست على أيّة حال عشوائية ودون ضوابط، ففي مسيرته ظواهر تمكننا من استخلاص قواعد علمية منها.

ومعرفة هذه القواعد تتيح لنا الفهم العلمي للواقع الراهن، والخلفيّات التي تكمن خلف تعقيدات ظاهره.

وهذا الكتاب يستقرىء القواعد التاريخية العلمية التي تحكم مصير المنطقة التي يدرسها، منذ نشوء الحضارة والمجتمعات السياسية حتى وقتنا الراهن وهي قلب الامن العربي ونقطة توازن العالم بأسره. كما يستقرىء مكبوتات اللاوعي الاجتماعي التي تسبب تعقيدات الوضع الراهن، والتي تعثّر عملية تجاوزه وتحول دون احداث حركة تغيير لبناء مستقبل مشرق.

لقد صدّرت كتابي هذا بعنوان كتاب ابو علم التاريخ العلاّمة ابن خلدون «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر» لعل ثقافتنا العربية تستوعب هذه العبر وتستفيد منها، وتتخلى عن كل ما فسد من موروثنا الثقافي، وما جرته علينا ثقافتنا المستغربة، ما يجنب اجيالنا القادمة سوء المصير الناتج عن سوء التقدير، كما يجنبنا التخبط في التعامل مع الواقع الراهن.

المؤلف

